سالي روني

رواية

أناس عاديون

قائمة نيويورك تايمز لأكثر الكتب مبيعاً

المركز الثقافي العربي

Bitterness-S

سالي روني

أناس عاديون

رواية

ترجمة: مصطفى بنعمي

المركز الثقافي العربي

Bitterness-5

إن من بين أسرار ذلك التغيير في الاتزان الذهني الذي يُسمَّى الاهتداء، أن بالنسبة للكثير من الناس لا يوجد وحي في السماء ولا في الأرض، إلى أن يأتيهم شخص ما ويلقي بتأثيره الفريد عليهم ويجرهم إلى التقبل.

جورج إليوت، دانيال ديروندا

Bitterness-5

يناير 2011

قرع كونيل الجرس ففتحت ماريان الباب. كانت لا تزال في بدلتها المدرسية، إلا أنها خلعت سترتها وظلت بالقميص والتنورة، أما قدماها فكانتا عاريتين إلا من جوربيها. بادرها التحية:

- مرحباً.

- ادخل.

استدارت وسارت في اتجاه الردهة فأغلق الباب وتبعها. وعلى بعد خطوات، داخل المطبخ، كانت والدته لورين تخلع قفازين مطاطيين. اعتلت ماريان المنضدة وتناولت وعاء الشوكولاتة القابلة للدهن حيث تركت الملعقة.

بادرت لورين بالقول:

- أخبرتني ماريان أنكم اطلعتم على نتائج الامتحانات التجريبية نهار اليوم.

قال كونيل:

- اطلعنا على نتائج مادة اللغة الإنجليزية؛ يطلعوننا على نتائج المواد كل على حدة. أتودين الذهاب؟

طوت لورين القفازين المطاطيين بأناقة ووضعتهم تحت حوض

Bitterness-s

المطبخ وطفقت تفك شعرها. بدا لكونيل أن تلك مهمة كانت لتنجزها داخل السيارة.

- وقد وصلني أنك أبليت بلاء حسناً.

فردت ماريان:

- يحتل المرتبة الأولى في الفصل.

قال كونيل:

- هذا صحيح. وماريان حصلت على نتائج جيدة كذلك. هلا ذهبنا؟

توقفت لورين عند فك مئزرتها قائلة:

- لم أكن أعلم أننا على عجلة من أمرنا.

وضع يديه في جيبه وحبس تنهيدة انفعالية، بيد أنه حبسها بأنفاس مسموعة، ما جعلها تبدو مثل تنهيدة فعلاً.

قالت لورين:

- أوشكت على الانتهاء، لم يتبق لي إلا الصعود لإخراج بعض الملابس من آلة التنشيف. بعدها يمكننا الرحيل، أهذا جيد؟

لم ينبس ببنت شفة واكتفى بإيماءة من رأسه بينما اختفت هي عن المكان.

- أتريد بعضاً من هذا؟

سألته ماريان وهي تحمل وعاء الشوكولاتة القابلة للدهن. دس يديه في أسفل جيبيه قليلاً، كما لو أنه أراد أن يخفي جسده بالكامل داخلهما. وقال:

- لا، أشكرك.

- هل اطلعت على نتائج مادة اللغة الفرنسية اليوم؟

- بل بالأمس.

Bitterness-s

أسند ظهره على الثلاجة وهو يشاهدها تلعق ما تبقى من الشوكولاتة في الملعقة. في المدرسة يتظاهران بعدم معرفة أحدهما الآخر. يعلم الجميع أن ماريان تعيش في ذلك القصر الأبيض ذي الممر الخاص بالسيارات، وأن والدة كونيل تعمل خادمة في البيوت، عدا أن لا أحد يعلم العلاقة الخاصة القائمة بين هذه الحقائق.

- حصلت على A1[1]. وأنتِ، كيف كانت نتيجتكِ في مادة اللغة الألمانية؟

- حصلت على A1؛ هل تتبجح بذلك؟

- ستحصلين على ستمائة، أليس كذلك؟

هزت كتفيها قائلة:

- قد تحصل أنت عليها.

- أنتِ أذكى مني.

- يجب ألا يضايقك ذلك، فأنا أذكى من الجميع.

أفصح ثغر ماريان عن ابتسامة لحظتئذ، فهي تبدي ازدراءً صريحاً تجاه الجميع في المدرسة، لذا فلا أصدقاء لديها، وتقضي وقت تناول الغداء وحيدة تقرأ الروايات. ويكن لها الكثيرون مشاعر الكره. أما والدها فقد توفي وهي لم تتجاوز الثالثة عشر من عمرها، وقد تناهى إلى مسامع كونيل أنها تعاني من مرض نفسي أو ما شابه. صحيح أنها الأذكى في المدرسة كلها. كان يخاف من البقاء وحيداً إلى جانبها مثل الآن، ويجد نفسه يُخيل إليه أنه يثير انبهارها بما يقول.

---

(1) أعلى درجات التقييم في امتحان نهاية المرحلة الثانوية، وأحد المؤهلات في النظام التعليمي الأيرلندي - المترجم.

Bitterness-S

- لعلكِ لست الأولى على الصف في مادة اللغة الإنجليزية.
لاكت أسنانها غير آبهة وقالت:
- ربما عليك أن تساعدني بدروس إضافية، يا كونيل.
أحس باحمرار أذنيه. ربما كانت تتحدث بعفوية ولم تكن تقصد ذلك حقاً، فأما إن كانت تقترح ذلك بالفعل فمن أجل التقليل من شأنه وحسب من خلال ربطه بشخص مثلها؛ كونها محط اشمئزاز الجميع. فهي تنتعل حذاء مسطحاً سميكاً وقبيحاً، ولا تضع مساحيق التجميل. وقد تناقل البعض أنها لا تحلق شعر ساقيها ولا أي مكان آخر، كما بلغ كونيل ذات مرة أنها أوقعت مثلجات الشوكولاتة على ثيابها في باحة تناول الغداء، فذهبت إلى مرحاض الفتيات وخلعت قميصها لتغسله في حوض المياه. وأضحت تلك قصة مشهورة عنها تناقلتها الألسن وسمعها الجميع. ولو أنها أرادت لأقامت عرضاً كبيراً فقط بإلقاء التحية عليه في المدرسة، بوسعها القول فقط «أراك لاحقاً هذا المساء» أمام الجميع لتجعله في وضع حرج أمام الملأ، وهو الأمر الذي يبدو عليها أنها تجد لذة في القيام به، مع أنها ما فعلت ذلك قط.
- عماذا كانت تحدثك الآنسة نيري اليوم؟ سألت ماريان.
- أوه، لا شيء، لا أعلم. أمور خاصة بالامتحانات.
حركت الملعقة حول الوعاء وقالت:
- أتراها معجبة بك، أو شيئاً من هذا القبيل؟
ظل كونيل يشاهدها وهي تحرك الملعقة، بينما لم تزل أذناه محمرتين وأجاب:
- وما الذي يجعلك تقولين ذلك؟
- رباه، لا تقل لي إنك على علاقة بها.

Bitterness-s

- قطعاً. أتعتقدين أن أمراً كهذا يحتمل المزاح؟

- آسفة.

كانت تتفرس فيه بتركيز، كما لو كانت تخترق مؤخرة رأسه من خلال عينيه. وقالت:

- أنت محقّ، الأمر ليس مضحكاً، آسفة.

أومأ برأسه، ومن ثم جال ببصره في أرجاء الغرفة قليلاً، وغرس مقدمة حذائه في شق بين بلاطين، مردفاً:

- أحياناً ينتابني شعور أنها تتصرف بغرابة تجاهي، إلا أني ما كنت لأخبر أحداً بهذا.

- حتى داخل الفصل أعتقد أنها تتغزل بك.

- أحقاً تعتقدين ذلك؟

أومأت ماريان برأسها فيما دعك عنقه. الآنسة نيري تدرس مادة الاقتصاد وتعد مسألة مشاعره المزعومة تجاهها خامة ثرية للنقاش داخل المدرسة. وقد بلغ ببعضهم أن قال إنه بعث لها بطلب صداقة على موقع التواصل فيسبوك؛ والحال أنه ما كان ليقدم على ذلك البتة. هو في الحقيقة لا يفعل ولا يقول لها شيئاً، يكتفي بالجلوس بهدوء بينما هي تفعل وتقول له أشياء. كما أنها تتعمد تأخيره بعد نهاية الحصة لتتجاذب وإياه أطراف الحديث عن مسار حياته، وقد حدث مرة أن أقدمت على ملامسة عقدة ربطة عنقه المدرسية. لا يستطيع إخبار الآخرين عن سلوكها إزاءه مخافة أن يحسبوا ذلك تبجحاً منه. وحتى داخل الفصل المدرسي تمنعه أحاسيس الخجل والانزعاج من التركيز على دروسه، فيجلس على مقعده محملقاً في الكتاب المدرسي إلى أن تستحيل أعمدة الرسوم البيانية في الكتاب صورة عاتمة لديه.

Bitterness-S

أردف كونيل:

- يغتابني الناس دائماً بأنني أكن لها المشاعر أو ما شابه، والحقيقة خلاف ذلك تماماً. أعني... أتعتقدين أنني أنساق خلف سلوكاتها تلك؟

- لا، بحسب ما رأيت.

مسح براحة يده على قميصه المدرسي دون تفكير. إن الجميع مقتنعون بأنه متيم بالآنسة نيري حتى إنه أحياناً يوجس في نفسه ريبة بشأن غرائزه تجاه الأمر، فماذا لو كان عند أحد المستويات، فوق أو أدنى إدراكه، يرغب بها حقاً؟ حتى إنه لا يدرك حقاً كيف يُفترض أن يكون الإحساس بالرغبة هذا؛ ففي كل مرة مارس فيها الجنس في الواقع، وجد الأمر مثيراً للتوتر كما لو أنه شعور بغيض إلى حد كبير، ما قاده إلى التشكيك في أن ثَم خطب ما به، وأنه عاجز عن خلق الحميمية مع المرأة وأنه ضعيف تنموياً إلى حد ما. كان يبقى مستلقياً يفكر مع نفسه: لقد بلغ بي كرهي للأمر مبلغ المرض. أهذا ما هو عليه حقاً؟ هل الغثيان الذي يراوده عندما تتكئ الآنسة نيري على طاولته هو طريقته في بلوغ الإثارة الجنسية؟ وكيف له أن يعلم؟

قالت ماريان:

- بوسعي الذهاب إلى السيد ليونز من أجلك إن أحببت. لن أقول إنك أخبرتني بشيء؛ سأقول إنني عاينت ذلك من تلقاء نفسي.

- رباه! لا. طبعاً لا. لا تخبري أحداً بالأمر، اتفقنا؟

- طيب، لا بأس.

نظر إليها كي يتيقن من جديتها، ومن ثم أومأ برأسه. فيما قالت له:

Bitterness-s

- لا ذنب لك فيما تفعله من تصرفات معك؛ أنت لم تقدم على أية غلطة.

رد بهدوء:

- ولم عسى الآخرون يعتقدون أنني معجب بها إذاً؟

- ربما لأنك تحمر كثيراً عندما تتحدث إليك، ولكن أنت تعلم... أنت تحمر أمام كل شيء. للأمر علاقة ببشرتك.

أفصح ثغره عن ضحكة تخلو من السعادة، وقال:

- شكراً لك!

- أنا أقصد ذلك حقاً.

- نعم، أنا أعلم ذلك.

- في الواقع أنت تحمر الآن.

أغمض كونيل عينيه ولامس بلسانه حنك فمه. كان يسمع ماريان تضحك في تلك الأثناء، ثم قال:

- لمَ أنت فظة غليظة القلب هكذا مع الجميع؟

- أنا لست فظة. ولست آبهة إن كنت تحمر أم لا، ولن أخبر أحداً.

- كونكِ لن تخبري أحداً بالأمر لا يعني أن من حقكِ قول ما تشائين.

- طيب، أنا آسفة.

استدار ونظر عبر النافذة صوب الحديقة التي تشبه حقاً «أرضية رياضية»، فهي تضم ملعب تنس وتمثالاً حجرياً كبيراً على شكل امرأة. أطل بعينيه على «الأرضية» ودنا بوجهه ليتلقف نسمات العشب الباردة. عندما يتحاكى الناس قصة ماريان بشأن غسل قميصها في حوض المرحاض، يتعاملون مع الأمر كما لو كان طريفاً، بيد أن

Bitterness-5

كونيل يعتقد أن السبب الحقيقي وراء اجترار قصتها له علاقة بأمر آخر؛ فماريان لم يسبق لها أن واعدت شاباً في المدرسة، ولم يسبق لأي شخص أن رآها عارية، ولا أحد يعلم إن كانت سوية أم شاذة، كما أنها ما كانت لتفصح لأحد عن الأمر. هو شيء يستاء الناس منه وكونيل يرى أن هذا هو سبب تناقلهم لتلك القصة، كما لو أنهم يُحْدقون بشيء لا يُسمح لهم برؤيته.

قالت ماريان: أنا لا رغبة لي في الشجار معك.

- نحن لا نتشاجر.

- أنا أعلم أنك تكرهني، ربما، غير أنك الشخص الوحيد الذي يكلمني.

- لم أقل قط إني أكرهك.

أثار ذلك انتباهها، ثم تطلعت إلى الأعلى فيما واصل التحديق بعيداً، والاضطراب يطوقه، لكنه ظل يراقبها بطرف عينه. عندما يتحدث إلى ماريان يخالجه شعور بالخصوصية بينهما، إذ بوسعه إخبارها بأي شيء عن نفسه، حتى غرائب الأمور، وهو يعلم أنها لن تذيعها. فوجوده بجانبها أشبه بفتح بوابة الخروج من الحياة العادية وإغلاقها خلفه. لا يخافها، فهي شخص هادئ جداً، غير أنه يخاف المكوث قربها حيث إنه يجد نفسه يتصرف بارتباك، ويتحدث على نحو غير مألوف منه.

قبل أسابيع قليلة، عندما كان ينتظر لورين في الردهة، برزت ماريان نازلة أسفل الدرج في برنس استحمام أبيض مربوط بالطريقة العادية. كان شعرها مبللاً وبدت بشرتها متلألئة كأنها قد وضعت كريم الوجه للتو، وعندما لمحت كونيل ترددت وهي على الدرج ثم قالت:

- آسفة، لم أعلم أنك هنا.

ربما بدا عليها الارتباك، ولكن ليس إلى حد كبير، لتعود بعدها إلى غرفتها فيما ظل ينتظر في الردهة. كان يعلم أنها بصدد ارتداء ثيابها على الأرجح، وأياً كان ما سترتديه عند عودتها، لن يكون سوى ما اختارت لترتديه بعدما رأته في الردهة. ولما كانت لورين على أهبة للرحيل قبل ظهور ماريان من جديد، فلم يتسن له رؤية ما الذي ارتدته، مع أنه لم يأبه بالأمر كثيراً. لم يأت على ذكر الأمر في المدرسة طبعاً، لم يقل إنه رآها في برنس الاستحمام أو أنها بدت مضطربة عند رؤيته، فذاك شأن لا يعني أحداً.

- أنا معجبة بك، قالت ماريان.

لم ينبس بكلمة لبضع ثوانٍ، وازدادت حينها شدة الخصوصية بينهما، ما أشعره بضغط يكاد يكون فيزيائياً على وجهه وعلى جسده. بعدئذ عادت لورين إلى المطبخ تربط وشاحها حول عنقها. طرقت الباب بشكل خفيف، ولو أنها تعلم أنه كان مفتوحاً، ثم قالت:

- أمستعد للذهاب؟

- أجل، رد كونيل.

- شكراً على كل شيء يا لورين. أراك الأسبوع القادم، قالت ماريان.

كان كونيل قد وجد طريقه خارج باب المطبخ عندما نادته والدته:

- بوسعك قول إلى اللقاء، أليس كذلك؟

استدار لينظر فوق منكبيه فألفى نفسه عاجزاً عن النظر في عيني ماريان، فوجّه كلامه للأرضية بدل ذلك، قائلاً: حسناً، إلى اللقاء. بيد أنه لم ينتظر ليسمع الرد.

Bitterness-5

داخل السيارة، ربطت والدته الحزام وهزت رأسها، لتردف: كان بإمكانك معاملتها بلطف. يكفيها ما تلقاه من فظاظة داخل المدرسة.

وضع المفاتيح ليشغل محرك السيارة، ثم نظر في المرآة الخلفية، وقال:

- أنا أعاملها بلطف.

- إنها فتاة حساسة للغاية.

- هلا تحدثنا في موضوع آخر؟

تجهمت لورين بينما حدق كونيل في اتجاه زجاج السيارة الأمامي متظاهراً بعدم رؤيتها.

Bitterness-5

بعد مضي ثلاثة أسابيع
(فبراير 2011)

جلستْ قبالة طاولة الزينة خاصتها وأنشأت تحملق في وجهها على المرآة؛ وجه يعوزه الوضوح حول خديها وفكيها. إنه أشبه بجهاز تكنولوجي بعينين ترمشان وكأنهما مؤشران من نوع ما. أو كأنه يذكرك بانعكاس القمر على شيء متأرجح ومائل. يعبر عن كل شيء دفعة واحدة، ما يشابه عدم التعبير عن أي شيء أيضاً. وقد استنتجت أن التجمل في مناسبة كهذه سيكون أمراً محرجاً. لم تكلف نفسها الإشاحة بوجهها عن المرآة ثم غمست أصبعها في علبة مرطب شفاه ووضعته على شفتيها.

أسفل الدرج، عندما تناولت معطفها من على المشكاة، خرج إليها شقيقها آلان من غرفة الجلوس سائلاً:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- خارج البيت.

- إلى أين تحديداً؟

أدخلت يدها في كم معطفها وعدلت الياقة، بينما كانت العصبية قد بدأت تجد سبيلها إليها فتمنت أن يُترجم صمتها عجرفة لا ارتياباً. ثم أجابت:

Bitterness-s

- سأخرج لأتمشى قليلاً.

توجه آلان للوقوف قبالة الباب ثم عقب:

في الواقع، أعلم أنك لست ذاهبة للقاء أصدقاء، لأن لا أصدقاء لديك أصلاً، أليس كذلك؟

- بلى.

في تلك اللحظة، أظهرت له ابتسامة هادئة على أمل أن تساعد لفتة الخضوع تلك على إشباع رضاه حتى يخلي سبيلها. غير أنه قال لها:

- وما يحملك على فعل هذا؟

- ماذا؟

- أقصد تلك الابتسامة الغريبة.

أخذ آلان يحاكي تعابير وجهها، وأطلق ابتسامة أقرب ما تكون إلى تكشيرة بشعة. مع أنه كان يبتسم، إلّا أن فرط تقليدها جعله يبدو غاضباً.

- وهل تراك سعيدة أنْ لا أصدقاء لك؟

- كلا.

تراجعت ماريان خطوتين إلى الوراء محافظة على ابتسامتها، ثم استدارت وسارت في اتجاه المطبخ حيث ستجد باب الفناء الذي يقود إلى الحديقة، فتبعها آلان وانتزعها من أعلى ذراعها وسحبها من الباب. أحست بضيق عند فكها، وضغط بقبضته على ذراعها داخل كم معطفها، متوعداً:

- لو أنك تفكرين في الذهاب باكية إلى أمك.

- لا، أنا فقط ذاهبة لأتمشى قليلاً الآن. شكراً لك.

أخلى سبيلها فقذفت بنفسها خارجاً عبر باب الفناء، وأوصدته

Bitterness-s

خلفها. في الخارج لفحتها نسمة العليل الباردة فبدأت أسنانها تصطكك. تابعت طريقها نحو ممر السيارات ومن ثم إلى الشارع بينما لا تزال ذراعها تخفق من تأثير قبضة شقيقها. تناولت هاتفها من جيبها وكتبت رسالة نصية. كانت تضغط على الزر الخاطئ مراراً، ثم ما تلبث تحذف ما رقنت وتعيد الكتابة، حتى استقرت أخيراً على رسالة بعثت بها: في طريقي إليك. وقبل أن تعيد الهاتف إلى جيبها، استقبلت رداً يقول نصه: جميل، أراك قريباً.

عند نهاية الموسم الدراسي الأخير، بلغ الفريق المدرسي لكرة القدم التصفيات النهائية لإحدى المنافسات، ما حتم على جميع التلاميذ في المدرسة إلغاء الحصص الثلاث الأخيرة من العام من أجل الذهاب لتشجيع الفريق. لم يسبق لماريان أن شاهدتهم يلعبون فلم تكن الرياضة تستهويها كثيراً، كما أنها كانت تعاني من القلق المتعلق بالتربية الرياضية. أثناء رحلتهم على متن الحافلة لمشاهدة اللقاء، اكتفت بالإنصات لسماعات الأذن خاصتها، ولم يكلمها أحد. كان المشهد وراء نافذة الحافلة مزيجاً من المناظر مختلفة ألوانها: قطعان الماشية السوداء، والمروج الخضراء، والبيوت البيضاء المتناثرة بالقرميد البني الذي يغطي أسقفها. أما أعضاء الفريق فاصطفوا جميعهم في مقدمة الحافلة، يشربون الماء ويربتون على أكتاف بعضهم البعض بغية رفع معنوياتهم. وأما عن ماريان، فقد راودها إحساس بأن حياتها الحقيقية كانت تُنسج أحداثها في مكان ما بعيداً عنها، ومن دونها، ولم تكن تدري إن كانت ستتمكن من العثور عليها والاندماج معها. لطالما راودها هذا الإحساس أيام المدرسة، بيد أنها لم تكن لديها صورة محددة عن هذه الحياة

Bitterness-5

الحقيقية؛ كيف تبدو وما طبيعتها. كل ما كانت تعلمه هو أنها لن تحتاج إلى تخيلها عندما تبدؤها.

كان الجو صافياً أثناء المقابلة وقد كان السبب من وراء استدعائهم هو الوقوف في الخطوط الجانبية للملعب والهتاف، فوقفت ماريان قرب أعمدة المرمى بمعية كارين وفتيات أخريات. بدا أن الجميع يحفظ هتافات المدرسة عن ظهر قلب دوناً عن ماريان التي لم يسبق لها أن سمعت بتلك الكلمات. انتهى الشوط الأول على واقع التعادل فبدأت الآنسة كيني توزع علب العصير وألواح الطاقة. تبادل الفريقان المرميين عند بداية الشوط الثاني بحيث أصبح هجوم فريق المدرسة يلعب على مقربة من موضع وقوف ماريان. كان كونيل والدرون يلعب في مركز قلب الهجوم، فاستطاعت رؤيته يقف هناك في بدلته الرياضية؛ بالسروال الأبيض اللامع وقميص فريق المدرسة الذي يحمل رقم 9 على ظهره. وكان يتخذ وضعيات مناسبة جداً في الملعب، أكثر من باقي اللاعبين. بدت هيأته على شكل خط طويل وأنيق مرسوم بالفرشاة. وعندما كانت تصل الكرة إلى طرف نصف الملعب من جهتهم، كان يجري باتجاهها ومن ثم يلوح بيديه في الهواء ويعود للوقوف في مكانه. وجدت متعة في مشاهدته، ولم تكن تعتقد أنه كان يعلم أو يهتم بموضع وقوفها. كانت تفكر أن تخبره يوماً ما بعد نهاية الدراسة أنها كانت تشاهده أثناء المباراة، فيضحك منها وينعتها بالجنون.

في الدقيقة السبعين قاد إيدن كينيدي هجوماً على الرواق الأيسر من الملعب ومرر كرة عرضية لكونيل الذي سددها من زاوية منطقة الجزاء لتعلو رؤوس المدافعين وتعانق الشباك. وبعد الهدف أطلق الجميع العنان لصرخات فرحة هستيرية بمن فيهم ماريان، وطوقت

Bitterness-s

كارين خصر ماريان وحضنتها بشدة. كانوا يهتفون سوية فقد شهدوا مشهداً ساحراً كسر بنية العلاقات الاجتماعية المألوفة بينهم. كانت الآنسة كيني تصفر وتطرق الأرض بقدميها، أما على أرض الملعب فقد كان كونيل وإيدن يتعانقان مثل شقيقين من بعد طول فراق. لقد كان كونيل جذاباً للغاية حتى إن ماريان أحست برغبة جامحة في مشاهدته وهو يمارس الجنس؛ ليس بالضرورة معها، لا يهم مع من. كانت مؤمنة أن مشاهدته فقط سيكون أمراً جميلاً. كانت تعلم جيداً أن هذا النوع من الأفكار هو ما يجعلها مختلقة عن الآخرين، أو حتى غريبة الأطوار.

كان زملاء ماريان في الصف يحبون المدرسة كثيراً ويرون فيها أمراً عاديا؛ ارتداء البدلة المدرسية الموحدة كل يوم، والتقيد بقوانين اعتباطية، والخضوع للمراقبة والتدقيق ضد سوء السلوك، كلها أمور ألفوها عادية. لم ينظروا للمدرسة يوماً على أنها بيئة قمعية. دخلت ماريان العام الماضي في جدال مع أستاذ التاريخ، السيد كيريجان، بعد أن ضبطها تحملق خارج نافذة الفصل خلال الحصة الدراسية، ولم تجد من ينتصر لها. بالنسبة لها كان الأمر أشبه بالجنون أن ترتدي بدلة كل صباح ومن ثم تذهب كي تنضم إلى قطيعها داخل صرح كبير طوال اليوم، والأدهى من ذلك أنه لم يكن مسموحاً لها بأن تزيح بنظرها حيث أرادت، فحتى حركة عينها خضعت لأحكام القوانين المدرسية. لن تتعلمي حرفاً إن استمريت في النظر عبر النافذة مستغرقة في أحلام اليقظة، قال السيد كيريجان، ليتلقى بعده رداً من ماريان التي كانت قد فقدت أعصابها لحظتئذ قائلة: لا يأخذنك الوهم، لا يوجد ما أتعلمه منك أصلاً.

قال كونيل مؤخراً إنه يتذكر تلك الواقعة وإنه أحس في تلك

Bitterness-s

اللحظة بأن ماريان بالغت في فظاظتها تجاه السيد كيريجان الذي يعد بحق أحد أكثر الأساتذة رشداً. بيد أنني أتفهمك، أضاف كونيل. أتفهم بأنك تشعرين كما لو كنت أسيرة في المدرسة، فما كان عليه أن يمنعك من النظر عبر النافذة، أشاطرك الرأي. فلم تقدمي على أية غلطة.

بدأ كونيل يرتاد منزل ماريان مراراً بعيد اعترافها بإعجابها له خلال محادثتهما في المطبخ. كان يأتي باكراً ليقل والدته من العمل ومن ثم يتسكع في غرفة الجلوس دون التلفظ بكلمة، أو يقف بمحاذاة المدفأة واضعاً يديه في جيبيه. كما أن ماريان لم تسأله عن سبب قدومه قط. كانا يتجاذبان أطراف الحديث قليلاً، أو تتحدث هي ويهز رأسه. أخبرها بأن عليها قراءة **البيان الشيوعي**، إذ اعتقد أنها ستحب ذلك، حتى إنه اقترح عليها أن يدون لها العنوان حتى لا تنساه، فردت بأنها تعلم بأمر **البيان الشيوعي** هذا، فهز كتفيه قائلاً: طيب، ثم أردف بعد برهة وهو يبتسم: تحاولين التظاهر بالتفوق في حين أنك لم تقرئي الكتاب حتى، فضحكت مما قاله لحظتها، ورد هو بضحكة أيضاً، فقط لأنها فعلت ذلك. لم يقدرا على النظر أحدهما في وجه الآخر وهما يضحكان، كان عليهما التحديق في أركان الغرفة، أو في أقدامهما.

بدا أن كونيل يتفهم شعور ماريان إزاء المدرسة؛ وقد قال إنه استحب سماع أفكارها، فقالت له إنه يسمع ما يكفي منها داخل الفصل، فردّ كونيل بصراحة: تتصرفين بطريقة مختلفة في الفصل، أنت في الواقع لست كذلك. بدا أنه يعتقد أن لدى ماريان عدداً من الشخصيات المختلفة، تنزلق من بينها دون أدنى مجهود. كان الأمر مفاجئاً لها، إذ لطالما أحست أنها مقيّدة داخل شخصية واحدة لم

Bitterness-s

تتغير قط بغض النظر عما تفعله أو تقوله. سبق لها أن حاولت اكتساب شخصية مغايرة، وكان الأمر أشبه بتجربة، بيد أنها باءت بالفشل. وإذا كانت مختلفة في شخصيتها مع كونيل، فلم يكن هذا الاختلاف نابعاً من داخلها، من شخصها، بل كان يحدث بينهما على شكل دينامية. كانت تجعله يضحك حيناً، وتوثر الصمت والغموض حيناً، فما إن يغادر حتى تتناوب عليها أحاسيس مختلفة ومتناقضة؛ فتشعر بالانتشاء والعصبية، والانطلاق والاستنزاف الشديد في آنٍ واحد.

تبعها الأسبوع الماضي إلى المكتبة بينما كانت تبحث عن نسخة من كتاب النار في المرة القادمة لتعيره إياه. وقف هناك يطالع رفوف الكتب مرتدياً قميصاً لم يزرّر زرّه العلوي وقد تدلت منه ربطة العنق المدرسية. وجدت الكتاب وسلمته إياه فجلس على الكرسي المحاذي للنافذة يطالع الغلاف الخلفي. جلست إلى جانبه وسألته ما إذا كان صديقاه إيريك وروب يعلمان بأنه قارئ نهم خارج أوقات المدرسة.

- لا أحسبهما يهتمان بمثل هذه الامور، رد كونيل.

- تعني أنهما غير مهتمين بالعالم من حولهما.

تبدلت تعابير وجهه كما يحدث معه دائماً عندما تنتقد أصدقاءه، مبرزاً تكشيرة معبرة. قال: لا، ليس كما تقولين، فلهما اهتماماتهما الخاصة، لا أعتقد أنهما يقرأن كتباً تتحدث عن العنصرية وما شابه ذلك.

- صحيح، إنهما مشغولان بالتبجح بالفتيات اللاتي قاما بمضاجعتهن، ردت ماريان.

سكت لبرهة كما لو أن أذنيه قد وُخزتا عند ذلك التعليق، بيد أنه

لم يعرف كيف يجيب بالضبط، ثم قال: نعم يفعلان القليل من هذا؛ فأنا لا أحاول الدفاع عن ذلك، أنا أعلم أنهما مزعجان أحياناً.

- ألا يزعجك الأمر؟

لاذ بالصمت مجدداً ثم قال: في أغلب الأحيان لا يزعجني ذلك، ولكنهما أحياناً يقومان بأمور يتجاوزان بها الحدود وهو ما يزعجني بكل تأكيد، لكنهما صديقاي في نهاية المطاف. الأمر مختلف بالنسبة إليك.

حملقت فيه بينما كان يتفحص ظهر الكتاب، فسألته:

- ولماذا الأمر مختلف بالنسبة إلي؟

هز كتفيه وهو يطوي غطاء الكتاب إلى الأمام وإلى الخلف. أحست بالإحباط واحمر وجهها ويديها بينما لم تبرح عيناه غلاف الكتاب رغم أنه كان قد قرأ كل النص بكل تأكيد. كانت منسجمة مع وجود جسده عن كثب، كما لو أن حركة أنفاسه العادية كانت قوية كفاية لتصيبها بالسقم.

- قلت إنك معجبة بي، قلتيها عندما كنا نتحدث في المطبخ بشأن أمور المدرسة.

- نعم.

- هل كنت تقصدين أنك معجبة بي من باب الصداقة أم ماذا؟

أمعنت بنظرها أدنى حجرها إلى التنورة القطنية القصيرة التي كانت ترتديها حيث استطاعت، بفضل ضوء النافذة، رؤية بعض الوبر يرقطها.

- لا، ليس من باب الصداقة.

- أوه، طيب. كنت فقط أتساءل.

أخذ يهز رأسه ثم أضاف:

Bitterness-s

- أنا محتار بعض الشيء بخصوص مشاعري. كما أظن أنه سيكون من غير الملائم لو قامت علاقة بيننا في المدرسة.

- ليس من الضروري أن يعلم أحد بالأمر.

رفع رأسه وأخذ يتفرس فيها بكل تركيز. علمت أنه كان سيقبلها، وقد فعل فعلاً. أحست بنعومة شفتيه وبلسانه يتحرك داخل فمها ببطء، ثم انتهى الأمر وتراجع مبتعداً عنها، وبدا حينها أنه تذكر أمر الكتاب الذي كان يحمله، فعاد لمطالعته من جديد.

قالت ماريان: كان هذا جميلاً.

أومأ برأسه ثم ابتلع ريقه وعاد لتفحص الكتاب مرة أخرى. أخذه إحساس بالخجل كما لو أن ذكر أمر القبلة كان جلفة من ماريان التي أنشأت تضحك، ما جعله يبدو مرتبكاً، فاستفسرها:

- حسناً، ما الذي يضحكك؟

- لا شيء.

- تتصرفين كما لو لم يسبق لك أن قبّلت أحدهم.

- في الواقع لم يسبق لي فعل ذلك.

وضع يده على وجهه فتابعت ضحكها عاجزة عن منع نفسها من ذلك، حتى نقلت إليه العدوى. احمرت أذناه وأخذ يهز رأسه، ثم استند واقفاً بعدها ببرهة والكتاب لم يغادر يده قائلاً:

- لا تخبري أحداً في المدرسة بشأن ما حدث هنا، حسناً؟

- أتخالني أكلم إنسياً في المدرسة؟

خرج من الغرفة بينما نهضت عن الكرسي بوهنٍ وانزلقت على الأرض وساقاها ممدودتان أمامها مثل دمية خرقاء. جلست هناك وشعرت أن زيارات كونيل لبيتها لم تكن سوى اختباراً لها، وها قد

Bitterness-s

اجتازت الاختبار بنجاح. أما تلك القبلة، فقد كانت إشارة تقول: لقد اجتزت الاختبار بنجاح. فكرت كيف ضحك عندما أخبرته بأنها لم تقبل أحدهم من قبل. لو أن شخصاً آخر ضحك بتلك الطريقة لحسبت ذلك وقاحة، بيد أن الأمر مختلف مع كونيل؛ فقد كانا يضحكان سوية عن وضع مشترك وجدا نفسيهما فيه، مع أنها لم تجد كيف تصف ذلك المشهد أو تعرف بالضبط ما المضحك فيه.

في الصباح الموالي قبيل حصة مادة اللغة الألمانية، جلست ماريان تشاهد زملاءها في الصف يتدافعون قرب خزانات الحرارة يصرخون ويضحكون، وعندما بدأت الحصة جلسوا ينصتون بهدوء لشريط صوتي يصدح منه صوت امرأة ألمانية تتحدث عن حفلة فوّتتها. Es tut mir sehr leid. بعد الزوال، تلبدت السماء بالغيوم وأثلجت رقائق سميكة ورمادية اللون كانت ترفرف قبالة النافذة ومن ثم تعانق حصى الأرض فتذيبها بين أحضانها. كل شيء كان ينطوي على حواسَّ من نوع ما: رائحة غرف الدرس القديمة، والأجراس الصغيرة التي يرن صوتها بين الحصص، والأشجار القاتمة والشاحبة التي تحف قاعة كرة السلة كالأشباح، ناهيك عن العمل الروتيني المتمثل في تدوين الملاحظات بأقلام ملونة على أوراق بيضاء مسطرة بخطوط زرقاء. كعادته، لم يتحدث كونيل إلى ماريان داخل المدرسة ولم ينظر إليها حتى. كانت تراقبه في الفصل وهو يصرف الأفعال ويمضغ طرف قلمه بأسنانه، أو يبتسم بشأن أمر ما مع أصدقائه في الجهة المقابلة من المقصف أثناء فترة تناول الغداء. كانت تزر وزر سرهما داخلها مسرورة فرحة، وزر يثقل على عظم حوضها كلما تحركت.

لم تقابله مساء ذلك اليوم ولا حتى اليوم الموالي، إلى أن أتى

بعد ظهر يوم الخميس ليقل والدته من العمل. كان على ماريان أن تفتح له الباب إذ لم يكن في البيت غيرها. برز كونيل في حلة غير التي ألفتها منه في المدرسة، فقد كان يرتدي سروال جينز أسود اللون وقميصاً من النوع الثقيل. راودتها فكرة أن تهرع بعيداً وتخبئ وجهها عندما رأته. لورين في المطبخ، قالتها ماريان وصعدت إلى غرفتها ثم أغلقت الباب. استلقت على وجهها فوق السرير تتنفس على الوسادة. ومن يكون كونيل هذا؟ أحست أنها تعرفه معرفة وثيقة، ولكن ما السبب وراء هذا الإحساس؟ فقط لأنه قبلها مرة دون أي تفسير لتلك القبلة، ثم حذرها من ذكر الأمر لأحد؟ بعد دقيقة أو اثنتين، سمعت باب غرفتها يطرق فاستقامت وقالت: ادخل. فتح الباب ونظر إليها نظرة مستفسرة، كأنه يتحقق إن كان مرحَّباً به أم لا، ثم دخل وأغلق الباب.

- أتراك منزعجة مني؟ سأل كونيل.

- كلا. ولم أكون كذلك؟

هز كتيفيه وسار مكتوف الأيدي نحو السرير ثم جلس. كانت تجلس القرفصاء وتمسك بكاحليها، وظلا صامتين لبرهة ثم اقترب منها وبدأ يتحسس ساقها فاستلقت بظهرها على الوسادة، ثم سألته بكل جرأة: هل ستقبلني هذه المرة أيضاً؟ فرد عليها: وماذا تعتقدين؟ بدا لها ذلك أكثر ما يمكن قوله إبهاماً ورقياً. أنشأ يقبلها فيما أخبرته بأن الأمر رائع، دون أن ينبس ببنت شفة. شعرت أنها على استعداد لفعل أي شيء لنيل إعجابه، ولجعله يجهر بإعجابه لها. أدخل يده تحت سترتها المدرسية فهمست في أذنيه: أيمكننا خلع ملابسنا؟ ثم دس يده تحت حمالة صدرها وقال: بالتأكيد لا يمكننا ذلك، هذا غباء فلورين لا تزال بالأسفل. لقد ذكر والدته باسمها هكذا بكل

Bitterness-s

بساطة. فقالت ماريان: إنها لا تأتي إلى هنا أبداً، فهز رأسه وقال: لا، يجب أن نوقف هذا، ثم استند واقفاً ونظر إليها.

- لقد استسلمت للإغراء للحظة، قالت ماريان.

- لا، ليس كذلك.

- لقد أغريتك.

طفق يهز رأسه ويبتسم ثم قال: إنك غريبة الأطوار بحق.

كانت تقف في ممر السيارات حيث يركن سيارته. أرسل لها عنوان المنزل عبر رسالة نصية؛ منزل رقمه 33 ذو شرفة وجدران محصاة وساحة خراسانية صغيرة وتغطي نوافذه ستائر شبكية. بدا لها النور الآتي من النافذة العلوية. لم يكن من السهل تصديق أنه يعيش هنا؛ في منزل لم تطأه قدماها ولم تراه عيناها من قبل. كانت ترتدي سترة صوفية سوداء وتنورة رمادية وملابس داخلية سوداء رخيصة، وقد حرصت على حلق ساقيها بدقة، أما إبطاها فكانا ناعمين من أثر مزيل العرق، وكان أنفها يسيل قليلاً. رنت الجرس فسمعت طرق نعليه نازلاً من أعلى الدرج. فتح الباب ونظر خلف منكبيها ليتأكد أن أحداً لم يلمحها آتية.

Bitterness-S

بعد مضي شهر
(مارس 2011)

كانا يناقشان ترشحهما لولوج الجامعة. ماريان مستلقية على السرير يغطي شرشف بعض جسدها على نحو مهمل، بينما يجلس كونيل واضعاً حاسوبها على حضنه. كانت قد قدمت ترشيحها للالتحاق بكلية الثالوث في دبلن، قسم التاريخ والسياسة، وكان هو قد ترشح لقسم القانون في غالواي، لكنه قد يغير رأيه، فالقانون لا يستهويه كما قالت ماريان، ولا يستطيع حتى تخيل نفسه محامياً مرتدياً ربطة عنق أو ما شابه ويساعد في إدانة أناس بالجرائم. اختار قسم القانون مؤقتاً فقط لأنه لم يستقر على أمر بعد.

قالت ماريان: يجب أن تدرس الإنجليزية.

- هل تعتقدين ذلك حقاً أم تراك تمزحين؟

- أعتقد أنه من الأفضل أن تدرس الإنجليزية فهي المادة الوحيدة التي تستمتع بدراستها في المدرسة، كما أنك تقضي معظم وقت فراغك في المطالعة.

حدق في الحاسوب ثم في الشرشف الأصفر الرقيق الذي يغطي جسدها بحيث ألقى بظله على شكل مثلث ليلكي على نهديها، ثم قال:

- ليس كل وقت فراغي.

أفصح ثغرها عن ابتسامة وأردفت: ضف إلى ذلك أن الدفعة ستكون مليئة بالفتيات، ما سيجعل منك فحلاً بينهن.

- نعم. لكنني لا أعلم آفاق هذه الشعبة.

- أوه! ومن يهتم؟ فاقتصاد البلاد متعثر على كل حال.

اسودت شاشة الحاسوب فضغط زر لوحة التعقب لتنير مجدداً، وتتراءى له صفحة تسجيل الترشيحات لولوج كلية الثالوث تبادله النظرات.

بعدما مارسا الجنس لأول مرة، قضت ماريان الليلة في بيته. لم يسبق له أن عاشر بتولاً من قبل. على كل حال، لم يمارس الجنس إلا في مناسبات معدودة ومع فتيات كن يخبرن بذلك القاصي والداني بعدها. فقد كان يضطر لسماع تفاصيل ما حدث بينه وبين كل فتاة تروى على آذانه في غرفة الملابس فيما بعد: أخطاؤه، والأسوأ، محاولاته المرهقة لخلق الإيلام مع الفتاة؛ وهي محاولات كانت تحتاج منه تمثيلاً إيمائياً جباراً. أما ماريان فكان الأمر مختلفاً معها، لأن كل شيء كان يحدث بينهما؛ هما فقط، حتى الأشياء المحرجة أو المعقدة. كان يستطيع فعل وقول كل ما يريد دون علم من أحد. على إثر ذلك تسلل إليه إحساس مشوش ومربك بالتفكير في الأمر.

في صباح اليوم التالي، ودعها في مدخل البيت بقبلة على شفتيها فأحس بمذاق يشبه السائل القلوي أو مثل معجون الأسنان، ثم شكرته وغادرت حتى قبل أن يفهم على ماذا شكرته. أخذ شراشف السرير ووضعها في آلة الغسيل ثم أخرج بياضات جديدة من دولاب التنشيف. كان يراجع في ذهنه شخصية ماريان؛ فتاة كتومة ومستقلة في فكرها، باستطاعتها القدوم إلى بيته فقط لتمارس الجنس

Bitterness-s

معه وتمضي في سبيلها دون الحاجة لإخبار ملكوت الأرض عن ذلك. كانت تترك الأشياء تحدث بكل بساطة وكأنها لم تأبه بالكون من حولها.

عادت لورين إلى المنزل ذلك المساء فتوجهت إلى كونيل بالسؤال حتى قبل أن تضع المفاتيح فوق المنضدة: أهذه آلة الغسيل؟ فأومأ برأسه، فيما جثمت على الأرض ونظرت عبر زجاج نافذة الآلة الدائري إلى داخل الأسطوانة حيث كانت الشراشف تدور في الرغوة.

- أنا لن أسألك، قالت لورين.

- ماذا؟

طفقت تملأ الغلاية الكهربائية بينما أسند وركه على المنضدة، ثم قالت له:

- لن أسألك عن سبب وجود شراشف السرير الخاصة بك داخل آلة الغسيل.

جال بعينيه في الأرجاء فقط ليكون قد فعل شيئاً ما بوجهه ثم قال:

- أنت دائماً تفكرين بأسوأ الأمور.

أطلقت قهقهة ثم ثبّتت الغلاية على الحامل وضغطت زر التشغيل وقالت: اعذرني. قد أكون أكثر الأمهات تساهلاً في المدرسة. ما دمت تأخذ بوسائل الوقاية، فيمكنك فعل ما تريد.

لم ينبس بكلمة. أخذت كأساً نظيفاً حيث كان الماء في الغلاية قد بدأ بالغليان وسألت:

- إذاً؟ هل أعتبر صمتك مرادفاً لكلمة نعم؟

Bitterness-s

- نعم على ماذا؟ رباه! بالتأكيد لم أمارس الجنس دون وقاية مع إحداهن في غيابك.

- إذا لا بأس بذلك. ما اسمها؟

غادر بعدها المطبخ لكنه كان لا يزال يسمع ضحكها وهو في طريقه إلى الأعلى، فلطالما شكلت حياته مصدر ترفيه لها.

نهار الإثنين في المدرسة، تحاشى أن يلتقي بماريان أو أن يكلمها. كان يحمل سرهما وكأنه شيء كبير ومحموم، كأنه صينية ممتلئة بالمشروبات الساخنة التي يجب أن يحملها أينما ذهب دون إراقة قطرة واحدة. وبالمقابل، تابعت هي حياتها بصورتها المألوفة؛ كانت تقرأ الكتب في غرفة الملابس كما عهد منها وتدخل في جدالات لا طائل منها. خلال وقت الغداء نهار الثلاثاء، بدأ روب يطرح أسئلة بخصوص عمل والدة كونيل في بيت ماريان بينما حاول هذا الأخير أن يتناول طعامه دون أن تظهر أي تعابير على وجهه.

- هل سبق لك أن ذهبت إلى هناك؟ أقصد إلى القصر، قال روب.

تناول كونيل كيس الشيبس خاصته ونظر إليه. نعم لقد سبق لي أن كنت هناك في مناسبات قليلة، قال كونيل.

- وكيف يبدو من الداخل؟

هز كتفيه ثم تابع: لا أعلم. يبدو كبيراً بطبيعة الحال.

- وكيف تتصرف في بيئتها؟

- لا أعلم.

- أظن أنها تحسبك خادمها، أليس كذلك؟

مسح كونيل فمه مستخدماً ظهر كفه الذي أحس فيه بمذاق

Bitterness-s

الدهن. كان مذاق الشيبس مالحاً جداً كما أنه أحس بصداع في رأسه.

قال كونيل: لا أعتقد ذلك.

- لكن والدتك تعمل خادمة لديها، أليس كذلك؟

- في الواقع إنها تعمل منظفة، وتذهب إلى هناك مرتين في الأسبوع فقط فلا أعتقد أنهما تتفاعلان كثيراً.

- هل تملك ماريان ناقوساً تدقه كلما احتاجت إليها؟

آثر كونيل الصمت، إذ لم يكن يعرف وضعه مع ماريان في تلك اللحظة. بعد حديثه مع روب، قال في نفسه إن الأمر قد انتهى، فقد جامعها مرة واحدة فقط لأنه أراد أن يروي رغبة فضولية في تجربة الجنس معها، ولن يراها بعد ذلك البتة. لكن حتى وهو يخاطب نفسه كان يسمع جزءاً آخر من دماغه يخبره بصوت مختلف: بل ستراها ثانية. كان ذلك جزءاً من عقله الواعي الذي لم يعهد به من قبل؛ هذا الجنوح غير القابل للتفسير للانحراف والرغبات السرية. لقد ألفى نفسه يتخيلها بينما هما في الفصل تلك الظهيرة، عند اطلاعهم على نتائج مادة الرياضيات، أو عندما كانوا يلعبون كرة البيسبول. كان يتخيل فمها الصغير المبلل ثم فجأة يستنفذ أنفاسه ويصارع ليملأ رئتيه بعدها.

ذهب بعد زوال ذلك اليوم إلى منزلها بعد وقت الدراسة، وحرص على رفع صوت مذياع السيارة إلى درجة عالية بحيث لا يفكر فيما يفعله. وعندما صعدا السلم إلى الطابق العلوي، حافظ على صمته وترك لها مهمة الكلام؛ هذا رائع جداً، إنه إحساس رائع. هذا كل ما جاد به لسانها. كان جسدها ناعماً أبيض كالثلج.

Bitterness-s

وكانا، من الناحية الفيزيولوجية، متوافقين تماماً، ما جعله يفهم لماذا يرتكب الناس الحماقات بسبب الجنس. في الواقع، لقد تمكن أخيراً من فهم كثير من الأشياء في عالم الراشدين والتي لطالما عهدها في حكم الغامض. لكن لماذا ماريان بالذات؟ حتى إنها لم تكن ذات حسن وجمال أخاذ. فقد كان يعتبرها البعض أقبح فتاة في المدرسة، فأي شخص عاقل هذا الذي قد يرغب في فعل ما يفعله هو معها؟ لكن ها هو ذا، أياً كان نوع الرجال الذي ينتمي إليه، يفعله معها. سألته ما إذا كان مستمتعاً لكنه اصطنع عدم سماعها. وبعد بضع لحظات همست في صوت خفيض للغاية: هل أفعل شيئاً على النحو الخطأ؟ فأغمض عينيه وأجاب:

- كلا، لقد أعجبني ذلك.

أصبح تنفسها متقطعاً في تلك اللحظة. سحبها من خصرها وضمها إلى جسده ومن ثم لفظها بكل رفق، واتضح له فجأة أن قراره الذهاب إلى بيت ماريان بعد زوال ذلك اليوم كان صائباً وذكياً، ولربما الخطوة الأكثر ذكاء في حياته كلها.

بعدما انتهيا سألها ماذا يتعين عليه أن يفعل بالواقي الذكري فقالت له بأن يتركه على الأرض دون أن تكلف نفسها رفع رأسها من على الوسادة. كان وجهها زهري اللون ورطباً. فعل ما أومر ثم سرح ظهره فوق السرير وراح يتفرس في تجهيزات الإضاءة أعلى السقف. أنا أستلذك كثيراً، قالت ماريان فخالج كونيل إحساس بحزن لذيذ الطعم فاغرورقت عيناه وكان قاب قوسين أو أدنى من فسح المجال أمام دموعه. التهمته لحظات من الألم الوجداني، لحظات فارغة من المعنى أو كأنها لحظات غامضة. لقد عاشت ماريان حياة مفعمة بالحرية، كان يرى ذلك بأم عينيه. أما هو فألفى نفسه محاطاً بعدد

من الاعتبارات: كان يهتم برأي الناس فيه، وكان يهتم حتى برأيها فيه.

لقد حاول غير ما مرة تدوين أفكاره بشأن ماريان في محاولة منه ليتبين مكنونات تلك الأفكار. كانت تثير جوارحه رغبة في رصف كلمات تصف طريقتها في الكلام وشكلها؛ شعرها ولباسها، ونسخة كتاب **جانب منزل سوان** الذي كانت تطالعه في أوقات الغداء داخل مقصف المدرسة؛ نسخة مع لوحة فرنسية داكنة على الغلاف وعمود فقري بلون النعناع، وأصابعها الطويلة وهي تقلب صفحات الكتاب. لقد كانت حياتها مختلفة عن عموم الناس. في بعض الأحيان كانت تتصرف على نحو علمي وراقٍ حتى إنه يشعر كأنه امرؤ جاهل، غير أنها تستطيع التصرف على نحو ساذج في أحيان أخرى. كان يريد تبين كيف تفكر وكيف يعمل ذهنها. فإن هو قرر في قرار نفسه أن يضمر عنها أمراً في خضم حديثهما، لا تلبث ثانية أو اثنتين حتى تبادره بالسؤال «ماذا؟». وكان يرى أن «ماذا؟» تلك تضمر الكثير بين طياتها: لم تكن توحي بإصغائها التحليلي الحاد للحظات صمته، والتي كانت تسمح لها بالسؤال فحسب، بل بالرغبة في الوصول إلى تواصل شامل بينهما؛ لقد كانت توحي أيضاً بأن عدم قول بعض الأشياء يعد ضرباً من مقاطعة التواصل الذي لم يكن مرحباً به. دَون كل تلك الأشياء. كان يكتب جملاً طويلة بلغة الفصل، حيث يكتب الكثير من العبارات غير الكاملة متوسلاً في ربطها بالفاصلة المنقوطة، كما لو أنه أراد أن يصنع نسخة ورقية دقيقة من ماريان ليحتفظ بها كلياً حتى يرجع عليها في المستقبل. فيقلب صفحة الدفتر دون النظر إلى ما قد خطت أنامله للتو.

- فيم تفكر الآن؟ سألت ماريان وهي تثني شعرها وراء أذنيها.

Bitterness-S

- أفكر في الجامعة.
- الأفضل أن تتسجل في قسم الإنجليزية بكلية الثالوث.

نقل عينه يتفرس في صفحة الموقع الرسمي مجدداً. في الآونة الأخيرة كان يلتهمه الإحساس بوجود ازدواجية في شخصه؛ وسيتعين عليه قريباً أن يختار إحدى الشخصيتين ويترك الأخرى وراء ظهره. فله حياة في كاريكلي ولديه أصدقاء أيضاً. فإن هو ولج الجامعة الوطنية الأيرلندية في غالواي، فسيتمكن من المكوث مع نفس الرفقة وسيتمكن من عيش الحياة نفسها التي خطط لها؛ سيتخرج من الجامعة حاملاً شهادة مرموقة ويحصل على حبيبة لطيفة. سيغتابه الناس بأنه امرؤ ناجح. وأما إن هو التحق بكلية الثالوث، حاذياً حذو ماريان، فإن حياته ستكون مختلفة؛ سيكون بوسعه ارتياد حفلات العشاء وينخرط في نقاشات حول خطة إنقاذ اليونان من الأزمة الاقتصادية، وسيضاجع فتيات غريبات المظهر واللواتي سيكتشف فيما بعد أنهن مزدوجات الميول الجنسي. سيخبرهن أنه قد قرأ كتاب **الدفتر الذهبي** وهو ما فعله حقاً. لن يرجع بعدها إلى كاريكلي؛ سيرحل إلى مكان ما مثل لندن أو برشلونة. ليس من الضروري أن ينعته الناس بالشخص الناجح؛ فقد يعتقد البعض أنه فاشل وقد ينسى البعض الآخر أمره بالمرة، لكن كيف سيكون موقف لورين؟ فكل مسعاها في الحياة أن تراه سعيداً، دون الاهتمام بآراء الناس. وماذا عن كونيل القديم؟ كونيل الذي يعرفه كل أصدقاؤه؛ سيكون قد مات بطريقة أو بأخرى، أو، الأسوأ من ذلك، سيكون قد وُئد طالقاً صرخاته تحت الثرى.

قال كونيل: عندها سيكون كلانا في دبلن وأراهنك أنك ستتظاهرين بأنك لا تعرفينني إن ألقت بنا الصدفة في طريق بعضنا.

Bitterness-s

ظلت ماريان صامتة في البداية، وكلما طالت لحظات صمتها أحس بالتوتر، فلربما تفعل ذلك حقاً وتتظاهر بعدم معرفته من قبل، ولكم تقض مضجعه فكرة أن يكون غير ذي قيمة في عينيها، ليس فقط من جانب ماريان شخصياً بل حتى بشأن مستقبله وبشأن ما سيكون عليه.

فعقّبت قائلة: ما كنت لأدّعي عدم معرفتك يا كونيل.

ارتفع جدار الصمت وعلا شامخاً بعدها. تسمر كونيل في مكانه لبضع ثوانٍ. بالتأكيد، ها هو الآن يتظاهر بعدم معرفتها في المدرسة الثانوية، لكنه لم يقصد أن يأتي على ذكر ذلك، فما فعل غير الصواب على كل حال. فلو ذاع سر علاقته بماريان، التي كان يتجاهلها يومياً في المدرسة، لانتهت حياته. كانت ستلاحقه أعين التلاميذ في مدخل المدرسة كما لو كان سفاحاً متسلسلاً أو أسوأ من ذلك. فلم يظن أصدقاؤه يوماً بأنه امرؤ منحرف؛ شخص قد يقول لماريان في وضح النهار وفي تمام وعيه: هل يمكنك أن تأتي إلى منزلي اليوم؟ إنه يتصرف باعتيادية أمام أصدقائه. أما هو وماريان فلهما حياتهما الخاصة التي تُنسَج أحداثها داخل غرفته حيث لا يسمع لهم أحد ركزاً، فلا حاجة إذا إلى الخلط بين عالمين مختلفين، بيد أنه يمكنه قول إنه قد تعثر خلال النقاش وترك افتتاحية لطرح الموضوع رغم أنه لم يكن يريد ذلك، وها هو مضطر لقول شيء.

- أحقاً لن تفعلي ذلك؟

- كلا.

- طيب، سأترشح لقسم الإنجليزية في كلية الثالوث إذاً.

- حقاً؟

- نعم. فأنا لا أهتم بآفاق سوق الشغل على كل حال.

Bitterness-s

رسمت ابتسامة على وجهها تغنجاً بفوزها في تلك المناظرة. كان يحب أن يمتعها بهذا الإحساس. لقد بدا له للحظة أن بإمكانه الاحتفاظ بكلا عالميه، كلتا النسختين من حياته، ويقضي حياته يتقلب بينهما. يمكنه الاحتفاظ باحترام شخص كماريان ويحتفظ في ذات الآن بشهرته وشعبيته في المدرسة، يمكنه تكوين آراء وتعاطفات سرية دون أن يثير أي صراعات ودون أن يضطر يوماً لاختيار أحد الجانبين. فقط ببعض الحيلة يمكنه أن يحيا في عالمين مختلفين دون اضطراره لمواجهة السؤال المطلق: ماذا سيفعل بحياته، وأي نوع من الناس هو؟ كانت هذه الأفكار مواساة لحالته بحيث تحاشى النظر في عينيها رغبة منه في استطالة حياة معتقده هذا داخل ذهنه ولو للحظات، علماً منه أن النظر إليها سيحرر تلك الفكرة من ذهنه فتتوه في الفضاء إلى غير عودة.

Bitterness-s

بعد مضي ستة أسابيع
(أبريل 2011)

كان اسمها مسجلاً ضمن اللائحة، فعرضت بطاقة الهوية على الحارس. دلفت إلى الداخل فإذا بالمكان خفيف الإضاءة ويتخذ شكل كهف بلونه الأرجواني المبهم، وعلى الجانبين يبرز عمودان طويلان. تابعت الطريق نحو قاعة الرقص حيث تستقبلك رائحة أشبه بالكحول الفاسدة. كانت بعض الفتيات من لجنة جمع التبرعات يتحلقن حول طاولة ويتفحصن بعض اللوائح. حيتهن ماريان فاستدرن ونظرن إليها.

- مرحباً، يبدو أنك اهتممت بنفسك، قالت ليزا.

- تبدين فاتنة، أضافت كارين.

أما ريتشل فلم تنبس بحرف واحد. يعلم الجميع أنها الأشهر داخل المدرسة، لكن لا أحد يجرأ على الجهر بذلك، فقد كانوا جميعهم ينكرون وجود تلك التراتبية الهرمية التي تنظم حياتهم الاجتماعية في علاقتهم ببعضهم البعض، حيث كان البعض منهم يشكل رأس الهرم بينما يتدافع البعض في الوسط، أما البقية الباقية فتتكدس في القاع أسفل القاعدة. كانت ماريان أحياناً ترى نفسها في قاع الهرم، وترى نفسها أحياناً أخرى خارجه تماماً ولا تخضع لتلك

Bitterness-s

الميكانيكا الخاصة به طالما أنها لا رغبة لها في الشعبية ولا ترغب في الانتماء إليها. لم يكن لذلك الهرم في نظرها أثر يذكر حتى بالنسبة لمَن هم في القمة. فركت ماريان ذراعها ثم شكرتهن. أترغبن ببعض الشراب؟ أنا ذاهبة إلى البار، قالت ذلك، فردت ريتشل:

- كنت أعتقد أنك لا تحتسين الكحول.

- سآخذ زجاجة ويست كوست كولر، قالت كارين.

النبيذ هو المشروب الكحولي الوحيد الذي سبق لماريان أن جرّبته، لكنها عندما ذهبت إلى البار، قررت احتساء الجن والتونيك. حملق الساقي بكل وضوح في نهديها بينما تتحدث. لم يكن لديها أدنى فكرة عن سبب إقدام الرجال على أمور مثل هذه خارج عتبات الأفلام والبرامج التلفزيونية، بيد أن تجربة كهذه تنفحها لذة الإحساس بأنوثتها. كانت ترتدي فستاناً رقيقاً أسود اللون يلتصق بجسدها. كان المكان لا يزال فارغاً تقريباً رغم أن الاحتفال كان قد بدأ عملياً. ولدى عودتها إلى طاولة جلوس الفتيات، شكرتها كارين بنوع من المبالغة قائلة إنها سترد لها الصنيع، فردت ماريان ملوحة بيدها: لا تهتمي بذلك.

بدأ الناس يتوافدون أخيراً، وبدأت الموسيقى تصدح. كان لحن ريميكس أغاني فرقة ديستنيز تشايلد يملأ الأجواء، بينما ناولت ريتشل ماريان دفتر تذاكر اليناصيب وطفقت تشرح لها نظام التسعير. لقد كان انضمام ماريان للجنة الدبس[1] لجمع التبرعات من ضرب التنكيت ربما، ومع ذلك فها هي تساعد في تنظيم الاحتفال على كل

---

(1) Debs: حفل ينظم في آخر سنة من المرحلة الثانوية، في أيرلندا، على شرف التلاميذ الذين سيتخرجون - المترجم.

Bitterness-S

حال، وها هي تطوف بين الفتيات حاملة دفتر التذاكر بين يديها، بعدما كانت تكتفي بملاحقة الآخرين بنظراتها من بعيد على نحو أشبه بالتتبع العلمي لتجربة أو لظاهرة ما، بيد أن الحال مختلف الليلة حيث ألفت نفسها مضطرة للانخراط في محادثات والابتسام بكل أدب ورقة؛ فلم تعد مراقِبة وإنما أضحت دخيلة، دخيلة غريبة. باعت بعض التذاكر فيما كانت توزع الفكة من جيب حقيبتها الخاصة، ابتاعت المزيد من الشراب؛ وتابعت تقليب نظراتها بين الباب تارة وتشيح بوجه تغطيه الخيبة تارة أخرى.

- يبدو أن الفتية تأخروا، قالت ليزا.

وكانت ماريان تعلم جيداً أي الفتية تقصد بالذات: روب الذي تعيش معه ليزا علاقة تنتهي وتتجدد بين الفينة والأخرى، وأصدقاءه إيريك وجاك هاينز وكونيل والدرون. بطبيعة الحال لم تغفل ماريان عن مسألة تأخرهم.

- إذا لم يحضروا فسأقتل كونيل ذاك لا محالة، قالت ريتشل. فقد أكد لي ليلة أمس أنهم سيحضرون حتماً.

أما ماريان ففضلت الركون إلى الصمت. اعتادت ريتشل التحدث بهذه الطريقة بشأن كونيل، في تلميح إلى وجود محادثات خصوصية وانفرادية بينهما، كما لو كانا مقربين على نحو خاص، غير أن كونيل يتجاهل هكذا سلوكات، ويتجاهل أيضاً التلميحات التي تلقي بها ماريان في هذا الباب في خضم حديثهما. عقبت ليزا قائلة:

- لعلهم لا يزالون في منزل روب يحتسون بعض الشراب قبل الحضور إلى هنا.

فعلّقت كارين:

- لكنهم سيكونون ثملين تماماً عند وصولهم.

Bitterness-s

تناولت ماريان هاتفها من حقيبتها وكتبت رسالة إلى كونيل: إن النقاش محموم هنا بشأن غيباكم، هل ستحضرون أم لا؟ فرد كونيل بعد ثلاثين ثانية: نعم، لقد مرض جاك فكان علينا أن نستقل سيارة أجرة من أجله، لكن سنكون في طريقنا إليكم قريباً. وأنت كيف تبلين في تجربتك الاجتماعية مع الناس؟ فردّت عليه: لقد أصبحت فتاة المدرسة المشهورة الجديدة الآن، بحيث يتردد اسمي على لسان كل من هم في قاعة الرقص. ثم أعادت هاتفها إلى حقيبتها. لقد كان أكثر شيء يمكنه إثارة بهجتها في تلك اللحظة هو القول: سينطلقون قريباً. الرب وحده يعلم المكانة التي قد تعطيها هاتان الكلمتان، وإلى أي مدى كانت لتصل بها حالة الرعب والارتباك في تلك اللحظة، وإلى أي مدى كانت لتزعزع استقرار كيانها ولتهدم نفسيتها.

ورغم أن كاريكلي كانت المدينة الصغيرة الوحيدة التي احتوت جسد وروح ماريان، فلم تكن هذه الأخيرة تعرفها عن ظهر قلب. لم تعتد على الذهاب لاحتساء الشراب في حانات الشارع الرئيس، كما أنها لم ترتد النادي الليلي الوحيد في المدينة قبل تلك الليلة، ولم يسبق لها قط زيارة عقار نوكلايون السكني، حتى إنها لم تكن تعرف اسم النهر الذي ينساب بنياً متسخاً قاسماً المدينة إلى شطرين ويمر وراء مرآب الكنيسة، حاملاً أكياساً بلاستيكية رقيقة بين أمواج تياراته، ولا حتى أين يكب هذا النهر. ومن عساه يخبرها؟ فهي تغادر البيت فقط للذهاب إلى المدرسة، وإلى القداس المفروض عليها أيام الآحاد، وإلى بيت كونيل عندما تكون لوحدها. كانت تعرف مقدار المسافة إلى مدينة سلايغو - عشرون دقيقة - بيد أنها لم تكن على دراية بمواقع المدن المجاورة الأخرى ولا حتى أحجامها

Bitterness-s

قياساً إلى كاريكلي. كولاني، وسكرين، وباليزاداري، كلها أماكن كانت ماريان متأكدة من وجودها في الجوار كما أن الأسماء المذكورة ما تلبث تتحرش بذاكرتها في صورة عاتمة، بيد أنها لا تدري بأي أرض تكون. لم يسبق لها قط أن ارتادت مركز الرياضة، ولم تذهب إلى مصنع القبعات المهجور لاحتساء الشراب، رغم أنها مرت من أمامه يوماً في السيارة.

والشأن ذاته بالنسبة للعائلات في المدينة؛ فلم تكن تدري أيها في نفر الصالح وأيها في نفر الطالح؛ كان ذلك من الأمور التي ودت لو عرفتها فقط لتهجر الفكرة كلياً. كل ما كانت تعرفه أنها من عائلة جيدة، بينما عائلة كونيل خلاف ذلك. لقد كان لآل والدرون صيت سيء في كاريكلي، فقد قضى أحد إخوة لورين عقوبة سجنية مرة لسببٍ تجهله ماريان، فيما كاد آخر يقضي نحبه في حادث دراجة نارية قبل سنوات، وطبعاً فقد كان حمل لورين في سن السابعة عشر وقد غادرت أسوار المدرسة من أجل الطفل. ورغم هذا، فإن كونيل يعد صيداً ثميناً بالنسبة للفتيات هذه الأيام، فهو فتى مثابر في دراسته ويلعب في مركز قلب الهجوم في فريق كرة القدم بالمدرسة، كما أنه وسيم وليس من النوع الذي يحب العراك والشجار، ويحظى بحب الجميع. ضف إلى ذلك أنه شخص هادئ، حتى إن والدة ماريان ستقول في استحسان: إن هذا الفتى لا يشبه آل والدرون في شيء. تعمل والدة ماريان محامية وكذلك كان زوجها المتوفى.

ذكر كونيل الأسبوع الماضي شيئاً عن «الشبح»، اسم لم تسمع به ماريان من قبل، فأثقل الفضول لسانها لتسأله. رفع حاجبيه ثم قال: الشبح، مبنى الشبح في ماونتن فيو، يوجد خلف المدرسة مباشرة. واستطاعت ماريانْ رسم صورة مشوشة في ذهنها عن بنية في

Bitterness-S

الفضاء الذي يوجد خلف المدرسة، بيد أنها لم تكن تدري بوجود عقار سكني هناك الآن، أو أن المكان كان مهجوراً تماماً. فأعقب كونيل قائلاً إن الناس يرتادون المكان للشراب. تأوهت ماريان في اندهاش ثم سألته كيف يبدو ذلك المكان، فقال إنه كان يتمنى أن يأخذها إلى هناك يوماً، لكن المكان لا يخلو من الرواد. كان دائماً يلوح بملاحظات حول أشياء «يتمنى» فعلها. تمنيت لو أمكنك البقاء، كان يقول لها حين تهم بالمغادرة، أو تمنيت لو أمكنك قضاء الليلة هنا. وماريان تعلم أنه لو تمنى تلك الأشياء حقاً لحدثت بالفعل، فهو دائماً يصل إلى ما يريد، ثم تنتابه الحسرة عندما يكتشف أن ما وصل إليه لم يبلغه السعادة.

وفي نهاية المطاف أخذها لرؤية مبنى الشبح. ذهبا ذات يوم بعد الظهيرة على متن سيارته. خرج هو أولاً ليطمئن من خلو المكان من مخلوقات بشرية قبل أن تتبعه. كانت منازل المبنى ضخمة جداً، بيوت ذات واجهة خرسانية وأعشاب غير مشذبة. كانت بعض ثقوب النوافذ الفارغة مغطاة بقطع من البلاستيك التي كانت تخفق مع حركة الرياح. كان الجو ماطراً وقد نسيت سترتها في السيارة؛ شبكت ذراعيها ونظرت بعينين نصف مغمضتين أعلى الأسقف الأردوازية المبتلة.

- أترغبين في إلقاء نظرة على الداخل؟

كان باب المنزل رقم 23 الأمامي غير موصد. كان الداخل أكثر هدوءاً وعتمة، كما أنه كان متسخاً. ركلت ماريان بمقدمة حذائها قنينة نبيذ تفاح فارغة. المكان يعج بأعقاب السجائر فيما كان أحدهم قد أحضر مرتبة ووضعها في غرفة الجلوس المهجورة؛ مرتبة مرقطة بنقط من الدنس وبعض ما يشبه الدماء. يبدو المكان قذراً، كانت

Bitterness-S

تلك ملاحظة جاءت بصوت عالٍ على لسان ماريان فيما ظل كونيل صامتاً يجول بمقلتيه أرجاء الفضاء، فتابعت كلامها سائلة:

- هل تتسكع هاهنا كثيراً؟

فأجابها بهز كتفيه. ليس كثيراً، كنت آتي إلى هنا في الماضي، لكنني لم أعد أرتاد المكان كثيراً الآن.

- أرجوك لا تقل لي إنك جئت بإحداهن إلى هذه المرتبة.

تبسم من قولها في لامبالاة، ثم قال: كلا، أهذا ما تخالينني أفعله في عطل نهاية الأسبوع؟

- نوعاً ما.

جنح إلى الوجوم، ما جعلها تشعر بالمزيد من السوء. ركل علبة دوتش جولد مهشمة فأرسلها تنزلق اتجاه الأبواب الزجاجية في حركة اعتباطية وقال:

- أكاد أجزم أن هذا الصرح يفوق حجم منزلي ثلاث مرات، ألا ترين ذلك؟

انتابها إحساس بالسخافة أن فهمت بأنه كان يفكر في أمرٍ آخر تماماً، فردت: ربما، فلم أر الطابق العلوي طبعاً.

- أربع غرف نوم.

- رباه!

- أربع غرف نوم، هكذا، لا يعتمرها أحد. لِمَ لا يتبرعون بها ما داموا لا يستطيعون بيعها؟ أنا لا أدّعي الغباء، إنما تراني أتساءل حقاً.

هزت كتفيها في استهجان، إذ لم تكن تعرف الإجابة، وقالت:

- لعله أمر متعلق بالقيم الرأسمالية.

Bitterness-s

- نعم، كل شيء له علاقة بتلك القيم، وهنا يكمن المشكل، أليس كذلك؟

أومأت مشاطرة إياه الرأي. تفرس فيها كما لو كان يستفيق من حلم وقال لها: هل تشعرين بالبرد؟ تبدين وكأنك تتجمدين برداً.

فتبسمت وفركت أنفها، ثم فك زمام سترته السميكة السوداء ووضعها على كتفيها. كانا يقفان أحدهما على مقربة من الآخر. كان يعلم أنها على استعداد للاستلقاء على الأرض والسماح له بالمشي فوق جسدها إن هو أراد ذلك.

بادر كونيل بالقول:

- عندما أخرج أيام عطلة نهاية الأسبوع لا أتعقب فتيات أخريات أو شيئاً من هذا القبيل.

فتبسمت وردت: كلا، أعتقد أن هن اللواتي يتعقبنك.

فأطلق ابتسامة بدوره ونظر إلى حذائه، معلقاً: لديك أفكار طريفة بشأني.

فمدت أناملها إلى ربطة عنقه المدرسية وعضت عليها. كانت المرة الأولى التي كانت تستطيع فيها التلفظ بكلام مثير للصدمة متوسلة بسجل لغوي سوقي، ففعلت ذلك بسخاء: ماذا لو طلبت منك أن تضاجعني هنا، في هذا المكان؟

لم تتغير تقاسيم وجهه بيد أنه دس يديه تحت بلوزتها الصوفية ولف جسدها ليُظهر أنه كان يصغي إلى ما تقول، ثم أضاف بعد بضع ثوانٍ: نعم، إن كان هذا ما تريدين، فأنت دائماً تجعلينني أفعل غرائب الأفاعيل على كل حال.

- ما الذي تعنيه؟ أنا لا أقدر على حملك على فعل أي شيء.

- بل تقدرين. أتعتقدين أني كنت لأقدم على صنيع كهذا مع أي

Bitterness-s

فتاة أخرى؟ أنا جاد، هل تظنين أنني كنت لأتسلل خلسة بعد وقت المدرسة وأفعل كل هذا من أجل فتاة أخرى؟

- ماذا تريد مني أن أفعل؟ أتركك وشأنك؟

راح يحدق فيها بادية عليه الدهشة من أثر هذا التحول المحوري في مسار النقاش، فهز رأسه قائلاً: إن فعلت ذلك...

نظرت إليه لكنه لاذ بالصمت.

- إن فعلت ذلك فماذا؟

- لا أعلم. تقصدين إذا قررتِ أن تضعي حداً للقاءاتنا؟ صدقاً سيكون الأمر مفاجأة بالنسبة لي، إذ يبدو أنك تستمتعين بذلك.

- وماذا لو قابلتُ شاباً آخر، شاب يحبني أكثر؟

ضحك مما قالت، فيما استدارت وأفلتت جسمها من ذراعيه، ولفت ذراعيها حول صدرها. نادها مهلاً لكنها لم تعره انتباهها. كانت تقابل تلك المرتبة المقززة التي تغطيها بقع بلون الصدأ. تقدم نحو ظهرها بكل عطف ورفع خصلات شعرها ليطبع قبلة على مؤخرة عنقها، ثم قال: أعتذر لأنني ضحكت مما قلتِ، فقد آثرتِ انزعاجي بحديثك عن عدم رغبتك في الخروج معي، فقد كنت أظن أنك معجبة بي.

فأغمضت عينيها وقالت: أنت تعجبني حقاً.

- طيب، إن حدث وقابلتِ شخصاً آخر تحبينه أكثر مني، فسأكون منزعجاً. حسناً؟ بما أنك سألت فها أنا أجيب: لن أكون سعيداً. حسناً؟

- وصفني صديقك إريك اليوم بصاحبة الصدر المسطح أمام الملأ.

صمت كونيل، فأمكنها سماع أنفاسه، ثم قال: لم أسمع ذلك.

Bitterness

- كنتَ في المرحاض أو في مكان آخر حينها. قال إنني أبدو مثل منضدة الكي.

- سحقاً! يا له من وغد! ألهذا تعكر مزاجك؟

هزت كتفيها في استهجان، فاحتوى كونيل خصرها بذراعيه مردفاً: يحاول فقط أن يثير انزعاجك، ولو علم أنه يملك نصف فرصة لينال رضاك، لكان أسلوبه مغايراً تماماً. كل ما في الأمر أنه يظن بأنك تستصغرينه.

هزت كتفيها من جديد ثم عضت على شفتها السفلى.

- يجب ألا تقلقي بشأن مظهرك.

- همم.

- صدقاً، إن ذكاءك ليس الشيء الوحيد الذي يعجبني فيك.

ضحكت من الشعور بالسخافة الذي راودها، فدعك أذنها بأنفه وأعقب: إن توقفتِ عن مقابلتي، فسأفتقدك كثيراً.

- وهل ستفتقد أوقاتنا الحميمية أيضاً؟

تحسس بيده وركها ثم احتوى ظهرها وقال بهدوء: نعم، كثيراً.

- أيمكننا العودة إلى منزلك الآن؟

فأومأ برأسه. لم يبرحا موضعهما للحظات سابحين بين غيوم السكون، كان يطوق جسدها بذراعيه ويملأ أذنها بأنفاسه. فكرت ماريان حينذاك أن معظم الناس يحيون دهراً دون أن يشعروا بهذا القدر من الحميمية مع شخص آخر.

أخيراً، وبعدما رشفت كأساً ثالثاً من الجن والتونيك، فتحت الأبواب ووصل الشبان، عندها وقفت الفتيات وبدأن بمضايقتهم وتوبيخهم على التأخر. أما ماريان فتخلفت عنهم وأخذت تلاحق

Bitterness-s

عيني كونيل الذي لم يبادلها النظرات. كان يرتدي قميصاً أبيض اللون وبه أزرار وحذاء الأديداس الرياضي الذي ينتعله حيثما حل. كان باقي الشبان يرتدون أقمصة أيضاً، لكن رسمية وبراقة، وينتعلون أحذية جلدية. امتزجت الأجواء برائحة كولونيا بعد الحلاقة، وفجأة التقط إيريك نظرات ماريان وأشاح بعينيه عن كارين، في حركة واضحة كفاية لتلفت أنظار الجميع، ثم علق:

- تبدين رائعة يا ماريان.

لم تستطع عندها الجزم ما إذا كان صادقاً أو محاولاً اصطناع السخرية، فيما سلط باقي الشبان النظرات عليها ما عدا كونيل.

- أنا جاد، فستانك جميل وتبدين مثيرة حقاً، أردف إيريك.

راحت ريتشل تضحك واستندت إلى كونيل لتهمس في أذنه بغيبة ما، غير أن هذا الأخير شاح بوجهه دون أن يبادلها الضحك. أحست ماريان بضغط في رأسها حيث إنها أرادت التخفيف منه عبر الصراخ أو البكاء.

- هيا بنا نرقص، قالت كارين.

- لم أر قط ماريان ترقص، أردفت ريتشل.

- سترينها الآن، قالت كارين.

أخذت كارين بيد ماريان واصطحبتها إلى حلبة الرقص حيث كانت إحدى أغاني كانييه ويست المقتبس بعضها من كرتس مايفيلد تصدح في القاعة. كانت ماريان لا تزال تمسك دفتر التذاكر بيد، وتشعر بتعرق الأخرى داخل قبضة كارين، أما حلبة الرقص فكانت مزدحمة بحق وترسل بموجات من القشعريرة عبر حذائها إلى أعلى ساقيها. ربت كارين بيدها على كتف ماريان ثم همست في أذنها والثمالة تأخذها: لا تأبهي بما تقوله ريتشل، فمزاجها معكّر. أومأت

Bitterness-s

ماريان برأسها وهزّت جسمها بالموازاة مع صوت الموسيقى. كانت الثمالة قد أخذت تدب في جسمها وهي تتفحص المكان باحثة عن كونيل، فلمحته يمكث غير بعيد واقفاً أعلى الدرج يراقبها. كان صخب الموسيقى عالياً جداً بحيث شعرت كما لو كان يصدح بداخلها. كان الجميع من حوله يتحدثون ويضحكون فيما ظل هو واجماً واضعاً إياها ضمن نطاق نفوذه البصري يتفرسها؛ في هذا النطاق، كانت تبدو حركاتها مضخمة كما لو كانت تحت عدسة مكبرة، كما كانت تبدو مشينة أيضاً، بينما وزن ذراعي كارين يبدو شهوانياً ومثيراً. هزّت خصرها ومرّرت يدها بين خصلات شعرها.

همست كارين في أذنها: لم يبرح عينيه عنك طوال الوقت، فنظرت ماريان في اتجاهه ثم في اتجاه كارين دون أن تنبس بحرف، محاولة منع تقاسيمها من البوح بما يكتم صدرها.

وقالت كارين: لعلك تفهمين الآن سبب انزعاج ريتشل منك.

كانتا قريبتين جداً في تلك اللحظة بحيث استطاعت ماريان شم رائحة النبيذ في فم كارين ورؤية حشو أسنانها، وقد أحبتها كثيراً لحظتها. رقصتا قليلاً ثم صعدتا السلم معاً تمسكان إحداهما بيد الأخرى وهما تلهثان وتتضاحكان دونما سبب، بينما كان روب وإيريك يتظاهران بالجدال. تقدم كونيل في اتجاه ماريان ببطء حتى تلامست ذراعاهما، وراودتها رغبة في التقاط يده ومص أصابعه واحداً تلو الآخر.

استدارت ريتشل قبالتها وقالت: ألن تحاولي بيع بعض التذاكر؟

فأجابت ماريان بابتسامة من ثغرها؛ ابتسامة حملت ما حملت من علو وسخرية، ثم أردفت: طيب.

- أظن أن هؤلاء الشباب قد يرغبون في بعض التذاكر. كانت

Bitterness-S

تلك ملاحظة جاد بها إيريك. ثم أشار بيده إلى الباب حيث وقف شبان أكبر سناً. لا يفترض بهم أن يكونوا هنا فقد قال القائمون على النادي إن الحفل سيكون مخصصاً لحاملي التذاكر فقط. لم تكن تعلم ماريان ماهيتهم؛ ربما إخوة أو أقرباء أحدهم، أو ربما رجال في العشرينات من النوع الذي يفضل التسكع في حفلات جمع التبرعات المدرسية. لمحوا إيريك يلوح بيده فالتحقوا بالجمع، أما ماريان فتفقدت حقيبتها للتأكد من الفكة في كيس النقود في حال أراد أحدهم شراء بعض تذاكر اليناصيب.

- كيف الأحوال يا إيريك، ألن تعرفنا على صديقتك؟ قال أحد الرجال.

- هذه ماريان شيريدان لعلك تعرف شقيقها آلان، ربما كان في دفعة مايك، ردّ إيريك.

اكتفى الرجل بإيماءة من رأسه منشغلاً بتفحّص ماريان من رأسها إلى أخمص قدميها، فيما لم تعره أدنى انتباه. حال صخب الموسيقى دون سماع بما همس روب في أذن إيريك، بيد أن فراستها أخبرتها بأن الأمر يتعلق بها.

- اسمحي لي أن أبتاع شراباً من أجلك، ماذا تفضلين؟ قال الرجل.

- لا، أشكرك، أجابت ماريان.

فوضع يده على كتفها. لاحظت أنه طويل القامة، أطول من كونيل، وانشغلت أصابعه بمداعبة أعلى ذراعها العارية. حاولت الإفلات من يده فلم يتركها. فطفق أحد أصدقائه يضحك وحذا إيريك حذوه.

- فستانك جميل، قال الرجل.

Bitterness-S

- أتمانع ترك يدي؟

- عاري الصدر بعض الشيء، أليس كذلك؟

وبحركة سريعة، مد يده أسفل كتفها وضغط على ثديها الأيمن أمام مرأى الجميع، فنفضت بجسمها بعيداً من فورها ثم سحبت ثوب فستانها لتغطي صدرها أعلى عظم الترقوة، فيما احمرّ وجهها وكأنه بقعة دماء. كانت عيناها لاذعتين والألم يخفق في الموضع الذي أمسكها منه؛ كانت تسمع الآخرين يضحكون وراءها، ريتشل بدورها كانت تضحك، وها هي ماريان تشعر بضوضاء عالية تخرم طبلة أذنها.

اتجهت صوب الباب دون أن تلتفت خلفها ثم خرجت تاركة إياه ينغلق وراءها. هي الآن في الردهة عند غرفة الإيداع ولم تدري إن كان المخرج يميناً أو يساراً. كان جسدها يرتعش فسألها القيم على غرفة الإيداع إن كانت على ما يرام. لم تكن ماريان تدري إلى أي درجة عبث بها السكر فتقدمت بضع خطوات باتجاه بابٍ على يسارها ومن ثم أسندت ظهرها إلى الجدار وانحدرت بجسدها لتفترش البلاط. كان ثديها لا يزال يؤلمها في الموضع الذي أمسكها منه ذلك الرجل. لم يكن يمزح؛ لقد تعمد إيذاءها. جلست على الأرض حاضنة ركبتيها.

فُتِح الباب في الردهة مرة أخرى وطلت كارين بمعية إيريك وريتشل وكونيل يتبعهم. لمحوا ماريان مفترشة بلاط الأرض فهرعت إليها كارين بينما تسمر الآخرون في أماكنهم لا يعرفون ما يفعلون، أو ربما لا يريدون فعل شيء. انحنت كارين لتلمس يدها. كانت عينا ماريان ملتهبتين ولا تدري أين تنظر، فسألتها كارين:

- هل أنت على ما يرام؟

Bitterness-s

- أنا بخير. آسفة، أظنني أثقلت من الشرب.

- اتركيها، قالت ريتشل.

- اسمعيني، لقد كان ذلك من باب الدعابة. بات في الواقع شخص لائق إن عرفته، قال إيريك.

- أظن أن الأمر كان طريفاً بالفعل، علّقت ريتشل.

تفاجأت كارين من ذلك فقصفتهما بنظرات استغراب قائلة: ولماذا خرجتما إذاً ما دمتما تعتبران ما حصل من باب الدعابة؟ لماذا لا تعودان وتستمتعان بصحبة صديقكما المفضل بات إن كنتما تريان أن التحرش بالفتيات الصغيرات من باب الدعابة؟

- كيف تُعَدُّ ماريان صغيرة؟ سأل إيريك.

- كنا نضحك جميعاً وقتها، قالت ريتشل.

- هذا ليس صحيحاً، أوضح كونيل.

فحملق فيه الجميع وكذلك فعلت ماريان فتلاقت نظراتهما، ثم سألها:

- هل أنت بخير؟

- أوه! أو ربما من الأفضل أن تقبّلها! قالت ريتشل.

توردت وجنتاه في تلك اللحظة ثم مسح على حاجبه. كان الجميع يراقبه بينما تسلل برد الجدار إلى ظهر ماريان وقد بدأت تحس به الآن.

- اغربي عن وجهي يا ريتشل.

تبادل إيريك وكارين النظرات على مرأى ماريان، فكونيل لم يسبق له أن تحدث أو تصرف على هذا النحو في المدرسة. لم تشهد منه طوال سنين مزاجاً عدائياً قط، حتى عندما كان يتعرض للتنمر

Bitterness-S

والسخرية. رفعت ريتشل رأسها ثم اتجهت عائدة أدراجها إلى داخل النادي فانغلق الباب بقوة على مفصليه. واصل كونيل فرك حاجبه، وهمست كارين بكلام في أذن إيريك لم تسمعه ماريان ثم تطلع كونيل في وجه ماريان وسألها: هل تودين العودة إلى البيت؟ سيارتي هنا، يمكنني أن أقلك. أومأت برأسها موافقة فساعدتها كارين على الوقوف. دس كونيل يديه في جيبيه مخافة أن يلمسها لاإرادياً.

- آسفة لافتعال جلبة هنا. كم أنا غبية، فالشرب ليس من عوائدي، قالت ماريان لكارين.

- لا ذنب لك في هذا.

- أشكرك على لطفكِ.

أمسكتا بيد بعضهما مجدداً ثم تبعت ماريان كونيل إلى الخارج ومن ثم إلى الجهة المقابلة من الفندق حيث ركن سيارته. كان الجو بارداً والظلام يسدل ستاره على الدنيا، وصوت الموسيقى يصدح أنيناً من خلفهما. جلست في المقعد الأمامي وربطت حزام الأمان. أغلق باب السائق ووضع المفاتيح داخل المشغل.

- آسفة بخصوص تلك الفوضى، كررت ماريان الاعتذار.

- لم يكن خطؤك، أنا آسف لتصرُّف الآخرين بغباء. هم يعتقدون أن بات شخص رائع لمجرد تنظيمه حفلات في منزله أحياناً. فمن الواضح أن تنظيم الحفلات في منزلك يمنحك تأشيرة مضايقة الناس من حولك، لا أعرف.

- لقد آلمني.

ركن كونيل إلى الصمت ثم دلك المقود بيده؛ نظر أسفل حضنه ثم أطلق زفيراً سريعاً، زفير أشبه بالسعال. آسف بشأن ذلك، قال ثم

Bitterness-s

شغل محرك السيارة، وانطلقا تحت وطأة الوجوم لبضع دقائق أسندت فيها ماريان جبينها على النافذة تبرده.

- أترغبين في مرافقتي إلى المنزل لبعض الوقت؟

- لورين ليست هناك؟

هز كتفيه ثم ضغط بأنامله على المقود.

- لعلها خلدت إلى النوم. أقصد أنه يمكننا التسكع قليلاً قبل أن أقلك إلى بيتك. إن لم تكن لك رغبة في ذلك فلا بأس، لن يضيرني الأمر.

- وماذا لو كانت لا تزال مستيقظة؟

- في الواقع هي لا مشكلة لديها بهذا الخصوص. لا أعتقد أنها تهتم بالأمر أصلاً.

حملقت ماريان عبر النافذة في المدينة الصغيرة التي يعبرانها. هي تعلم ما الذي يقوله: يقول إنه لا يهتم إن علمت والدته بموضوع علاقتهما، أو ربما لقد علمت بذلك وانتهى الأمر.

- يبدو أن لورين أم رائعة، قالت ماريان.

- نعم، أعتقد ذلك.

- لا شك أنها فخورة بك، فأنت الفتى الوحيد في المدرسة الذي صار شاباً قويماً.

راح كونيل يحدق فيها ثم سأل:

- كيف ذلك؟

- ما الذي تقوله؟ الجميع يحبونك، كما أنك شخص لطيف على النقيض من معظمهم.

اتخذت تقاسيم وجهه شكلاً لم تنجح في فك طلاسمه؛ رفع

Bitterness-s

حاجبيه في نوع من العبوس. عند وصولهما إلى المنزل، كانت النوافذ يغطيها الظلام بينما كانت لورين قد خلدت إلى النوم. استلقيا على السرير في غرفة نومه وأخذا يتهامسان. أخبرها أنها تبدو جميلة، ولم تكن قد سمعت هذا من ذي قبل، رغم أنها كانت قد ساورتها بعض الشكوك في ذلك، إلا أن الأمر مختلف أن تسمعه من الغير. أخذت يده ووضعتها على ثديها في الموضع الذي يؤلمها، ثم قبلها. كان وجهها مبتلاً من أثر البكاء، فقبّل عنقها. هل أنت بخير؟ أومأت برأسها فمسد خصلات شعرها. لا بأس أن تكوني منزعجة. أسندت رأسها على صدره. أحست كما لو كانت قطعة ثوب تعصر وتقطر.

- هل كنت يوماً لتضرب فتاة؟

- رباه! لا، قطعاً. لِم تسألين؟

- لا أعلم.

- أتعتقدين أنني من النوع الذي قد يقدم على مثل هذا؟

ضغطت بوجهها على صدره بقوة ثم قالت: اعتاد أبي على ضرب أمي. صمت لثوانٍ معدودة بدت وكأنها ردح من الزمن ثم علق:

- رباه! أنا آسف. لم تكن لدي فكرة عن ذلك.

- لا بأس.

- وهل كان يضربكِ أنت أيضاً؟

- أحياناً.

لاذ كونيل بالصمت من جديد ثم انحنى وطبع قبلة على جبينها. لن أؤذيك يوماً، أبداً، حسناً؟ قال لها، فأومأت هي من رأسها دون أن تنبس بكلمة، فأردف: يا لك من مصدر سعادة في حياتي، ثم

Bitterness-s

مسد خصلات شعرها مضيفاً: أنا أحبك؛ هي ليست مجرد كلمات عابرة، أنا أحبك حقاً. اغرورقت عيناها بالدموع من جديد فأغمضتهما. حتى بين طيات الذاكرة، ستظل هذه اللحظة قوية بشكل فريد، وهي تعرف ذلك الآن. لم تكن لتؤمن أن يبعث لها القدر بمن يحبها يوماً، وها هي الآن على حافة حياة جديدة تلتقط منها أول الغيث، وحتى بعد مرور السنين ستظل تقول: نعم، لقد كانت تلك بداية حياتي.

Bitterness-s

يومان بعد ذلك
(أبريل 2011)

وقف على جانب السرير بينما ذهبت والدته في أثر إحدى الممرضات. أهذا كل ما ترتديه؟ سألته جدته.

- ماذا؟

- أهذه السترة كل ما ترتديه؟

- آه، نعم.

- لكنك ستقضي من البرد هكذا، ستجدك فوق هذا السرير مثلي أيضاً.

انزلقت جدته هذا الصباح ووقعت على الأرض في مرآب سيارات متجر ألدي فتأذت من وركها. لم تكن جدته هاته قد بلغت من الكبر عتياً كما هو شأن باقي المرضى، هي سيدة في الثامنة والخمسين، أي من أقران والدة ماريان كما يعتقد كونيل. يبدو أن ورك جدته قد تأذى أو ربما كُسِر، واضطر هو لنقل لورين إلى مدينة سلايغو لزيارة أمها في المستشفى. أطلق أحد المرضى سعالاً في الجانب الآخر من العنبر.

- أنا على ما يرام، فالطقس دافئ في الخارج، رد كونيل.

تنهدت جدته كما لو أن تعليقه بخصوص الطقس آلمها. ربما

Bitterness-s

كان ذلك مؤلماً بالفعل، حيث إن كل ما يفعله يعد مصدر ألم لها، فهي تكرهه لمجرد كونه حياً، فأخذت تتفرسه بنظرات من رأسه حتى أخمص قدميه.

- أنت بالتأكيد لا تشبه والدتك، ألا توافقني الرأي؟

- نعم، لا.

يختلف مظهر كونيل عن والدته، فهي شقراء ذات وجه ناعم يخلو من الحواف. يرى الفتيان في المدرسة أنها جذابة وعادة ما يخبرون كونيل بذلك، وهذا لا يضيره طبعاً، فقد تكون فعلاً جذابة وماذا بعد. أما كونيل فلديه شعر أسود، ذو وجه حاد التقاسيم كتصوير تشكيلي لمجرم ما، ويعلم أن موقف جدته لا يتعلق بمظهره بل بنسبه. إذا فليكن ذلك، فلا يجد ما يقول بخصوص هذا.

لا يعلم أحد هوية والد كونيل عدا لورين. أخبرته أن بوسعه السؤال متى أراد أن يعلم، بيد أنه لا يهتم كثيراً بالأمر. ينبش أصدقاؤه في الموضوع أحياناً عندما يتسكعون ليلاً كما لو كان موضوعاً عميقاً وذا أهمية، حيث إنهم لا ينبشونه إلا ساعة الثمالة، أما هو فيجد الأمر محبطاً. لا يفكر قط بشأن الرجل الذي زرعه في أحشاء لورين، ولم عساه؟ يلفي أصدقاءه مهووسين بشأن آبائهم، مهووسين بالاقتداء بهم أو بالاختلاف عنهم بطريقة أو بأخرى. وعندما يتشاجرون مع آبائهم، يُظهر الشجار عادة سبباً ما في العلن بينما يضمر السبب الحقيقي، أما كونيل، فعندما يتشاجر مع لورين فعادة ما يكون بشأن ترك المنشفة مبللة فوق الأريكة مثلاً، ويكون الشجار فعلاً بسبب المنشفة. وحتى في أعوص الشجارات، يكون بسبب إهماله، حيث إنه يريد إقناع لورين بأنه شخص مسؤول رغم عادته السيئة المتمثلة في ترك المنشفة في أي مكان، وتقول لورين لو

أن إثبات شخصيته المسؤولة يهمه جداً، لبلورها في سلوكاته.

أخذ كونيل والدته في السيارة إلى مركز الاقتراع في نهاية شهر فبراير، وفي طريقهما سألته عمن ينوي انتخابه، فرد أنه سيصوت على أحد المرشحين. كانت إجابة مبهمة وساخرة إلى حد أنها ضحكت منها، ثم قالت: حسناً لا تخبرني. الشيوعي ديكلان بري، قال كونيل دون أن يبدو عليه الاستفزاز وتابع التحديق في الطريق مردفاً: نحن في الحاجة إلى بعض الشيوعية في هذه البلاد في رأيي. كان يرى بطرف عينه لورين تبتسم قائلة: ويحك أيها الرفيق، أنسيت أنني من رباك على قيمك الاشتراكية الجميلة هذه؟ والحق أن لورين تتمتع بالقيم فهي مهتمة بما يجري في كوبا وبقضية تحرير فلسطين. وصوَّت كونيل في نهاية المطاف لديكلان بري ذاك، والذي جرت تنحيته من المنافسة في المرحلة الخامسة، حيث كان مقعدان من نصيب فاين جايل وآخر من نصيب شين فين. قالت لورين إن ذلك وصمة عار؛ مبادلة حفنة من الفاسدين بآخرين مثلهم. أرسل كونيل رسالة نصية إلى ماريان: فاين جايل في الحكومة، سحقاً! فردت: حزب فرانكو. فاضطر للبحث من أجل فهم ما رمت إليه.

كانت ماريان قد أخبرته في الليلة السابقة أنه شاب قويم، وأنه لطيف وأن الجميع يحبونه، فألفى نفسه يفكر في ذلك كثيراً، فقد كان من الجميل أن يجد بين طيات أفكاره جملة مثل: **أنت شخص لطيف والجميع يحبونك**. كان يختبر نفسه بأن يحاول التوقف عن التفكير في ذلك قليلاً، ثم لا يلبث يعود إليه ليرى إن كان لا يزال التفكير في الأمر يشعره بالسعادة، وقد كان يشعره بالسعادة بحق. ولسبب ما كان بوده إخبار لورين بما قالته له ماريان. كان يحس بأن ذلك سيطمئنها بطريقة ما، لكن سيطمئنها بشأن ماذا؟ بأن ولدها الوحيد

Bitterness-S

ليس شخصاً عديم الفائدة على كل حال؟ بأن حياتها لم تذهب سدى؟

- وقد بلغني أنك ستلتحق بكلية الثالوث، قالت جدته.

- نعم، إن أنا استطعت الحصول على العلامات الكافية.

- ومن أين أتتك فكرة كلية الثالوث تلك؟

هز كتفيه فأطلقت ضحكة ساخرة قائلة: أوه، هذا جيد بالنسبة لك، وماذا تعتزم أن تدرس؟

قاوم كونيل باعثاً قوياً حثه على تناول هاتفه من جيبه والتحقق من الوقت ثم رد: الإنجليزية. لقد اندهش أخواله وخالاته من اختياره كلية الثالوث في المقام الأول وهو ما سبَّب له إحراجاً. سوف يحصل على منحة جامعية شاملة إن تم قبوله في الكلية، لكن حتى مع المنحة سيتحتم عليه العمل بدوام كامل في العطلة الصيفية والعمل بدوام جزئي على الأقل خلال أيام الدراسة. تقول لورين إنها لا تريده أن يعمل كثيراً في مرحلة الجامعة، بل تريده أن يركز على شهادته، وهو أمر يُشعره بالذنب لأن شهادة الدراسات الإنجليزية ليست بالشهادة التي قد تحصل على وظيفة جيدة بفضلها، فالأمر مجرد دعابة، ثم تراوده فكرة أنه كان عليه ربما أن يتسجل في قسم القانون على كل حال.

عادت لورين إلى العنبر منتعلة حذاء مسطحاً يصدر صوتاً أشبه بالتصفيق المتقطع على البلاط مع كل خطوة، وراحت تتبادل أطراف الحديث مع والدتها بشأن المستشار الذي هو في إجازة والدكتور أومالي والأشعة السينية. كانت تنقل كل هذه المعلومات بعناية، مدونة الأمور المهمة على ورقة. وفي الأخير طبعت جدته قبلة على

Bitterness-S

خدّه ثم أخذ والدته وغادرا العنبر. عقّم يديه في الردهة بينما انتظرته لورين ثم نزلا الدرج ليلفظهما باب المشفى إلى الخارج تحت أشعة الشمس الساطعة والدبقة.

بعد حفل جمع التبرعات في الليلة السابقة، حين أخبرته ماريان بشأن عائلتها، لم يجد ما يقوله فراح يخبرها بأنه يحبها. لقد حدث ذلك وحسب، هكذا كحركة سحب اليد اللاإرادية عندما تلمس جسماً ساخناً. كانت تبكي في تلك اللحظة فلفظها هكذا دون تفكير. هل كان صادقاً بشأن تلك الكلمة؟ لم يكن يدري. في البداية، قال في نفسه إنه حتماً صادق طالما أنه أخرجها على لسانه، فلِمَ عساه يكذب؟ فتذكر أنه يكذب أحياناً، دون تخطيط أو معرفة السبب. لم تكن تلك المرة الأولى التي وجد فيها نفسه في مواجهة باعث قوي على إخبار ماريان بحبه لها، بغض النظر عن كون ذلك صدقاً أو خلافه، لكنها كانت المرة الأولى التي استسلم فيها وقالها. وقد لاحظ طول المدة التي استغرقتها ماريان في الرد وقد أحس بالارتياح عندما ردت عليه وأخبرته بحبها أيضاً، لكن ربما كان ذلك غير ذي معنى. كان كونيل يتمنى لو يعرف كيف يدير الناس حياتهم الخاصة حتى يتمكن من تقليدهم ويحذو حذوهم.

في الصباح الموالي، استفاقا على صرير مفاتيح لورين في قفل باب المنزل. كان الطقس مشرقاً في الخارج وقد أحس بجفاف في فمه، في حين كانت ماريان ترتدي ملابسها. أنا آسفة، آسفة، كان ذلك كل ما جاد به لسانها. والمرجح أنهما ناما دون نية منهما، فقد كان يعتزم أن يقلها لبيتها خلال الليلة السابقة. انتعلت حذاءها وارتدى هو ملابسه أيضاً. كانت لورين واقفة في الردهة حاملة كيسين

Bitterness-5

بلاستيكيين يحويان مواد بقالة لما نزلا السلم حيث كانت ماريان في فستان الليلة الماضية؛ فستان أسود ذو أشرطة.

- مرحباً عزيزتي، قالت لورين.

بدا وجه ماريان ساطعاً مثل مصباح كهربائي وردت: آسفة لتطفلي.

لم يلمسها كونيل أو يتحدث إليها. أحس بألم يداعب صدره فيما انصرفت هي من الباب الأمامي وهي تقول: إلى اللقاء، شكراً، آسفة مجدداً، ثم أوصدت الباب حتى قبل أن ينزل الدرج.

مطّت لورين شفتيها وكأنها تحاول كتم ضحكة. هلا ساعدتني في ترتيب المشتريات، قالت وهي تناوله أحد الأكياس، فتبعها إلى المطبخ ثم وضع الكيس فوق المنضدة دون النظر إليها، وطفق يفرك عنقه وهو يراقبها تفك تعليب المشتريات وتضعها في مكانها.

- ما المضحك في الأمر؟ سأل كونيل.

- لا داعي أن تفرّ هكذا عند وصولي إلى البيت، فأنا منشرحة لرؤيتها، فهي عزيزة على قلبي، ردّت لورين.

راح يشاهدها وهي تطوي الكيس البلاستيكي القابل لإعادة الاستخدام.

- هل كنت تعتقد أني لا أعلم بشأنكما؟

فأغمض عينيه لوهلة وفتحهما من جديد، ثم هز كتفيه.

- لقد كنت أعلم أنك تأتي بإحداهن إلى البيت في المساء، كما أنني أشتغل في منزلهم، وأنت تعلم ذلك.

فأومأ برأسه عاجزاً عن الكلام.

- لا شك أنك معجب بها كثيراً.

- وما الذي يجعلك تقولين ذلك؟

- أليست هي سبب ترشحك لكلية الثالوث؟

وارى وجهه بين كفيه بينما كانت لورين تضحك فسمعها وأجاب: أنت بهذا تثنيني عن الالتحاق بالكلية.

- أوه، كف عن هذا.

راح يحدق في كيس البقالة الذي وضعه على المنضدة ثم سحب علبة من السباغيتي الجافة فحملها، والخجل يتملكه، ووضعها في الدرج قرب الثلاجة مع باقي المعكرونة.

- إذاً فماريان حبيبتك؟

- كلا.

- ماذا يعني ذلك؟ أنت تنام معها وتقول إنها ليست حبيبتك؟

- ألا ترين أنك تتطفلين على حياتي الخاصة، وأنا لا أحب ذلك فهذا شأن يعنيني أنا.

ثم استدار وتناول كرتونة بيض ووضعها على المنضدة بجانب زيت عباد الشمس.

- هل للأمر علاقة بوالدتها؟ أتخشى أن تغضب منك؟

- ماذا؟

- لأنها قد تفعل ذلك بالفعل...

- تغضب مني؟ هذا جنون، ما الذي فعلته لتغضب مني؟

- قد تعتبرنا أقل منها شأناً.

أخذ كونيل يحملق في والدته على الجهة المقابلة من المطبخ وهي تضع علبة كورنفليكس داخل الدرج. لم يسبق له أن راودته فكرة استكبار عائلة ماريان عليه وعلى والدته، واعتبار أنفسهم أرقى من أن يرتبطوا بمثلهما. لقد أدهشه الأمر، حتى إن تلك الفكرة استفزت جموحه.

Bitterness-S

- ماذا؟ تعتبرنا أقل منهم شأناً؟

- لا أعلم. قد نتبين من ذلك.

- لا يضيرها أن تنظفي بيتها ولكنها لا تريد لابنك أن يخرج مع ابنتها؟ يا لها من طرفة. هل تظنّ نفسها في القرن التاسع عشر؟ يا له من أمر مضحك.

- لا يبدو لي أنك تضحك.

- صدقيني، أنا أضحك بالفعل، إنه لأمر مضحك جداً.

أغلقت لورين الدرج ثم استدارت لتحدق فيه في فضول:

- ولم الكتمان إذاً إن لم يكن للأمر علاقة بدينيس شيريدان؟ أم تُرى لماريان حبيب آخر أو شيئاً من هذا القبيل، وهو ما جعلك تخفي علاقتك بها؟

- إنك تحشرين أنفك في شؤوني بأسئلتك هذه.

- إذاً فهي على علاقة بشخص آخر.

- كلا، بيد أن هذا آخر سؤال أجيب عليه.

تقطب حاجبا لورين ثم لاذت بالصمت. طوى الكيس البلاستيكي الفارغ فوق المنضدة وتسمر عند حركته تلك والكيس في يده ثم قال:

- أنت لن تخبري أحداً بهذا أليس كذلك؟

- يبدو أن الأمر قد بدأ يتخذ طابع الشبهة، وإلا لم لا تريد أن يعلم أحد بالأمر؟

أجاب وهو يحس بقسوة قلب: لأنك لن تستفيدي شيئاً وبالمقابل ستسببين لي الكثير من الإزعاج. فكر لوهلة ثم أردف بدهاء: ولماريان كذلك.

Bitterness-s

- رباه! لا أعتقد أنني أريد معرفة شيء.

استمر في الانتظار بينما يخالجه إحساس بأنها لم تقطع له وعداً واضحاً بأنها ستبقي قصته وماريان طي الكتمان، ثم لوحت بيدها في سخط وقالت: لدي مواضيع أهم لأغتاب فيها؛ مواضيع أهم من حياتك الجنسية، حسناً؟ لا داعي للقلق.

صعد إلى الطابق العلوي ثم جلس على سريره، ولم يعلم كم لبث هناك. كان يفكر في عائلة ماريان ويعالج فكرة أنها كانت تفوقه شأناً؛ كما كان يفكر فيما قالته له الليلة الماضية. كان دائماً يسمع زملاءه في المدرسة يتحدثون بشأن اختلاق الفتيات لبعض القصص من أجل الإحراز على اهتمام الشبان؛ يقصصن أشياء خيالية سيئة حدثت لهن، ولكم كانت قصة ماريان تلك فعالة في جذب انتباهه، قصتها بشأن تعنيف والدها لها عندما كانت طفلة، كما أن والدها كان تحت التراب الآن ولم يكن ليدافع عن نفسه. فكّر كونيل في إمكانية أن تكون ماريان قد كذبت عليه طمعاً في عطفه، بيد أنه كان يعلم جيداً أنها لم تكذب، بل إنها قلّلت من شأن عنائها، ومجرد التفكير في الأمر أثار إحساساً بالغثيان في نفسه.

حدث ذلك بالأمس، أما اليوم فقد ذهب إلى المدرسة باكراً كما العادة فيما أخذ روب وإيريك يطلقان هتافاً مزيفاً وهو يتقدم ليضع كتبه في خزانته. طرح حقيبته على الأرضية متجاهلاً إياهما. تدلت يد إيريك حول كتف كونيل ثم قال: هيا أخبرنا، هل اختليت بها ليلة البارحة؟ تحسس كونيل مفتاح خزانته في جيبه ثم نفض عنه يد إيريك قائلاً: مضحك.

- بلغني أنكما غادرتما في جو حميمي كبير، قال روب.
- هل حصل شيء بينكما؟ اصدقني القول، أردف إيريك.

Bitterness-s

- طبعاً لا، هذا واضح، ردّ كونيل.

- لماذا يكون واضحاً؟ الجميع يعلم أنها معجبة بك، قالت ريتشل.

كانت ريتشل تجلس فوق الأسكفة وساقاها تتدليان متأرجحتين ببطء يميناً ويساراً، في جوربين أسودين وقد تحاشى كونيل مبادلتها النظرات، بينما كانت ليزا تفترش بلاط الأرض قبالة الخزائن منهمكة في إنجاز الفروض المنزلية، أما كارين فلم تكن قد وصلت بعد، ولكم تمنى كونيل لو أنها حضرت.

- أراهن أن توصيلة الأمس لم تكن بريئة، غير أنه ما كان ليخبرنا البتة، قال روب.

- لن ألومك يا صاح فهي تبدو فتاة لا بأس بها عندما تبذل جهداً، أضاف إيريك.

- صحيح، مشكلتها فقط أنها مختلة عقلياً، قالت ريتشل.

تظاهر كونيل بالبحث عن شيء ما داخل خزانته. سقطت قطرة عرق بيضاء رقيقة تحت ياقته ويديه.

- يا لها من التفاتة بذيئة منكم، هل سبق للفتاة أن آذت أحدكم؟ قالت ليزا.

- السؤال هو ما الذي فعلَتْهُ بوالدرون. انظري إليه يختبئ في خزانته. هيا يا صاح ألقِ أوراقك، هل قبّلتها؟ قال إيريك.

- كلا.

- أوه، أنا أشعر بالأسف لأجلها، قالت ليزا.

- وأنا كذلك، أعتقد أنه يتعين عليك تعويضها يا كونيل. لماذا لا تدعوها لحفل الدبس؟ سخر إيريك.

Bitterness-S

انفجروا جميعهم ضحكاً من قول إيريك بينما أقفل كونيل خزانته وسار خارج الغرفة حاملاً حقيبته المدرسية في يده اليمنى. سمعهم ينادونه لكنه لم يستدر. دخل الحمام وأقفل على نفسه باب أحد المراحيض وراح يحملق في الجدران الصفراء ووجهه يتصبب عرقاً. انزوى إلى زاوية في مفكرته حيث يقول لماريان وهما على السرير: أحبك. كان ذلك مريعاً، كان أشبه بمشاهدة نفسه يرتكب جريمة من خلال كاميرا مراقبة. وقريباً ستحضر إلى المدرسة وتضع كتبها في حقيبتها وتبتسم لنفسها، دون أن تعلم شيئاً. **أنت شخص لطيف والجميع يحبونك**. تنفس بعمق وفي ضيقة ثم راح يتقيأ.

توجه يساراً في طريق الخروج من المشفى ليعود إلى الطريق الوطنية رقم 16 الرابطة بين سلايغو وكافان. كانت سيارته تطوي الطريق في الشارع الرئيس وصفوف الأشجار الداكنة تحف الضفتين.

- هل أنت على ما يرام؟ سألته لورين.

- نعم.

- لا تبدو كذلك.

أخذ شهيقاً حتى انسحب حزام الأمان إلى أضلاعه ثم زفر.

- لقد دعوت ريتشل إلى حفل الدبس.

- ماذا؟

- لقد دعوت ريتشل موران إلى حضور حفل الدبس برفقتي.

مرّا بمحاذاة مستودع فضربت لورين بيدها على زجاج النافذة قائلة: أوقف السيارة. نظر إليها كونيل مضطرباً. ماذا؟ قال. فعاودت الضرب بيدها على النافذة بقوة أكبر ونقرت بأظافرها على الزجاج. أوقف السيارة. فضغط مؤشر الاتجاه وتفقد المرآة الخلفية

Bitterness-S

ليوقف السيارة قبالة المستودع حيث كان أحدهم يغسل سيارته بواسطة خرطوم مياه فتنساب المياه منها داكنة.

- هل تحتاجين شيئاً من المحل؟

- ومع من ستذهب ماريان؟

ضغط كونيل مقود السيارة في لامبالاة: لا أعلم. هل جعلتني أوقف السيارة هنا فقط لتفتحي هذا النقاش؟

- إذاً فماريان لن يدعوها أحد على الأرجح، وهكذا لن تحضر الحفل.

- نعم، ربما. وما يدريني.

لدى العودة من تناول الغداء اليوم تخلف عن البقية لعلمه أن ريتشل ستراه وستنتظره، ولما فعلت ما أخبرته فراسته، أغمض عينيه نصف غمضة حتى استحالت الدنيا في عينيه وكأنها عالم ذو لون رمادي فاتح، وقال لها: هل دعاك أحدهم إلى حفل الدبس؟ فردت بالنفي، ليسألها إن كانت ترغب في مرافقته إلى الحفل فوافقت. عليَّ القول إنني كنت أتطلع لشي أكثر رومنسية قليلاً. كان تعليقاً تحاشى كونيل الرد عليه لأنه أحس كما لو أنه هوى من أعلى جرف ووقع صريعاً، وقد كان غبطاً بموته تلك ولم يشأ أن يحيا من جديد.

- هل تعلم ماريان أنك سترافق فتاة أخرى؟ سألته لورين.

- ليس بعد، سأخبرها لاحقاً.

وضعت لورين يدها على فمها حتى لا يتبين كونيل المعاني التي ترسلها تقاسيمها؛ فقد تكون مندهشة، أو قلقة، أو ربما على حافة المرض.

- ألا تعتقد أنه كان عليك دعوتها هي، علماً أنك تستمتع بجسدها يومياً بعد المدرسة؟

Bitterness-s

- هذا أسلوب لغوي منحط.

بدت فتحة أنف لورين تشتعل لهباً وهي تستنشق. وكيف تريد مني أن أصيغها؟ أعتقد أنه كان عليَّ القول إنك تستغلها في تلبية رغباتك الجنسية، أهذا دقيق كفاية؟

- هلا هدأتي من روعك؟ لا أحد يستغل أحداً.

- وكيف نجحت في إسكاتها؟ هل أخبرتها أن شراً سيحل بها إن هي أفشت سركما؟

- رباه! طبعاً لا. لقد كان ذلك موضع اتفاق بيننا. إنك تبالغين كثيراً.

أومأت لورين برأسها ثم تفرست في زجاج السيارة الأمامي فيما انتظرها أن تقول شيئاً في اضطراب.

- ماريان منبوذة في المدرسة، أليس كذلك؟ إذاً فأنت تخشى من كلام الناس هناك إن هم علموا بالأمر.

ركن كونيل إلى الوجوم.

- ماذا عساني أقول، أظن أنك فعلاً وصمة عار. أشعر بالخجل مما فعلت.

مسح جبينه بكم قميصه ثم ناداها: لورين! بينما كانت تفتح الباب الأمامي.

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- سأستقل الحافلة.

- ما الذي تقولينه؟ هلا تصرفت بعقلانية قليلاً؟

- إن بقيتُ في السيارة فحتماً سأقول أشياء قد أندم عليها لاحقاً.

Bitterness-s

- ما الذي تقولينه؟ ولم عساك تهتمين بأمر الفتاة التي أختار الذهاب معها على كل حال؟ هذا أمر لا يخصك.

دفعت الباب ثم ترجلت من السيارة. أنت تتصرفين بغرابة. تجاهلته وأغلقت الباب بقوة، فحكم قبضته على المقود في حنق لكنه لاذ بالصمت. كان من الممكن أن يقول لها: سحقاً، إنها سيارتي، هل سمحتُ لك بلطم الباب بعنف هكذا؟ كانت لورين قد ابتعدت عنه وحقيبتها التي تتدلى من كتفها تتأرجح عند وركها مع سرعة خطواتها. لاحقها بعينيه حتى ابتلعها ركن المستودع. لقد عمل سنتين ونصف في ورشة صيانة سيارات بدوام جزئي بعد المدرسة ليشتري هذه السيارة وكل ما يستعملها لأجله هو توصيل والدته لأنها لا تتوفر على رخصة قيادة. أراد أن يتبعها، أن ينزل زجاج النافذة ويصرخ لها بالعودة إلى السيارة. شعر برغبة في فعل ذلك، بيد أنها كانت ستتجاهله. ظل جالساً في مقعد القيادة، مسنداً رأسه على الكرسي، مصغياً لأنفاسه. في الساحة الأمامية، ينقر غراب في كيس من رقائق البطاطس مرمي على الأرض. تخرج عائلة من المتجر حاملة عبوات من المثلّجات. تخترق رائحة الوقود رأسه، فيشعر بما يشبه الصداع، ثم يدير محرك السيارة.

Bitterness-S

بعد مضي أربعة أشهر
(أغسطس 2011)

كانت ماريان في حديقة منزلها تضع نظارات شمسية وتستمتع بالطقس المشرق الذي يغطي الأجواء تلك الأيام، وقد وبدأ النمش يتسلل إلى ذراعيها، حتى تناهى إلى مسمعها صوت الباب الخلفي يفتح، فتسمرت في موضعها. انبعث صوت آلان من الفناء: تليه آني كيرني بخمسمائة وسبعين نقطة! لم تجب ماريان. تحسست العشب باحثة عن الكريم الواقي من الشمس، وعندما استندت جالسة، رمقت آلان يتحدث على الهاتف.

- أحدهم في فصلك حصل على ستمائة نقطة. هييه، أنتِ! صرخ آلان.

وضعت القليل من الكريم في راحة يدها اليسرى.

- ماريان، لقد قلت لك إن أحدهم حصل على A1 في ست مواد!

أومأت من رأسها وواصلت دهن ذراعها اليمنى بالكريم فاستحالت لامعة. كان آلان يحاول تبين من الذي حصل على ستمائة نقطة والذي كانت ماريان تعلم هويته بالطبع، لكنها فضلت الصمت. دهنت يدها اليسرى ببعض الكريم ثم تمدّدت بهدوء على كرسي

Bitterness-s

استلقاء مواجهة أشعة الشمس، ومن ثم أغمضت عينيها، فمرّت أمواج ضوئية خضراء وحمراء اللون من خلف جفنيها.

لم تكن قد تناولت فطورها بعد، إذ اكتفت بفنجانين من القهوة مع الحليب. كانت شهيتها ضعيفة هذا الصيف؛ فعندما تستيقظ صباحاً، تشغل حاسوبها المحمول وتضعه على الوسادة المقابلة لها ثم تنتظر حتى تتطابق زاوية الرؤية لديها مع بريق الضوء المستطيل المنبعث من الشاشة حتى تتمكن من مطالعة الأخبار. كانت تقرأ مقالات طويلة عن الوضع في سوريا ثم تبحث في الخلفيات الإيديولوجية للصحافيين الذين كتبوا تلك المقالات. كانت تطالع مقالات طويلة حول أزمة الديون السيادية في أوروبا ثم تكبر الشاشة ليتسنى لها رؤية العلامات الصغيرة على الرسوم البيانية. بعد ذلك، عادة ما تعود للنوم أو تستحم، أو ربما تستلقي على سريرها ثم تكرر نفس السيناريو في اليوم الموالي مع بعض المتغيرات البسيطة: قد تفتح ستائر غرفتها وقد لا تفعل؛ قد تتناول الفطور وقد تكتفي بفنجان قهوة تأخذه لغرفتها في الطابق العلوي حتى لا تضطر لرؤية أسرتها، بيد أن الحال هذا الصباح كان مختلفاً طبعاً.

- ماريان، إنه والدرون، كونيل والدرون هو من حصل على ستمائة نقطة، قال آلان.

لم تحرك ماريان ساكنها فواصل آلان مكالمته الهاتفية: لا، لقد حصلت على خمسمائة وتسعين نقطة فقط، أعتقد أنها حانقة الآن فقد حصل أحدهم على معدل أعلى منها. هل أنت حانقة يا ماريان؟ سمعته فلم ترد عليه. تحت عدسات نظراتها الشمسية أحست بمادة دهنية في جفنيها. ثم مر طنين حشرة ما بمحاذاة أذنها.

- هل والدرون بجانبك؟ دعه يحدثني، قال آلان.

Bitterness-S

- لماذا تخاطبه بـ«والدرون» هكذا، أهو صديقك؟ أنت بالكاد تعرفه.

حدق فيها آلان من الهاتف: أعرفه جيداً، لقد قابلته في بيت إيريك ذاك اليوم.

فأحست بندم لأنها تكلمت. كان آلان يسرع الخطوات ذارعاً الفناء غدوة وروحة. كانت تسمع وقع خطواته وهو يتقدم باتجاه العشب، وكان أحدهم يحدثه على الهاتف فأفصح ثغره عن ابتسامة مشرقة يبدو منها التوتر. كيف حالك الآن؟ إنه التنافس الشريف، هنيئاً لك. كان صوت كونيل خفيضاً فلم تتمكن ماريان من سماعه، ولا يزال آلان يبذل جهداً في التبسم. كانت معتادةً على سلوكاته تلك مع الناس؛ دائماً ما يتصرف بتذلل وتملق.

- نعم لقد أبلتْ حسناً، ليس مثلك بالطبع. لقد حصلتْ على خمسمائة وتسعين نقطة. هل تريد أن تكلمها؟

أخذت ماريان تحدق فيه. لقد قال ذلك من باب النكتة، فقد اعتقد أن كونيل سيرفض الحديث إليها، إذ لم يحضره أي سبب قد يجعل الأخير يرغب في الحديث إلى ماريان على الهاتف؛ فاشلة منبوذة، لا سيما في يوم مميز كهذا. لكنه قال نعم. تلاشت ابتسامة آلان ثم قال: نعم، لا مشكلة، ثم ناولها الهاتف فهزت رأسها في الرفض لتتسع حدقتا عينيه، فمد يده اتجاهها: هاك، إنه يرغب في الحديث إليك. هزّت رأسها رافضة من جديد فوضع الهاتف على صدرها بعنف. إنه يكلمك أنت يا ماريان.

- وأنا لا أرغب في الحديث إليه.

تكشرت تقاسيم آلان عن سحنة يملؤها الغضب، وبرز الجزء الأبيض من عينه ثم لطم الهاتف على صدرها مسبباً لها ألماً. هيا،

Bitterness-s

قولي مرحباً. كانت تسمع أزيز صوت كونيل على الهاتف. كانت الشمس تتوهج فوق وجهها. أخذت الهاتف من يده ثم مررت أصبعها على الشاشة وأغلقت خط المكالمة، فوقف آلان متفرساً فيها. خيم السكون لبضع ثوانٍ على الحديقة، ثم توجه إليها بصوتٍ خفيضٍ قائلاً: لماذا فعلت ذلك بحق الجحيم؟

- أنا لم أرغب لي في الحديث إليه، لقد أخبرتك بذلك.

- وهو كان يرغب في الحديث إليك.

- أعلم هذا.

كان الطقس مشرقاً ذلك اليوم حيث برز ظل آلان على العشب في صورة واضحة ودقيقة. كان الهاتف يتدلى من يدها وهي تنتظر أن يأخذه.

في أبريل، أخبرها كونيل بأنه كان قد دعا ريتشل موران إلى حفل الدبس. كانت ماريان لحظتئذ جالسة على طرف السرير في غرفته وكانت تتصرف ببرود وعلى نحو طريف، ما جعله مرتبكاً. أخبرها بأنها لم تكن أمسية «رومنسية» وأن علاقته بريتشل لا تتجاوز عتبة الصداقة.

- تقصد مثل صداقتنا نحن.

- لا، الأمر مختلف.

- لكن هل تنام معها؟

- لا، حتى إني لا وقت لي لذلك.

- وهل ترغب في ذلك؟

- أنا لست متحمساً كثيراً لهذه الأمور، كما أنني لا أعتقد أنني شخص شره، فأنا مكتفٍ بك.

Bitterness-s

راحت ماريان تحدق في أظافرها.

- لقد كانت تلك مزحة.

- أنا لا أفهم ما المضحك فيما قلتَ.

- أعلم أنك مستاءة مني.

- في الواقع أنا لا أهتم، أنا فقط أعتقد أنه إن كنت ترغب في معاشرتها، فعليك إخباري.

- نعم، وسأخبرك إن فكرت يوماً في الإقدام على ذلك. أنت تعتقدين أن المشكلة تكمن هنا وأنا أعتقد خلاف ذلك.

فتميزت ماريان من الغيظ قائلة: وأين تكمن إذاً؟ فاكتفى بالتحديق فيها فيما عادت هي للتأمل في أظافرها متوردة، وهو لم يزل محافظاً على وجومه حتى كسرت جدار ذلك الوجوم المطبق بضحكة، لأنها في نهاية المطاف لم تكن تفتقد للحيوية، وقد وجدت في الأمر طرفة بالتأكيد؛ طرفة تجلت في كيفية إهانته لها بكل ضراوة وكذا عجزه عن الاعتذار أو الاعتراف بأنه أقدم على ذلك فعلاً. غادرت بعد ذلك إلى بيتها حيث استلقت على السرير ونامت لثلاث عشرة ساعة متتالية.

في صباح اليوم الموالي، تركت المدرسة. لم يكن من الممكن العودة، كيفما وقفت تتأمل الأمر. بطبيعة الحال، لم يكن من يدعوها إلى حفل الدبس. كانت قد نظمت حفل جمع التبرعات، وحجزت الصالة غير أنه لن يكون بمقدورها حضور الحفل. كان الجميع سيعلمون بذلك، وقد يسعد بعضهم بغيابها، وحتى أولئك الذين تعاطفوا معها أيما تعاطف، فكل ما سيجودون به هو إحساس بالخجل مما فُعل بها. اختلت بنفسها في غرفتها مسدلة الستائر طوال اليوم تدرس وتنام في أوقات غير مألوفة، وهو مشهد أجج من غضب

Bitterness-s

والدتها. أُغلقت الأبواب بعنف، وأُلقي عشاء ماريان في القمامة في مناسبتين مختلفتين. تمثل عزاؤها في أنها أضحت امرأة راشدة ولم يعد بإمكان أحد إرغامها على ارتداء بدلة مدرسية موحدة والذهاب حيث تكون محط النظرات المتفحصة وموضوعاً حياً للغيبة.

بعد أسبوع من تركها المدرسة، دخلت ماريان المطبخ فوجدت لورين منحنية على البلاط منهمكة في تنظيف الفرن، فاستقامت لما رأتها ومسحت جبينها مستخدمة رسغها العاري أعلى قفازة المطاط.

- مرحباً عزيزتي. بلغني أنك تركت المدرسة خلال الأيام القليلة الماضية، هل أنت على ما يرام؟

- نعم أنا بخير، أنا فقط آثرت المكوث في البيت والتحضير جيداً بدل الذهاب إلى المدرسة.

فأومأت لورين من رأسها قائلة: افعلي ما يناسبك، ثم استأنفت مسح الفرن من الداخل بينما فتحت ماريان باب الثلاجة باحثة عن عصير البرتقال.

- أخبرني ابني بأنك لا تردين على اتصالاته الهاتفية.

تسمرت ماريان في موضعها وخيم السكون على أرجاء المطبخ؛ سكون أحست بصخبه في أذنيها كمثل خرير مياه جارية، ثم ردت: نعم، صحيح، أفترض ذلك.

- أحسنت صنعاً، فهو لا يستحقك.

أحست ماريان بارتياح في داخلها كان من وقع المفاجأة أشبه بإحساس بالهلع. وضعت عصير البرتقال فوق المنضدة وأغلقت باب الثلاجة.

- لورين، هل يمكنك أن تطلبي منه ألّا يأتي إلى هنا مجدداً؟ أعني عندما يأتي لأخذك، هل يمكن أن يظل في الخارج؟

Bitterness-s

- أوه، من ناحيتي أنا، لقد حُرِّم عليه الدخول نهائياً، فلا تقلقي بشأن ذلك، حتى إنني أفكر في طرده من منزلي.

ابتسمت ماريان من قولها، محرجة، وقالت: هو لم يقدم على أمر فظيع على كل حال، فبالقياس إلى الآخرين في المدرسة، كان كونيل لطيفاً معي بصدق.

استندت لورين واقفة عندها ونزعت القفازين من على يديها ثم، دون أن تنبس بكلمة، طوقت ماريان بذراعيها وحضنتها بكل قوتها، فقالت ماريان بصوت غريب ومتشنج: كل شيء على ما يرام، أنا بخير، لا تقلقي بشأني.

لقد كانت صادقة بشأن ما قالته عن كونيل، فهو لم يقدم على أمر فظيع ولم يسع قط لإيهامها بأنها كانت مقبولة في محيطها الاجتماعي؛ بل هي من أوهمت نفسها بذلك. ذنبه فقط أنه استعملها في ما يشبه تجربة شخصية، وربما شكّل تقبلها ورغبتها في الخضوع لهذا الاستعمال صدمة بالنسبة له. وفي نهاية المطاف، أشفق عليها ونفر منها، كما أنها كانت تأسف لحاله بشكل من الأشكال لأنه كان مضطراً للتعايش مع فكرة أنه قد مارس معها الجنس بكل طواعية وأنه أحب ذلك، وينفض هذا الأمر معان بخصوصه هو -فالمفترض أنه الشاب العادي والرياضي- أكثر من تلك التي تتعلق بها هي. لم ترجع أبداً إلى المدرسة بعدها إلا لاجتياز الامتحانات، إذ راح الناس يغتابونها بأنها قد دخلت مستشفى الأمراض العقلية، بيد أنها لم تعد تأبه بأي من ذلك.

- هل أغضبك أنه حصل على مجموع أعلى منك؟ سأل آلان.

ضحكت ماريان مما قاله. ولِمَ عساها لا تضحك؟ فحياتها هنا

Bitterness-s

في كاريكلي قد انتهت، وأمامها إما أن تبدأ حياة جديدة وإما لا. وقريباً ستحزم أحمالها داخل حقائبها: سترات صوفية، وتنانير، وفستانيها الحريريين، ومجموعة من فناجين الشاي والأطباق تزينها الورود، ومجفف للشعر، ومقلاة، وأربع مناشف قطنية بيضاء، وإبريق قهوة؛ إنها مستلزمات العيش في التجربة الجديدة.

- كلا، ردت ماريان.

- ولم رفضت محادثته إذاً؟

- اسأله، فأنت تقول إنك صديق مقرب منه، اسأله فهو يعلم.

أحكم آلان شد قبضة يده. لم يكن للأمر معنى الآن فقد انتهى كل شيء. ذهبت ماريان مؤخراً للتسكع في شوارع كاريكلي وبدأت تتأمل في جمال الطقس المشمس والغيوم البيضاء التي تشبه غبار الطباشير الذي يحوم بالمكتبات، والشوارع الطويلة المزينة بصفوف من الأشجار تحف ضفتيها. السيارات تتوقف عند الإشارة الضوئية بنوافذ مفتوحة وصوت الموسيقى يصدح من مكبرات الصوت. كانت ماريان تتساءل كيف يكون شعور الانتماء إلى هذا المكان؛ أن تتجول في شوارع المدينة الصغيرة وتبادل المارة التحايا والابتسامات؛ أن تحس بأن الحياة كانت تحاك تفاصيلها في هذا المكان، وليس في مكان آخر.

- ما الذي يعنيه هذا؟ سأل آلان.

- اسأل كونيل والدرون لماذا لم نعد نكلم بعضنا. كلمه الآن إن أردت ذلك. لكم أود أن أسمع ما الذي سيقوله حيال الأمر.

عض آلان على مفصل سبابته ويده ترتعد. في غضون بضعة أسابيع، ستبدأ ماريان حياة أخرى مع أناس آخرين؛ حياة ستكون مختلفة، غير أنها هي نفسها لن تكون مختلفة، ستكون الفتاة نفسها؛

Bitterness-s

فتاة مغلولة داخل جسدها، لا تحظى بمكان يحرّرها مما هي عليه. مكان مختلف؛ فيه أناس مختلفون، فيم يهم ذلك؟

حرّر آلان بنانه من بين فكيه قائلاً:

- كما لو أنه يأبه بالأمر، حتى إنني متفاجئ أنه يعرف اسمك.

- في الواقع لقد كنا مقربين. يمكنك التبين من هذا أيضاً إن أردت ذلك، لكنك قد يسؤك ما يبدى لك.

وقبل أن يرد آلان سمعا صوتاً ينادي من داخل البيت وصوت أزيز باب يُغلق. كانت الجلبة مصدرها والدتهما التي وصلت إلى المنزل، فنظر آلان اتجاهها وقد تغيرت تعابير وجهه، أما ماريان فأحست بوجهها يتحرك لاإرادياً. وجه نظراته يتفرسها: يجب ألا تفتري على الناس الكذب، قال آلان، فأومأت برأسها دون أن تنبس ببنت شفة، فتابع: لا تخبري ماما بهذا، فحركت رأسها موافقة. ولكن لا يهم إن أخبرتها على كل حال، فدينيس كانت قد قررت منذ وقت طويل أن تعنيف الرجال لماريان من باب التعبير عن أنفسهم أمر مقبول. وقد كانت ماريان تقاوم ذلك في طفولتها، أما الآن فهي تكتفي بالانعزال كما لو أن الأمر لا يعنيها في شيء، وهو فعلاً لا يعنيها على نحو ما. وتعتبر دينس ذلك أحد أعراض شخصية ابنتها الباردة وغير المحبوبة، فهي ترى أن ماريان تفتقد «الدفء»، ما كان يعني في قاموسها القدرة على شحذ الحب من أولئك الذين يكرهونها شحذاً. عاد آلان أدراجه وأغلق باب الفناء الذي تناهى أزيزه إلى مسامع ماريان.

Bitterness-S

بعد مضي ثلاثة أشهر
(نوفمبر 2011)

لم يكن كونيل يعرف إنسياً في الحفل، والشخص الذي دعاه لم يكن نفسه الذي فتح له الباب. هزّ الأخير كتفيه في لامبالاة ثم دعاه إلى الدخول. لم يكن قد لمح الشاب الذي دعاه بعد؛ شاب يدعى غاريث، وهو زميله في الندوات التي تنظم تحت عنوان «النظرية النقدية». كان كونيل يعلم أن حضور حفل وحيداً فكرة سيئة، بيد أن جادلت لورين أنه لن يتعرف على أحد هناك إذا لم يخرج ويختلط بالناس، وها هو ذا يقف وحيداً في غرفة مليئة بخلق الله لا يعلم إن كان عليه نزع سترته أم لا. إنه إحساس مشين أن يتسمر وسط تلك الحلقة وحيداً متفرداً. كان يحس أن الجميع مستاءً من وجوده هناك ويحاول عدم التحديق به.

أخيراً، ولما كان قد قرر الرحيل، ظهر غاريث. وأجج ارتياح كونيل الكبير، لدى رؤيته غاريث، من الشعور باحتقار الذات لديه، إذ إنه لا يعرف غاريث هذا جيداً ولا يحبه كثيراً. مدّ غاريث يده فوجد كونيل نفسه يصافحه في شعور بالقنط والغرابة. لقد كانت تلك لحظة بائسة في حياته الراشدة. كان كونيل متأكداً من أن المصافحة بينهما جرت في مشهد تابعه الجميع. بادره غاريث بالتحية: سعيد برؤيتك يا

Bitterness-s

صاح، سعيد برؤيتك. لقد أعجبتني حقيبتك، إنها من طراز التسعينات. كان كونيل يحمل حقيبة في اللون الأزرق الغامق عادية جداً وخالية من أية مزايا قد تميزها عن باقي حقائب الظهر بالحفل.

- آه، نعم. شكراً لك.

كان غاريث أحد الطلاب الشعبيين الذين ينخرطون كثيراً في الأنشطة الاجتماعية داخل الجامعة. وقد درس في أحد أكبر المدارس الخاصة في العاصمة دبلن ودائماً ما يلقي عليه الطلاب التحية داخل الحرم الجامعي؛ مرحباً غاريث! غاريث مرحباً! كانوا يلقون عليه التحية في كل أرجاء الجامعة بدءاً من الساحة الأمامية فقط ليلقي عليهم التحية بالمقابل. كانت تجربة عاش كونيل نظيرها. كان يخيل إليه يقول له من باب الدعابة: كنت محبوباً في المدرسة أنا أيضاً فقد كنت لاعباً في فريق كرة قدم مدرستنا، وما كان أحد ليضحك من تلك الدعابة.

سأله غاريث: هل أتيك بشراب؟

كان يحمل ست علب من نبيذ التفاح في حقيبته غير أنه أحجم عن فتحها مخافة أن يلفت الأنظار إلى الحقيبة فلربما يرغب غاريث في إضافة ملاحظة ما بشأنها. نخبك، قال كونيل. تفقد غاريث الطاولة الموجودة في ركن الغرفة ثم عاد حاملاً زجاجة من الكورونا قائلاً: أهذا جيد؟ فحملق فيه كونيل لوهلة يفكر في ما إذا كان السؤال ضرباً من التهكم أم خنوعاً حقيقياً. فرد كونيل متردداً: نعم، هذا كافٍ، أشكرك. كان الطلبة في الجامعة هكذا؛ تارة يتصرفون بغرور غير محمود، ثم يحطون من قدر أنفسهم للتباهي بخصالهم الحميدة تارة أخرى. أخذ رشفة من الجعة بينما حدق به غاريث الذي علّق دون أثر يذكر من التهكم أو السخرية قائلاً: استمتع.

Bitterness-s

هكذا كان يقضي حياته في دبلن. يتحدث كل زملائه لكنات متقاربة ويتأبطون حواسيب ماكبوك متقاربة الأحجام، وخلال حلقات النقاش يدلون بآرائهم بكل شغف وينخرطون في مناظرات ارتجالية. كان كونيل في البداية، من عجزه عن تكوين مواقف واضحة هكذا أو الإدلاء بها في الحلقات بكل ثقة، يحس بالدونية المقيتة وسط زملائه الطلبة، كما لو أنه رقى نفسه صدفة لمستوى فكري يفوق قدراته، حيث جهد لتكوين فرضيات بسيطة، وقد بدأ يتساءل رويداً رويداً عن السبب الذي يجعل نقاشات زملائه كلها مجردة وتفتقر إلى التفاصيل النصية، ليكتشف في النهاية أنهم لا يقرؤون الكتب. كانوا يحضرون يومياً إلى الجامعة ويتجمعون في حلقات نقاش ويديرون مناظرات حامية حول كتب لم يقرؤوها. فهم آنذاك أن زملاءه ليسوا مثله، فقد كانوا يجدون يسراً في تكوين مواقف والإدلاء بها بكل ثقة، فلا يأبهون إن بدوا جُهلاء أو متعجرفين. لم يكونوا أغبياء لكنهم بالمقابل لم يكونوا أذكى منه، كل ما في الأمر أنهم كانوا يعيشون في هذا العالم بأسلوبهم الخاص، ولعله لن يفهمهم أبداً، وهو يعلم أنهم لن يفهموه أيضاً ولن يحاولوا ذلك حتى.

في أي حال، كان عدد الحصص في الجدول الزمني الأسبوعي لديه محدوداً، فكان يملأ الباقي بالمطالعة؛ كان دائماً يتأخر حتى المساء في المكتبة يطالع النصوص والروايات وأعمال النقد الأدبي التي يفرضها الأساتذة من باب الواجبات المنزلية. لم يكن لديه أصدقاء ليشاركهم مائدة الطعام، فكان يطالع وقت الغداء أيضاً، وخلال عطل نهاية الأسبوع، عندما يكون هناك مباريات كرة القدم، كان يكتفي بتصفح أخبار الفريق ثم ينزوي إلى المطالعة من جديد بدل مشاهدة المباراة. وفي عشية أحد الأيام، كانت المكتبة قد

Bitterness-S

بدأت تغلق أبوابها عندما كان يقرأ رواية **إيما** في الجزء حيث بدا أن السيد نايتلي سيتزوج من هاريت، فكان عليه أن يطوي الكتاب ويغادر إلى بيته في حال غريبة من الغيظ العاطفي. كان مندهشاً من قدرته على دس نفسه داخل دراما الروايات التي يقرؤها. إن الأمر أشبه بعدم جدية فكرية أن يشغل باله بشخصيات خيالية تتزوج فيما بينها، لكن ها هو ذا يجري بما تشتهي رياح الأدب. يسمي أحد أساتذته هذه الظاهرة «لذة التأثر بالفن المتميز». كلمات كهذه جعلت الأمر يبدو ذا طابع جنسي تقريباً. وبشكل ما، لم يكن الإحساس الذي خالج كونيل عندما قبّل السيد نايتلي يد إيما يخلو من إيماءة جنسية، رغم أن علاقة ذلك بالجنس ليست علاقة مباشرة، ما خطر لكونيل بفكرة أن النمط من التخيل الذي يستعمله عندما يقرأ الكتب هو نفسه الذي لا غنى عنه من أجل فهم الناس من حوله والتقرب منهم.

- أنت غريب عن دبلن، أليس كذلك؟ سأل غاريث.

- بلى، أنا من سلايغو.

- آه حقاً؟ خليلتي من سلايغو أيضاً.

لم يكن كونيل متأكداً كيف كان غاريث يتوقعه أن يرد على هذا.

- أوه، حسنٌ، رد كونيل بوهن.

تعود الناس في دبلن على ذكر غرب أيرلندا بتلك النبرة الصوتية الغريبة، كما لو كانت تلك الرقعة بلداً أجنبياً، إلّا أنهم يعتقدون أنهم يعرفون الكثير عنها. في نادي ووركمانز الليلة الماضية، كان كونيل قد أخبر فتاة هناك بأنه ينحدر من سلايغو فشكلت تعبيراً ساخراً من تقاسيم وجهها وقالت: أنت تبدو كذلك بالفعل. رويداً رويداً، كان كونيل يبدو كأنه ينجذب للمتغطرسات من الفتيات. في بعض

Bitterness-S

الأحيان خلال الخرجات الليلية، كان شريكه في السكن نيال يشير لإحداهن وسط تجمهر فتيات يبتسمن ويلبسن فساتين ضيقة ويزيِّنّ شفاههن بعناية ثم يقول: أراهن أنك تراها جذابة، وعادة ما كان يشير لفتاة صغيرة النهدين تنتعل حذاء بشعاً وتدخّن سيجارة بازدراء، ثم يكون عليه الاعتراف أنه يجدها جذابة فعلاً وقد يحاول محادثتها لاحقاً، ثم يرجع إلى بيته يكبله شعور بالاستياء أكثر من ذي قبل.

جال بناظريه أرجاء الغرفة في حرج ثم قال: إذاً فأنت تعيش هنا؟

- أجل، لا بأس بها بالنسبة لسكن جامعي، أليس كذلك؟

- بلى، في الواقع هي جميلة.

- وأنت، أين تقطن؟

أخبره كونيل بأنه يسكن في شقة قرب الجامعة، بالقرب من ميدان برونزويك. إنه يكتري، بمعية نيال، غرفة واحدة بسريرين فرديين يملأ كل منهما إحدى زوايا الغرفة بمحاذاة الجدار، كما يتشاركان المطبخ مع طالبين برتغاليين لا يحضران إلا لماماً، ويعانيان من مشكلة الرطوبة في الشقة حيث يبرد الطقس داخلها في الليل، حتى إن كونيل يرى ضباب زفيره في الظلام. لكن على الأقل نيال شخص مهذب؛ شاب ينحدر من بيلفاست ويشاطر كونيل فكرة أن الناس في كلية الثالوث غريبو الأطوار وقد كان ذلك أمراً يبعث على الطمأنينة في نفسه. كان يعرف بعض أصدقاء نيال إلى حد ما، كما أنه كان قد تعرف على معظم زملائه في الجامعة، بيد أنه لم يكن ليدخل وإياهم في نقاشات معمقة.

عندما كان في مدينته، لم يشكل خجل كونيل عائقاً في حياته

Bitterness-s

الاجتماعية لأنه كان معروفاً لدى الجميع ولم يحتَجْ مرة لتقديم نفسه أو لخلق انطباع بشأن شخصيته. كانت قمرة شخصيته تبدو وكأنها تدار بآراء الناس فيه، لا بما يفعله أو ينتجه هو نفسه. أما الآن فتعتمره روح الخفاء والعدم دون أي سمعة توصي به للغير. ورغم أن شكله لم يتغير كثيراً، كان يشعر أنه ذو مظهر أقل وسامة مما كان عليه، فقد بات يحس بالحرج من ملابسه. كان زملاؤه في الكلية يرتدون سترات مشمعة وسراويل أرجوانية متشابهة. لم تكن لديه مشكلة مع الأشخاص الذين يرتدون تلك الملابس، بل كان ليحس بالتفاهة لو أنه لبس من مثلها، غير أن هذا يحمله على الاعتراف بأن ملابسه رخيصة وخارج صيحات الموضة، فقد كان حذاؤه الوحيد من ماركة أديداس قديماً، ناهيك عن أنه كان ينتعله حيثما حل، حتى في النادي الرياضي.

لم يتوقف عن زيارة بيته في سلايغو إذ كان يعمل في ورشة صيانة السيارات بعد زوال السبت وصباح الأحد. كان معظم زملائه في المدرسة قد غادروا المدينة إما للدراسة في الجامعة وإما للعمل. فذهبت كارين للعيش مع شقيقتها في كاسلبار ولم يرها كونيل منذ امتحانات نهاية المرحلة الثانوية، ورحل روب وإيريك لدراسة إدارة الأعمال في غالواي ولا يبدو أنهما يزوران المدينة قط. في بعض المرات التي يأتي فيها إلى المدينة خلال عطل نهاية الأسبوع، لا يجد أحداً، فيجلس مساء في البيت يشاهد التلفاز مع والدته. كيف تشعرين وأنت تعيشين وحيدة؟ سأل كونيل والدته الأسبوع الماضي، فابتسمت وقالت: إنه أمر رائع حقاً، فلا أحد يترك المناشف فوق الأريكة، ولا صحون متسخة في حوض المطبخ. إنه أمر جميل حقاً. حرك رأسه دون أن يتفاعل مع دعابة والدته. مسكت يده

مداعبة إياه قائلة: ماذا تريد مني أن أقول؟ إنني أبكي كل ليلة قبل أن أنام؟ فقلّب عينيه ثم همهم: بالطبع لا. أخبرته أنها سعيدة لأنه انتقل للعيش وحيداً لأنها ترى في ذلك صلاحاً له. وما الصلاح في العيش وحيداً؟ سأل. لقد عشتِ في هذا البيت طول حياتكِ وها أنت بحال جيدة. فحدقت به قائلة: وأنت تريد أن تدفنني هنا، أليس كذلك؟ رباه! أنا في الخامسة والثلاثين من عمري فقط. حاول أن يداري ابتسامته لكنه ألفى الأمر طريفاً. شكراً لكَ، بوسعي الانتقال للعيش في مكان آخر بدءاً من الغد، على الأقل سأضمن عدم رؤية وجهك البائس عند نهاية كل أسبوع، أضافت لورين، فضحك هذه المرة إذ لم يستطع المقاومة.

لم يسمع كونيل ما الذي قاله غاريث في تلك اللحظة، حيث كانت أغنية **واتش ذا ثرون** تصدح صاخبة من مكبري صوت صغيرين فمال ناحيته قائلاً: ماذا؟

- خليلتي، أريدك أن تتعرف إليها، هيا سأقدمك إليها.

ارتاح كونيل لانقطاع المحادثة فتبع غاريث خارج الباب الرئيس نحو السلم الأمامي. كان المبنى مواجهاً لملاعب التنس التي كانت تغلق خلال الليل، حيث ترخي عليها البرودة بشكل مخيف ويلفها الفراغ فتغدو كالقفار في لونها الأحمر تحت أضواء الشارع. في أسفل الدرج كان بعضهم يدخّنون السجائر ويتجاذبون أطراف الحديث.

- مرحباً ماريان، قال غاريث.

قطعت جملتها ثم نظرت من وراء دخان سيجارتها. كانت ترتدي سترة قصيرة فوق فستان، وشعرها محزوم على شكل ذيل الحصان، وكانت يدها التي تمسك بالسيجارة تبدو طويلة وأثيرية تحت الأضواء.

Bitterness-s

- أوه، أجل، مرحباً، قال كونيل.

من فورها وبشكل لا يصدق، أفصح ثغر ماريان عن ابتسامة عريضة مبرزة أسنانها الأمامية المعوجة. كانت تضع أحمر الشفاه وتتكلم تحت أنظار الجميع فسكتت لتتفرسه قائلة:

- رباه! كونيل والدرون! من تحت الثرى!

راح يسعل، محاولاً الظهور في حال عادية، ثم قال: منذ متى وأنت تدخنين؟

وجهت دفة الحديث إلى غاريث وأصدقائها قائلة: لقد كنا زميلين في الصف خلال المرحلة الثانوية. ثم عادت لتركز نظرها على كونيل من جديد، فقالت والفرح يغمرها: إذاً، كيف حالك؟ هز كتفيه ثم غمغم: نعم، حسناً، جيد. راحت تتفرسه كما لو أن في عينيها رسالة من أجله. هل تريد شراباً؟ سألته ماريان فرفع الزجاجة التي قدمها له غاريث. رافقني إلى الداخل، سآتيك بكأس، ثم صعدت الدرج والتفتت قائلة: سأعود خلال ثوانٍ. خمن من خلال تلك الملاحظة التي ألقت بها إليه ومن خلال طريقة وقوفها على الدرج بأن جميع الحاضرين في الحفل أصدقاؤها؛ كان لديها الكثير من الأصدقاء، وكانت سعيدة أيضاً. انغلق الباب الأمامي خلفهما فألفيا نفسيهما لوحدهما داخل الردهة.

تبعها إلى المطبخ الذي كان فارغاً ونظيفاً، مطبخ ذو أسطح متناسقة سماوية اللون وأجهزة منزلية منتظمة، ونافذة موصدة تعكس الأضواء الداخلية الزرقاء والبيضاء. لم يكن في حاجة لكأس لكنها تناولت واحداً من الخزانة الصغيرة فلم يعترض. سألته وهي تخلع سترتها: كيف تعرفت إلى غاريث؟ فأجاب أنهما زملاء في الكلية.

Bitterness-S

علقت السترة على كرسي وظلت في فستان طويل رمادي اللون بدا فيه جسدها ضيقاً ورقيقاً، ثم علقت قائلة:

- يبدو أن الجميع يعرفونه هنا فهو يتمتع بشخصية منفتحة.

- أجل، إنه من مشاهير الجامعة.

أضحكها ما قال وقد بدا أن العلاقة طبيعية بينهما كما لو أنهما يعيشان الآن في عالم مغاير؛ عالم لم يشهد على ما حدث بينهما في السابق، وفجأة يتبادلان الأدوار حيث لدى ماريان خليل جذاب بينما يصارع كونيل الوحدة والعيش في الظل.

- لن يمانع بذلك.

- يبدو أنه منخرط في العديد من اللجان.

تبسمت من قوله وراحت تحدق فيه. يزين شفتيها أحمر داكن بلون النبيذ وتزين عينيها مساحيق لامعة.

- اشتقت إليك، قالت ماريان.

جعلت هذه الجملة، التي جاءت على نحو مباشر وسريع وغير متوقع، وجهه يحمر خجلاً فطفق يسكب الجعة في كأسه محاولاً تشتيت انتباهها.

- نعم، وأنا اشتقت إليك، وقد ساورني القلق بشأنك عندما تغيبت عن المدرسة؛ في الواقع لقد ضارني ذلك بحق.

- مع أننا لم نعتد على التسكع معاً في أوقات المدرسة.

- لا، نعم، بالتأكيد.

- وكيف أنت وريتشل في علاقتكما؟ هل ما زالت قائمة؟

- كلا، لقد انفصلنا في الصيف.

فردت ماريان في صوت حمل من الزيف ما حمل أنْ بدا صادقاً بحق: أوه، أنا آسفة بشأن ذلك.

Bitterness-s

لما تركت ماريان المدرسة خلال شهر أبريل، دخل كونيل في حال من المعنويات المنخفضة، ما أثار قلق أساتذته حيال الأمر حتى إن مستشارة التوجيه أخبرت لورين بأنها «متخوفة» بشأن حال ابنها، فيما ألفى الناس في المدرسة في هذا خامة جيدة للغيبة أيضاً، على ما يظن. لم يكن يقوى على التصرف باعتيادية. كان يجلس في المكان نفسه يأكل لقمات تنزل في بطنه بطعم الحنظل، دون الإنصات لأصدقائه الذين يتحدثون إليه، حتى إنه لم يكن يسمعهم بينما ينادون اسمه في بعض الأحيان فيضطرون لرميه بشيء ما أو نكزه في رأسه لبعثه في الدنيا من جديد، فلا شك أن الجميع علم أن خطباً ما قد مسه. كان يشعر بخزي منهك حيال طبيعة الشخصية التي أصبح عليها، وكان يفتقد الأحاسيس التي ألقت بها ماريان في جوارحه كما كان يفتقد رفقتها ومصاحبتها. كان يهاتفها دائماً ولا يفتأ يبعث لها برسائل نصية يومياً دون أن يلقى أية إجابة منها، ناهيك عن أن والدته أخبرته بأن منزلها بات محرماً عليه رغم أنه ما كان يعتقد أن سيحاول زيارتها في منزلها على كل حال.

حاول لفترة تجاوز تلك المحنة من خلال الجنوح إلى الشرب والدخول في علاقات جنسية مضطربة ومزعجة مع فتيات أخريات. وقد أقدم في شهر مايو على هامش حفل منزلي على ممارسة الجنس مع شينيد، أخت باري كيني، التي كانت تبلغ ثلاثة وعشرين عاماً وحاملة شهادة في علم أمراض النطق واللغة. ساوره بعدها إحساس بالخزي حتى إنه تقيأ وأخبر شينيد أنه كان تحت تأثير الثمالة رغم أنه لم يكن كذلك حقاً. لم يجد لمن يشكي مصابه ذاك، فقد كانت وحدته أليمة. لقد راودته أحلام متكررة رأى فيها أنه يجتمع بماريان من جديد، يضمها إليه بسلام مثلما اعتادا عندما يكونان متعبين،

Bitterness-5

ويتكلمان بصوت خفيض، ثم تنتشله براثن الذاكرة من جديد وتلقي به في أتون الواقع فيتذكر ما حدث فيستفيق على إحساس بالإحباط، عاجزاً عن تحريك عضلة من عضلات جسمه.

عاد في إحدى ليالي يونيو إلى البيت ثملاً يسأل لورين إن كانت تلتقي بماريان في العمل.

- أحياناً، ردّت لورين. لماذا؟

- وهل هي على ما يرام؟

- لقد سبق وأخبرتك أنها مستاءة.

- إنها لا ترد على رسائلي، وحتى عندما أتصل، لكأنما يخبرها حدسها أنني المتصل فلا ترد.

- هذا لأنك جرحت مشاعرها.

- نعم، لكن هذا ضرب من المبالغة، ألا ترين أنها تبالغ؟

هزت لورين كتفيها ثم عادت لتنظر إلى شاشة التلفاز.

- هل تعتقدين ذلك؟ كرر كونيل سؤاله.

- ذلك ماذا؟

- هل تعتقدين أن ما تفعله ماريان ضرب من المبالغة؟

لم تبرح عينا لورين شاشة التلفاز، أما هو فقد أخذه السكر إذ لم يتذكر ما الذي كانت تشاهده. قالت بهدوء: أنت تعلم أن ماريان فتاة مرهفة المشاعر، ولقد أذيتها أيما أذى بما جئت من سوء صنيعك، لهذا فمن المحمود أنك تشعر بالذنب حيال ما فعلت بها.

- أنا لم أقل إنني أشعر بالذنب.

بدأ يواعد ريتشل خلال شهر يوليو، فقد كان الجميع في المدرسة يعلم أنها معجبة به وقد كانت تحسب التواصل بينهما إنجازاً

Bitterness-s

في حياتها. أما العلاقة بينهما، فكانت أغلب تفاصيلها تنسج قبل الأمسيات التي يخرجان فيها بحيث كانت تتجمل وتتذمر بشأن أصدقائها فيما ينزوي كونيل لمعاقرة علب الشراب. كان أحياناً يتصفح هاتفه بينما تتحدث إليه فتتأفف من ذلك قائلة: أنت لا تنصت إليّ حتى. كان يكره الطريقة التي يتصرف بها معها، لأنها كانت محقة فهو لا ينصت إليها، وعندما يفعل، لا يعجبه ما تقول. مارس الجنس معها مرتين فقط لم يستمتع خلالهما قط، وعندما يستلقيان معاً على السرير، يحس بألم شديد في صدره وحلقه فيجد صعوبة في التنفس. لقد كان يحسب أن الدخول في علاقة مع ريتشل سيخفف من وحدته، بيد أن علاقته بها لم تزد إلا من حدة وحدته التي غُرِست عميقاً بداخله ولم يستطع التخلص منها.

حل يوم حفل الدبس أخيراً، فلبست ريتشل فستاناً باهظ الثمن ووقف كونيل في حديقتهم الأمامية بينما التقطت والدتها صوراً لهما. كانت ريتشل تذكر أمر التحاق كونيل بكلية الثالوث باستمرار، وأخبره والدها بشأن بعض نوادي الغولف هناك في دبلن، ثم توجهوا بعد ذلك إلى الفندق وتناولوا العشاء. وقع الجميع تحت تأثير السكر وغادرت ليزا قبل تناول الحلوى. وتحت الطاولة كان روب يطلع إيريك وكونيل على صور ليزا وهي عارية على شاشة هاتفه، فضحك إيريك وأخذ يكبّر بعض أجزاء الصورة. أما كونيل، فنظر إلى الهاتف وقال لروب بهدوء: عرض صور كهذه على أنظار الناس أمر مخزٍ، ألا تعتقد ذلك؟ تنهد روب بصوتٍ عالٍ ثم أغلق هاتفه ودسه في جيبه قائلاً: لقد صرتَ شاذاً بخصوص هذه الأشياء مؤخراً.

وفي منتصف الليل، كان كونيل في حالة سكر قذرة لكنه شعر بالاشمئزاز من سكر كل من حوله. سار خارج القاعة متجهاً عبر

Bitterness-S

الرواق إلى الحديقة، ثم أشعل سيجارة وأخذ في تمزيق بعض الأوراق المنخفضة المتدلية من شجرة قريبة عندما انفتح الباب ولفظ إريك الذي انضم إليه مبتسماً عند رؤيته، ثم جلس على إناء زهور مقلوب وأشعل سيجارة هو الآخر.

- من المؤسف أن ماريان لم تحضر، قال إيريك.

أومأ كونيل برأسه رغم أنه كره أن يسمع اسم ماريان، فلم يرد.

سأل إيريك: ما الذي كان يحدث هناك؟

حملق فيه كونيل في سكون. كان وميض ضوء أبيض يشع من مصباح كهربائي منتصب فوق الباب، مضيئاً وجه إيريك الذي بدا شاحباً مثل شبح.

- ماذا تعني؟

- أقصد بينك وبينها.

قال كونيل بصوت بالكاد ميزه: أنا لا أعلم عم تتحدث.

تبسم إيريك فبرزت أسنانه لامعة مبللة في الضوء.

- أتعتقد أننا لم نكن نعلم أنك تعاشرها؟ الجميع يعلم بشأنكما.

صمت كونيل وسحب نفساً آخر من سيجارته، فقد كان ما سمع من إيريك أكثر الكلمات فظاعة، ليس لأنها أنهت حياته، بل لأنها لم تفعل. فقد علم لحظتها أن السر الذي ضحّى في سبيله بسعادته وسعادة شخصٍ آخر كان سراً تافهاً وعديم القيمة. كان بإمكانه أن يتسكع وماريان في أروقة المدرسة يداً في يد، وماذا كانت لتكون النتيجة؟ لا شيء طبعاً. ما كان أحد ليهتم.

- فليكن، قال كونيل.

Bitterness-s

- وكم دام ذلك؟
- لا أعلم. مدة لا بأس بها.
- وكيف كانت القصة؟ هل كنت معها في علاقة من باب التسلية؟
- أنت تعرفني.

أطفأ سيجارته ثم عاد إلى الداخل ليأخذ سترته، وغادر من غير إلقاء التحية على أحد، بمن فيهم ريتشل، وانفصل عنها بعد وقت وجيز، وهكذا انتهى الأمر ورحل الناس ورحل هو أيضاً. لقد انتهت حياتهم في كاريكلي - حياة عملوا على إضفاء الدراما والجسامة عليها - انتهت مبتورة من خاتمتها، ولن تعود إلى سيرتها الأولى أبداً.

قال كونيل لماريان: نعم، في الواقع أنا وريتشل لم نكن متوافقين.

أطلقت ابتسامة خفيفة وخجولة ثم همهمت.

- ماذا؟
- كان بإمكاني إخبارَكَ بهذا من قبل.
- نعم، كان عليكِ ذلك، مع أنك لم تردّي على رسائلي آنذاك.
- في الحقيقة شعرتُ بأنني مهجورة.
- وأنا شعرت بأنني مهجور أيضاً، لقد اختفيت تماماً ولم أرتبط بريتشل إلا بعد مدة على اختفائك. ربما لا يهم الأمر الآن، لكنه كان كذلك عندها.

تنهدت ماريان ثم حركت رأسها يميناً ويساراً في تناقض وقالت:

Bitterness-S

- لم يكن هذا سبب تركي المدرسة.
- نعم، أفترض أنك كنت أفضل حالاً بعدما تركتها.
- لنقل إنها كانت القشة التي قسمت ظهر البعير.
- نعم، تراني أتساءل إن كان الأمر كذلك.

أفرجت عن ابتسامة مائلة كما لو أنها تتغنج وقالت: هكذا إذاً؟ أتراك تورد الخواطر؟

- كنت أعتقد أنني أستطيع قراءة أفكارك حينها.
- أتقصد في السرير؟

أخذ رشفة من كوب الجعة الباردة رغم أن الكأس كانت بدرجة حرارة الغرفة. قبل هذه الليلة، لم يكن لكونيل أدنى فكرة عن كيفية تصرف ماريان في حال قابلها في الكلية، لكن الأمر يبدو الآن حتمياً. بالتأكيد ستتصرّف على هذا النحو. بالتأكيد ستحكي عن حياتهما الجنسية بشكل ساخر كما لو كانت نكتة طريفة حدثت بينهما وليست أمراً محرجاً. كما أنه أَحبَّ ذلك، وأَحبَّ أن يعرف كيف يتصرف في حضرتها.

رد كونيل: هذا صحيح. وبعد ذلك. لكن ربما الأمر طبيعي.

- قطعاً.

ابتسما ابتسامة مرحة مكظومة شيئاً ما.

- تبدين جميلة بحق.
- أعلم ذلك. هذه شخصيتي تماماً، أُصبح جميلة حينما ألتحق بالجامعة.

طفق يضحك مما قالت. لم يكن يشاء الضحك بيد أن غرابة ما كان يدور بينهما حمله على ذلك. لقد كانت عبارة «هذه شخصيتي

Bitterness-s

تماماً» صنعاً تنفرد به ماريان، كان ضرباً من السخرية من الذات ومؤشراً على نوع من التفاهم المتبادل بينهما، تفاهم على أنها فتاة مميزة. كان فستانها عارياً من الأمام بحيث يبرز عظما الترقوة من صدرها شاحبين، يبدوان مثل شرطتي واصلة متقابلتين.

- لطالما كنت جميلة يا ماريان. كشخص سطحي، أعترف لك بذلك، أنت فتاة رائعة وجميلة.

لم تضحك في تلك اللحظة، بل اكتفت بتعبير طريف من وجهها ثم أماطت خصلات شعرها عن جبينها إلى الوراء.

- أوه، في الواقع لم أسمع من مثل هذا منذ مدة.

- ألا يتغزل غاريث بجمالك؟ أم تراه مشغول كثيراً بمسرح الهواة أو شيئاً من هذا القبيل؟

- بل حلقات المناظرة، وإنك قاسٍ عليه.

- حلقات المناظرة؟ رباه، لا تقولي لي إنه متورط في الحدث النازي هذا...

مطت ماريان شفتيها فبدت كخط رقيق. لم يكن كونيل يقرأ جرائد الجامعة كثيراً لكنه كان قد علم بأمر دعوة نادي المناظرات لأحد أعضاء فصيل النازية الجديدة ليلقي خطاباً، وقد انتشر الخبر كالنار في الهشيم على مواقع التواصل الاجتماعي، كما أن **الآيريش تايمز**[1] كانت قد خصصت مقالة عن الموضوع. لم يعلق كونيل على أي من منشورات الفيسبوك التي تتحدث عن الموضوع، لكنه كان

---

(1) The Irish Times من أقدم الجرائد اليومية في أيرلندا، وأسست عام 1859 - المترجم.

يضغط زر الإعجاب على التعليقات المطالبة بإلغاء الدعوة، وكان هذا أجسر نشاط سياسي زاوله طوال حياته.

- على العموم، إننا لا نرى الأمور من وجهة نظر واحدة، قالت ماريان.

ألفى كونيل نفسه يضحك والسعادة تغمره لسبب ما، أنْ شهد منها الضعف وغياب الضمير على نحو غير معهود.

- كنت أعتقد أنني جئت شيئاً فرياً عندما ارتبطت بريتشل موران، وها أنت ترتبطين بشخص ينكر وجود الهولوكوست[1].

- لا، هو فقط يناصر حرية التعبير.

نعم، هذا جيد، الحمد لله على المعتدلين البيض، كما كتب الدكتور مارتن لوثر كينغ مرة على ما أعتقد.

ضحكت صادقة فلمعت أسنانها مجدداً، ثم غطت فمها بيدها. رشف المزيد من الشراب وتمعّن في تعبيرها اللطيف، الذي كان قد اشتاق إليه. بدا المشهد لطيفاً بينهما، رغم أنه سيستسخف على الأرجح ما قاله لها لاحقاً. حسناً إذاً، لقد فشل كلانا فيما يتعلق بالنقاء الأيديولوجي، علّقت ماريان فتخيل كونيل في نفسه يقول لها: آمل أنه يبلي حسناً في العلاقة الجنسية، وستجد هي ذلك طريفاً، لكنه لم يخرجها على لسانه لسبب ما؛ ربما الخجل. طالعته بعينين ضيقتين ثم سألته: هل تواعد فتاة معقدة حالياً؟

- كلا، ولا حتى عادية.

---

(1) The Holocaust: إبادة جماعية اقترفها النازيون في حق يهود أوروبا إبان الحرب العالمية الثانية، وناهز عدد ضحاياها خمسة ملايين - المترجم.

Bitterness-S

ابتسمت ابتسامة نمت عن الفضول وقالت: هل تجد صعوبة في مقابلة الناس؟

فهز كتفيه في إبهام ثم أومأ من رأسه قائلاً: الأمر مختلف عما ألفناه في كاريكلي، أليس كذلك؟

- لدي بعض الصديقات، سأعرفك عليهن.

- آه، حقاً؟

- أجل، بعضهن هنا في الحفل.

- لست متأكداً إن كنت من نوع الرجال الذي يعجبهن.

أخذا ينظر أحدهما إلى الآخر. وجهها محمرّ قليلاً، فيما تلطّخ أحمر الشفاه على شفتها السفلى. أصابته نظراتها بتشوش كالعادة، كما لو أنها تنظر إلى مرآة وترى شيئاً جلياً ناصع الوضوح.

- سألت ماريان: ما الذي يعنيه هذا؟

- لا أعلم.

- ما الذي قد لا يعجبهن فيك؟

تبسم ثم نظر إلى كأسه. لو أن نيال رآها لقال له: إنك لمعجب بهذه الفتاة يا صاح. والحال أن ماريان كانت من نوع النساء المفضل لدى كونيل، ولربما النموذج الأصلي لذلك النوع: أنيقة، يوحي مظهرها بالضجر دائماً، وتعطيك انطباعاً بأنها فتاة على جانب كبير من الاعتداد بالنفس، ضف أنه منجذب إليها، فهو يقرّ بذلك. بعد تلك الشهور التي قضاها مغترباً عن بيته، بدت الحياة أكثر رحابة ومشاكله الخاصة أقل أهمية، فلم يعد ذلك الشخص المهموم المكبوح الذي كان عليه في المدرسة، حين كان يحس بأن انجذابه إليها كان شيئاً مريعاً يخيل إليه في صورة قطار آتٍ بسرعة وهو يلقي

Bitterness-s

بها في سكته. كان يعلم أنها تتصرف بلطف وبخجل بغية إظهار أنها لا تشعر بأي مرارة مما حدث. كان يمكنه القول: أنا آسف حقاً لما فعلته بك يا ماريان. كان دائماً يظن أن هذا ما سيقوله إذا رآها ثانية. غير أنه لا يبدو أنها لتقر بهذه الإمكانية، أو لعله جبان، أو ربما كلاهما معاً.

- وما يدريني؟ سؤال وجيه، لكني لا أعلم.

Bitterness-s

بعد مضي ثلاثة أشهر
(فبراير 2012)

جلست ماريان على الكرسي الأمامي لسيارة كونيل وأغلقت الباب. كان شعرها غير مغسول، ورفعت قدميها إلى الكرسي لتحزم رباط حذائها. كانت تفوح منها رائحة كحول الفواكه، ليس بشكل سيء ولكن ليس بشكل جيد أيضاً. صعد كونيل السيارة وشغل المحرك فراحت تنظره.

- هل ربطتِ الحزام؟

كان ينظر إلى المرآة الخلفية كما لو أنه يوم عادي، في حين كان ذلك صباحاً تلى حفلاً منزلياً في سووردس في ضاحية دبلن الشمالية، حيث شربت ماريان بينما لم يفعل هو، لذا فلم يكن أي شيء عادياً. ربطت حزام الأمان في خضوع لتظهر أنهما لا يزالان صديقين.

- آسفة بشأن ما حدث ليلة البارحة.

حاولت نطق هذه الجملة على نحوٍ يترجم أشياء كثيرة: الاعتذار، والحرج المؤلم، إضافة إلى حرج مختلق يرمي إلى إضفاء طابع السخرية على الموقف حتى يلغى بموجبه الحرج المؤلم، مدركة أنها ستنال العفو أو أنها قد نالته وانتهى الأمر، في رغبة منها لجعل الموقف «يبدو كأمر جلل».

Bitterness-s

- انسي الأمر.
- أنا آسفة حقاً.
- لا عليكِ.

خرج كونيل مبتعداً عن ممر السيارات ويظهر عليه أنه قد تناسى الموضوع، بيد أن هذا لم يشبع رضاها لسبب ما. كانت تريده أن يقر بما حدث قبل طي السجل، أو ربما كانت تريد فقط جلد نفسها دون داعٍ.

- لقد كان ذلك تصرفاً غير لائق مني.
- ماريان، لقد كنت تحت تأثير الشرب.
- هذا ليس عذراً.
- كما أنك كنت تحت تأثير السكر إلى حد الثمالة وقد علمت ذلك لاحقاً.
- نعم، كنت أحس أني معتدية ضارية.

ضحك من قولها بينما تكوّمت على صدرها في المقعد ممسكة مرفقيها بيديها.

- أنت لم تهاجميني، هذه أمور تحدث دائماً.

وما حدث أن كونيل أوصل ماريان بسيارته إلى حفل عيد ميلاد لصديق لهما، وكانا قد قررا المبيت هناك فيقلها في الصباح الموالي إلى محل سكناها. وفي طريقهما استمعا إلى موسيقى مجموعة فامباير ويكند وكانت ماريان تحتسي شراب الجن من قنينة فضية صغيرة ويتجذبان أطراف الحديث عن حكم إدارة رونالد ريغان. لاحظ عليها بأنها كانت تفرط في الشرب، فعلقت قائلة: أتعلم، لقد حباك الرب بوجه حسن. وهذا ليس رأيي وحدي.

عند منتصف الليل، ذهب كونيل ليتسكع في الحفل فيما وجدت ماريان صديقتاها بيغي وجوانا في المطبخ فبدأن يحتسين زجاجة من مشروب الكوانترو ويدخنّ السجائر سوية. كانت بيغي تكتسي سترة جلدية مبطنة وسروال كتان مخطط، وخصلات شعرها تنسدل على منكبيها فتقلبها باستمرار على جانب واحد وتمسدها بيدها. كانت جوانا تجلس فوق المجمد مرتدية جوربين وقميصاً تحت ثوب طويل فضفاض يشبه فستان الحبلى. استندت ماريان على آلة الغسيل ثم أخرجت قارورة الجن من جيبها. كانت بيغي وجوانا تتحدثان عن موضة الرجال وتحديداً حس الموضة لدى أصدقائهن من الذكور. كانت ماريان سعيدة فقط بوجودها هناك، تسند ثقل جسدها على آلة الغسيل، تمضمض رشفات الجن داخل فمها، وتنصت لحديث صديقتيها.

كانت بيغي وجوانا زميلتين لماريان في قسم التاريخ والسياسة؛ جوانا تحضر لأطروحة السنة الختامية حول موضوع جيمس كونولي والمؤتمر الأيرلندي لنقابات العمال. كانت دائماً ترشّح كتباً ومقالات لماريان التي كانت تقرؤها، أو بعضها، أو تقرأ ملخصاتها. كانت جوانا في نظر الناس شخصاً جدياً، وهي فعلاً كذلك، غير أنها تكون مضحكة أحياناً أيضاً. لم تكن بيغي «تفهم» حسها الفكاهي، وهذا لأن كاريزما بيغي تتغذى على الترهيب والإثارة الأنثوية أكثر من الهزل والفكاهة. خلال إحدى الحفلات قبيل عيد الميلاد، قدّمت بيغي جرعة من بودرة الكوكايين لماريان في مرحاض صديقهما ديكلان فتناولتها ماريان، أو قل تناولت معظمها على كل حال، رغم أنها لم تحدث أثراً يُذكر على مزاجها، عدا أنها أحست فيما بعد بنوع من نوبات مرح متعاقبة حيال فكرة أنها قد

خاضت تلك التجربة، إضافة إلى إحساسها بالذنب. لم تخبر جوانا بالموضوع لعلمها أن الأخيرة لن تستحسن ما فعلت لأن حتى ماريان نفسها لم تستحسنه، سوى أن جوانا حين لا تستحسن أمراً فإنها لا تفعله.

ترغب جوانا في العمل في مجال الصحافة. أما بيغي فلا ترغب في العمل بتاتاً، ولا يبدو أن هذا يمثل لها مشكلةً حيث إنها تلتقي عدداً من الرجال الذين يسهرون على تمويل نمط حياتها فيبتعون لها الحقائب اليدوية والمخدرات الغالية. توثر الرجال الذين يكبرونها سناً والذين يعملون لدى البنوك الاستثمارية أو وكالات المحاسبة؛ الرجال في السابعة والعشرين الغزيرة أموالهم؛ وفي البيت، خليلات مرهفات الإحساس يمتهن المحاماة. سألتها جوانا ذات مرة إن كانت تفكر في أنها قد تغدو في السابعة والعشرين بخليل يسهر طوال الليل في الخارج يتعاطى الكوكايين مع مراهقة. لم تحسب بيغي ما قالته صديقتها إهانة، بل وجدته من باب الطرفة. قالت إنها ستكون قد تزوجت من أوليغارشي روسي حينها ولن تهتم بعدد الفتيات اللاتي يخرج معهن. جعل هذا ماريان تفكر في الذي ستعمله بحياتها إذا تخرجت من الكلية. لم تكن ترى أي مسار مسدود بالنسبة إليها، ولا حتى الزواج من أوليغارشي. كانت عندما تخرج في الليل يكيل لها الرجال في الشارع أكثر الكلام بذاءة، فمن الجلي أنهم لا يخجلون من إظهار رغبتهم فيها، بل على النقيض من ذلك. أما في الكلية، فهي عادة لا ترى حدوداً لقدراتها العقلية؛ تقدر على استيعاب كل شيء تريده، فالأمر أشبه بامتلاكها آلة بقدرات كبيرة داخل رأسها. ورغم أنها كانت تتوفر على كل ما يلزم للنجاح، لم يكن لديها أدنى فكرة بخصوص مستقبلها.

Bitterness-s

في المطبخ سألت بيغي عن مكان وجود كونيل.

- في الأعلى مع تيريزا، أجابت ماريان.

كان كونيل يقابل صديقتهما المدعوة تيريزا في مناسبات معدودة. لم يكن لماريان أدنى مشكلة مع تيريزا، بيد أنها تجد نفسها تحث كونيل على نعتها بسيئ الكلام دون أي سبب، الشيء الذي يرفضه دائماً.

- إنه يرتدي ملابس جميلة، قالت جوانا.

- ليس **تماماً**، أقصد أن مظهره جيد لكنه يرتدي ملابس رياضية معظم الأوقات، حتى إنني أشك أنه يملك بدلة، علّقت بيغي.

سعت جوانا إلى تبادل النظرات مع ماريان من جديد فاستجابت هذه المرة. أخذت بيغي، وهي تتابع، رشفة كبيرة من قنينة الكوانترو ثم مسحت شفتيها مستعملة اليد التي تمسك القنينة. ماذا؟ سألت بيغي.

- ألا ينحدر من الطبقة الكادحة؟ سألت جوانا.

- هذه حساسية مفرطة. ألا يمكنني انتقاد ذوق أحدهم في اللباس بسبب وضعه المادي والاجتماعي؟ ما الذي تقولينه! احتجّت بيغي.

- لا، هذا ليس ما قصَدَتْه، قالت ماريان.

- فأنت تعلمين أننا لطفاء معه، أضافت بيغي.

ألفت ماريان نفسها عاجزة عن النظر في صديقتيها. من تقصدين بـ«نحن»؟ كان سؤالاً أرادت ماريان طرحه، غير أنها أخذت، بدل ذلك، قنينة الكوانترو من يد بيغي وشربت جرعتين نزلتا فاترتين وبحلاوة منفرة.

وعند حلول الثانية صباحاً، بعد أن بلغت بها الثمالة مبلغاً

Bitterness-s

وأقنعتها بيغي بمشاركتها سيجارة في الحمام، لمحت ماريان كونيل في الطابق الثالث واقفاً لوحده. حياها، فاستندت إلى الجدار سكرانة وراغبة في اهتمامه. كان على الجهة العلوية من الدرج.

- كنت تتسكع مع تيريزا إذاً.

- حقاً؟ هذا مثير للاهتمام.

- رائحتك تشبه العطر.

- تيريزا ليست هنا. في الواقع هي لم تحضر الحفل أصلاً.

فضحكت وسط إحساس بالغباء، غباء على نحو محمود.

- تعال إلى هنا. طلبت منه ماريان ذلك فلبى قائلاً:

- ماذا؟

- هل تعجبك أكثر مني؟

دس خصلة من شعرها خلف أذنها.

- كلا، في الواقع، ومن باب العدل، أنا لا أعرفها جيداً.

- لكن هل هي أفضل مني في العلاقة الحميمية؟

- أنت ثملة يا ماريان، ولو أنك في وعيك لما وددت معرفة الجواب.

- إذاً فهذا ليس الجواب الذي أريده.

طريقتها في هذا الحوار كانت على نحو مستقيم بينما كانت تحاول فك أحد أزرار قميصه، ليس حتى بطريقة متغنجة بل فقط لأنها كانت ثملة، ولم تنجح في فك الزر تماماً.

- لا، إنه حتماً الجواب الذي تريدينه.

ثم قبلته فلم يرتد عنها مثل المذعور، بيد أنه سحب نفسه بحزم، مبتعداً عنها وقال: لا، ما الذي تفعلينه؟

- هيا بنا إلى الطابق العلوي.

Bitterness-s

- في الواقع، نحن هناك الآن.
- أريدك أن تضمّني وتداعبني.

فكشفت تقاسيمه عن تكشيرة لو رأتها في حالتها الطبيعية، لحثتها على أن تتظاهر بأنها تمزح.

- لا، ليس الليلة، فأنت في غير وعيك.
- أهذا هو السبب الوحيد؟

فحدق بها بينما كتمت هي ملاحظة بشأن شكل شفتيه اللتين رأتهما رائعتين بحق، لأن أولويتها الآن هي جوابه على السؤال.

- نعم، هذا هو السبب الوحيد.
- إذاً فلو لم أكن في غير وعيي لفعلت؟
- يجب أن تخلدي إلى سريرك.
- سأعطيك بعض المخدرات.
- ماريان، أنت لا... أنت لا تمليكن أية مخدرات أصلاً. وهذا فقط مستوى واحد من كلامك غير السديد. فلتخلدي إلى سريرك.
- فقط قبلني.

استجاب لطلبها وقبلها قبلة جميلة لكن ودية، ثم قال لها تصبحين على خير وطوى درجات السلم بجسد رشيق ومتماسك وبخطى مستقيمة. ذهبت ماريان إلى الحمام حيث شربت الماء من الحنفية مباشرة، حتى توقف صداع رأسها فأوت إلى النوم مفترشة بلاط الحمام، وظلت هناك حتى أيقظتها إحداهن قبل عشرين دقيقة عندما طلب منها كونيل البحث عنها.

الآن يقلب كونيل محطات المذياع بينما ينتظران الإشارة

Bitterness-s

الضوئية فاستقر على أغنية لفان موريسون تصدح من على أثير إحدى المحطات.

- على كل حال أنا آسفة، فلم أكن أحاول جعل الأمور غريبة مع تيريزا.

- تيريزا ليست خليلتي.

- طيب، لكن هذا كان نوعاً من قلة الاحترام لصداقتنا.

- لم أكن أعلم أنكما مقربتان هكذا.

- أقصد صداقتنا أنا وأنت.

نظر صوبها فإذا بها تحكم تطويق ركبتيها بذراعيها ثم غرست ذقنها بين كتفيها. باتا مؤخراً يتسكعان كثيراً، فهما الآن في دبلن حيث يمكنهما التجول عبر الشوارع الطويلة سوياً لأول مرة، واثقين أن لا أحد يعرفهما أو يهتم بأمرهما. كانت ماريان تقطن في شقة ذات غرفة نوم واحدة تملكها جدتها في دبلن، وفي المساء كانت تجلس وكونيل في غرفة الجلوس يحتسيان النبيذ، فيأخذ يشتكي إليها، دون أي تحفظ على ما يبدو، ما يلقى من عسر في إقامة صدقات داخل الكلية. ذات يوم استلقى فوق أريكتها ثم حرك ما تبقى من النبيذ في قعر الكأس قائلاً: إن الناس في هذه المدينة متعالون، وحتى لو أحبوني ما كنت لأرغب في مصاحبتهم. وضع الكأس من يده ثم حدق فيها قائلاً: وهذا، بالمناسبة، السبب في أنك تلفين يسراً في ذلك. لأنك تنحدرين من عائلة ثرية، ولهذا يحبك الناس. تقطبت تقاسيم وجهها في تكشيرة ومن ثم أومأت من رأسها فأخذ كونيل يضحك قائلاً: إنني أعبث معك، ثم تقابلت نظراتهما فأرادت الضحك لكنها لم تكن متأكدة إن كانت المزحة بشأنها.

Bitterness-s

كان دائم الارتياد على حفلاتها رغم أنه يقول إنه لا يفهم أصدقاءها. فأما صديقاتها من البنات فيحبونه كثيراً، ويجدون متعة في الجلوس بصحبته. وخلافاً لذلك، لم يستلطفه أصدقاؤها من الذكور بالطريقة نفسها، وكان ما يشفع له هو انتسابه لماريان لكنهم لم يكونوا ليهتموا بشخصه. إنه يفتقر للذكاء! كان وصفاً فظاً أطلقه عليه أحد أصدقائها في غيابه، فردت ماريان بأنه أذكى منها هي، فلم يدر أحد بما يرد عندها. صحيح أن كونيل يتصرف بهدوء كبير خلال الحفلات، هدوء يصل حد العناد، كما أنه ليس من هواة التبجح بغزارة الكتب التي قرأها أو الحروب التي يعرف عنها، بيد أن ماريان تعلم في قرارة نفسها أن هذا ليس السبب الذي يجعل الناس يعتقدون بقلة ذكائه.

- من أية ناحية هو قلة احترام لصداقتنا، سألها كونيل.

- أعتقد أنه من الصعب المحافظة على صداقتنا إن كانت لدينا علاقة حميمية.

اعتلت محياه ابتسامة شيطانية، ثم حجبت وجهها بيدها في ارتباك.

- أتعتقدين ذلك؟

- وما يدريني.

- طيب.

ذات ليلة في بار بروكسيل، كان اثنان من أصدقاء ماريان منهمكين في مباراة لعبة البلياردو بأداء باهت بينما تحلّق الآخرون حولهما يحتسون الشراب ويتابعون المجريات. وبعدما فاز جيمي في المباراة أطلق تحدياً قائلاً: هل منكم من يود مواجهة الفائز؟ فوضع

كونيل شرابه جانباً بهدوء ثم قال: طيب، فلنلعب. أخذ جيمي ضربة البداية لكنه لم يدخل أياً من الكرات، فأخذ كونيل العصا ولعب دوره دون أن ينخرط في أي نقاش، لينجح في تسجيل أربع كرات صفراء على التوالي. أخذت ماريان في الضحك بينما ظل هو صامتاً يتابع بتركيز. وبعدما جاء دور جيمي في اللعب، الذي أخذ وقتاً قصيراً، أخذ كونيل جرعات من شرابه وتابع جيمي وهو يسدد كرة حمراء خارج حافة طاولة البلياردو، ثم أخذ كونيل دوره في اللعب وفرك رأس العصا بكل حيوية ليتولى تسجيل الكرات الصفراء الثلاث المتبقية. ساوره إحساس بالرضى حيال كيفية أدائه؛ الكيفية التي درس بها الميدان والتي نظم بها الضربات، ثم الطريقة التي فرك بها رأس العصا الناعم بالأستيكة. كانت الفتيات يراقبنه يسدد الضربات ويُدخل الكرات في الجيوب فيستند على الطاولة بتقاسيم وجهه الحادة والصامتة تضيئها أنوار المصباح الذي يتدلى فوق رأسه. علقت ماريان قائلة إن المشهد أقرب إلى إشهار لمشروب دايت كولا فضحك الجميع من قولها بمن فيهم كونيل. ولما لم يتبق سوى الكرة السوداء، صوّب كونيل العصا باتجاه الجيب الأيمن على الجهة المقابلة لموضع وقوفه ثم، بشعور بالمتعة، نادى ماريان: حسناً يا ماريان، هل تشاهدين هذا؟ ثم سددها في منتصف الجيب تحت تصفيقات الجميع.

لم يذهب كونيل إلى شقته تلك الليلة، بل عاد لقضاء الليلة في شقتها. استلقيا فوق السرير ينظران إلى السقف ويتجاذبان أطراف الحديث. كانا ما يزلان يتحاشيان التحدث بخصوص ما حدث بينهما العام الماضي، بيد أن كونيل كسر القاعدة في تلك الليلة سائلاً: هل يعلم أصدقاؤك بشأننا؟

Bitterness-s

صمتت ماريان ثم قالت في الأخير: أي شأن؟

- ما حدث بيننا في المدرسة.

- كلا، لا أعتقد ذلك. ربما وضعوا فرضيات من نوع ما، لكنني لم أخبر أحداً.

لاذ كونيل بالصمت لبضع ثوانٍ. كانت معتادة على صمته هذا في الظلام.

- وهل ستشعرين بالإحراج إن علموا بالأمر؟

- نعم. على نحو ما.

استدار مستنداً على جنبه لينظر إلى وجهها ثم قال:

- لماذا؟

- لأنني تعرضت للإذلال.

- تقصدين طريقة معاملتي لك؟

- نعم، هو ذاك، ناهيك عن الطريقة التي استحملت بها كل ذلك الإذلال.

بحذر، تحسس يدها من تحت اللحاف ثم احتواها دون اعتراض منها. أحست برجفة في فكها فحاولت جعل صوتها يبدو لطيفاً مزوحاً:

- هل فكرتَ يوماً في دعوتي إلى حفل الدبس؟ إنه سؤال أبله، لكنني أود معرفة إن كنت قد فكرت في ذلك يوماً.

- صدقاً لم أفكر في ذلك، لكنني تمنيت لو فعلت.

أومأت برأسها، ثم واصلت التفرس في السقف كاظمة مخافة أن يتبين تعابيرها فيترجم مكنونها.

- وهل كنت لتوافقي؟

Bitterness-s

أومأت من جديد محاولة قلب مقلتي عينيها، بيد أن ذلك لم يبدُ طريفاً، بل قبيحاً وينمّ عن شيء من الشفقة على النفس.

- أنا حقاً آسف بشأن ذلك. لقد تصرّفتُ بغباء حقاً، كما أن الزملاء في المدرسة كانوا يعلمون بشأننا فيما يبدو. لا أعلم إن كنت تعرفين ذلك.

استندت على كوعها ثم شرعت تتفرسه تحت جنح الظلام.

- يعلمون بماذا؟

- بالعلاقة التي كانت تربطنا.

- أقسم أنني لم أخبر أحداً يا كونيل.

استطاعت رؤيته يجفل في الظلام.

- أعلم ذلك. أقصد أنه ما كان ليهمّ لو أنك أخبرتهم، لكنني أعلم أنك لم تفعلي.

- وهل كان رد فعلهم سيئاً؟

- كلا، كل ما في الأمر أن إيريك ذكر لي أن الناس علموا بأمرنا لكنهم لم يكترثوا.

مرّت لحظة صمت قصيرة بعد ذلك.

- أشعر بالذنب لأنني حملتك على إبقاء علاقتنا طي الكتمان بذريعة أن رد فعل الناس سيكون سيئاً. فمن الواضح أن كل هذا لم يحدث سوى في عقلي، أقصد أنه لم يكن هنالك سبب يجعل الناس يكترثون للأمر. الواضح أنني أعاني من الحصر النفسي فيها يتعلق بهذه الأشياء. لا أحاول اختلاق الأعذار ولكن أعتقد أنني سلطت شيئاً من اضطرابي النفسي عليك. لا أدري إن كان ما أقوله منطقياً، والواقع أنني ما زلت أفكر في الموضوع كثيراً؛ أفكر لماذا تصرفتُ على هذا النحو الأخرق.

Bitterness-S

أمسكتْ يده وضغطتها بقوة فضغط يدها هو الآخر، بقوة كبيرة كادت تؤلمها، فجعلتها إيماءة اليأس الصغيرة تلك تبتسم.

- لقد سامحتك.

- شكراً لك. أظنني تعلمت الدرس، وأتمنى أن أكون قد غيرت في شخصيتي. وإن حدث ذلك بالفعل، فالفضل يعود إليك.

لم يترك أحدهما يد الآخر من تحت اللحاف حتى بعد أن خلدا للنوم.

وعندما عادا إلى شقتها، سألته إن كان يرغب في الدخول فقال إنه يريد أن يأكل شيئاً فأخبرته بوجود طعام للفطور في الثلاجة. صعدا الدرج سويا فشق طريقه نحو الثلاجة بينما تابعت طريقها إلى الحمام للاستحمام. خلعت ملابسها حتى آخرها ثم شغلت الحنفية على آخرها ولبثت عشرين دقيقة أو أكثر، حتى أحست بتحسن حالتها، ثم عندما خرجت في برنس الحمام وقد نشفت شعرها بالمنشفة، كان كونيل قد ملأ معدته وغسل صحنه ثم انزوى إلى بريده الإلكتروني يتفقده.

كانت الغرفة تفوح منها رائحة القهوة والطعام المقلي. توجهت ماريان نحوه فمسح فمه بظهر كفه كما لو أن القلق قد زاره فجأة. وقفت عند كرسيه، رفع رأسه ينظر إليها، ثم أنشأ يفك حزام برنسها. لقد انقضت سنة أو أكثر. لامست شفتاه جسدها فأحست وكأنها مزار مقدس. لنذهب إلى السرير، قالت. فتبعها.

شغلت مجفف الشعر بعدها، بينما دخل هو ليستحم، فاستلقت على السرير تنصت لصوت أنابيب المياه والابتسامة تعلو محياها. خرج كونيل من الحمام ثم تمدد بجانبها الوجه قِبل الوجه. لامسها

Bitterness-s

فاستلذت ذلك. أحست بسلام داخلي وبرغبة في النوم، فقبل جفنيها المغمضين. للمعاشرة معكَ طعم مختلف عما هو مع الآخرين، علقت ماريان. نعم، أنا أعلم ذلك. كان هذا رده فأحست أن هناك أموراً لا يخبرها بها. لم تعرف إن كان يقاوم رغبة في الابتعاد عنها أم رغبة في جعل نفسه أكثر تأثراً بطريقة ما. قبل رقبتها ثم أحست بثقل في عينيها. أعتقد أننا سنكون على ما يرام، أردف كونيل فيما لم تعلم أو لم تتذكر ما الذي قاله، فاستسلمت للنوم.

Bitterness-s

شهران بعد ذلك
(أبريل 2012)

وصل كونيل لتوه من المكتبة وألفى أصدقاء ماريان يأخذون ستراتهم من على المشكاة الموجودة في الردهة وينسحبون أفواجاً، بعد زيارة لشقتها، سوى بيغي التي ظلت جالسة عند المائدة تسكب زجاجة الروزيه في كأس كبيرة بينما كانت ماريان تمسح سطح المنضدة بقطعة قماش مبللة. كانت النافذة فوق حوض المطبخ تعرض مشهداً مستطيل الشكل للسماء في لون الدنيم. اتخذ كونيل مجلسه عند المائدة وأخذت ماريان زجاجة جعة من الثلاجة وفتحتها من أجله، ثم سألته إن كان جائعاً فأجاب بالنفي. كان طعم الجعة البارد بعد الجو الدافئ في الخارج اختياراً موفقاً. كان موعد الامتحانات قد اقترب فكونيل تعود على الاعتكاف في المكتبة إلى أن يرن جرس الإغلاق.

- هل لي بسؤال؟ سألت بيغي.

أخبرته فراسته بأنها تحت تأثير السُّكْرِ وأن ماريان ودت لو تغادر المكان، وهو ما أراده هو أيضاً.

- بالتأكيد، أجابت ماريان.

- أنتما على علاقة، أليس كذلك؟

Bitterness-s

ركن كونيل إلى الصمت ثم تحسس بإبهامه ملصق زجاجة الجعة باحثاً عن طرف الملصق حتى يقشره. لم يكن لديه أدنى فكرة عن نية ماريان في الإجابة: ربما مزحة، كلاماً تضحك منه بيغي فتغير السؤال، بيد أن ماريان، وبعيداً عما توقعه كونيل، قالت: نعم، هذا صحيح. فأنشأ يبتسم، وأخيراً وقع إبهامه على طرف الملصق فاقتلعه.

ضحكت بيغي ثم قالت: طيب، يسعدني سماع ذلك. بالمناسبة، الجميع يتساءل عن الأمر.

- نعم، في الواقع هذا ليس بجديد فقد كنا نواعد بعضنا أيام المدرسة، قالت ماريان.

- حقاً؟

سكبت ماريان لنفسها كوباً من الماء واستدارت حاملة الكوب قبالة كونيل تنظر إليه.

- آمل أن قولي هذا لا يضايقكَ الآن.

هز كتفيه نافياً، ثم تبسم إليها فبادلته الابتسامة. لم يقدما على التشهير بعلاقتهما إلا أن أصدقاءه كانوا يعلمون، كل ما في الأمر أنه لا يحب العروض أمام العامة. سألته ماريان مرة إن كان «يخجل» من علاقتهما لكن من باب الدعابة. هذا طريف، رد كونيل مردفاً أن نيال يرى بأنه يتبجح كثيراً بشأن علاقته بماريان فأسعدها سماع ذلك. في الحقيقة، هو لا يتبجح كثيراً كما قال، حتى وإن كانت فتاة تتمتع بشعبية عارمة يرغب الكثير من الرجال في معاشرتها. قد يتبجح أحياناً لكن بحسٍّ راقٍ.

- في الواقع تبدو علاقتكما لطيفة، قالت بيغي.

- شكراً لك، ردّ كونيل.

- لم أقل إننا خليلان، أوضحت ماريان.

- آه، نعم. تقصدين أنكما لستما في علاقة مغلقة؟ هذا رائع، لطالما أردت خوض تجربة العلاقة المفتوحة مع لوركان لكنه رفض.

سحبت ماريان كرسيا من تحت الطاولة واقتعدته ثم قالت:

- من طباع الرجال النزعة التملكية أحياناً.

- أعلم ذلك! هذا جنون. كنتِ لتعتقدين أنهم سيفرحون بفكرة علاقة متعددة الأطراف.

- يبدو لي أن الرجال يهتمون أكثر بتقييد حرية النساء بدل ممارسة حرياتهم.

- هل هذا صحيح يا كونيل؟

أرسل نظرة إلى ماريان متبوعة بإيماءة، مفضلاً أن تواضل هي النقاش. كان قد تعرف إلى بيغي منذ وقت قصير؛ عرفها فتاة ذات صوت جهوري تحب دائماً حشر أنفها في أمور الآخرين. كان لماريان أصدقاء تفضلهم على بيغي، لكنهم لا يبقون إلى وقت متأخر في شقتها ولا يسرفون في الكلام كما تفعل بيغي.

- أعني، عندما تتأملين في الحياة التي يحياها الرجال، تجدين الأمر مؤسفاً. إنهم يحكمون قوانين النظام الاجتماعي وهذا أفضل ما أمكنهم الإتيان من أجل أنفسهم؟ حتى إنهم لا يستمتعون بحياتهم.

سألته بيغي ضاحكة: وأنت يا كونيل، هل تستمتع بحياتك.

- همم، أستمتع بها إلى حد معقول، لكنني أشاطرها الرأي.

- هل كنت لتفضل أن تعيش في مجتمع تحكمه القيم الأنثوية؟ سألت بيغي.

Bitterness

- من الصعب معرفة ذلك الآن، لكنني كنت لأخوض التجربة حتى أرى كيف تسير الأمور.

تابعت بيغي ضحكها كما لو أن كونيل يلقي النكت الطريفة ثم سألته: ألا تستمتع بامتيازاتك الذكورية؟

- كما قالت ماريان، لا يوجد الكثير من المتعة في الأمر. أنا لا أجد متعة كبيرة في ذلك.

ابتسمت بيغي ابتسامة عريضة برزت منها أسنانها وقالت: لو أنني خُلقت رجلاً لكان لديّ ثلاث خليلات، أو ربما أكثر.

قشر كونيل آخر الملصق من زجاجة الجعة خاصته. ساهمت برودة الزجاجة في إزالة الملصق بسهولة وهذا لأن التكاثف يعمل على فض الغراء. وضع الزجاجة على الطاولة ثم راح يلف الملصق على شكل مربع صغير، فيما تابعت بيغي نهل الكلمات بسخاء لكنه لم يجد أهمية في الإصغاء إليها.

كانت الأمور تسير على ما يرام بينهما آنذاك. عندما تغلق المكتبة أبوابها في المساء، كان يعود إلى شقتها فيبتاع بعض الطعام أو زجاجة نبيذ بأربعة يوروهات في طريقه. في أيام الطقس المشرق، تبدو السماء بعيدة جداً وتحلق الطيور في دوائر في الفضاء اللامتناهي، وعندما تأتي الأمطار، تغلق المدينة أبوابها ويسدل الضباب ستاره على الدنيا فتبطئ السيارات من سرعتها وتتوهج مصابيحها الأمامية على نحو قاتم ثم تمر بوجوه استحالت وردية من أثر البرد. تعدّ ماريان وجبة العشاء في المطبخ؛ لا تخرج القائمة عن السباغيتي أو الريزوتو ثم يأتي دوره ليغسل الأواني وينظف المكان. ينظف المحمصة الكهربائية من بقايا فتات الخبز بينما تقرأ على مسامعه نكاتاً من موقع تويتر. يذهبان بعد ذلك إلى السرير.

Bitterness-s

كان كونيل يلقى متعة في المحادثات التي تلي أوقاتهما الحميمية، فعادة ما تتخذ تشعبات غير متوقعة وتحثه على التعبير عن أفكار لم يصغها عن وعي من قبل. تحدثا عن الروايات التي يقرؤها وعن الأبحاث التي تدرسها وعن اللحظة التاريخية التي يعيشانها، وعن صعوبة رصد هذه اللحظة وهي تمضي لتتخذ لنفسها ركناً في ماضيهما. أحياناً كان يساوره إحساس أنه وماريان يبدوان مثل راقصين على الجليد، بحيث كانا يرتجلان في حديثهما بإتقان وبتوافق زماني مثالي للغاية يلفيانه نفساهما مدهشاً. تندفع ماريان برشاقة من السرير، وفي كل مرة، ودون أن يعرف كيف سيفعل ذلك، يلتقطها ويعيدها، أما هي تجدها مسرورة، وقد كان يشك أن الحميمية في نقاشاتهما التي كانت تسعى بين ما هو فكري وما هو شخصي تضفي على علاقتهما متعة من نوع آخر. يوم الجمعة الماضي عندما كانا مستلقيين على السرير بعدما مارسا الجنس قالت له: لقد كان هذا قوياً، أليس كذلك؟ ثم قال لها إنه لطالما ألفى الأمر قوياً. لكنه رومانسي، قالت ماريان، ثم أردفت: أظنني بدأت أكن لك مشاعر الحب عند لحظة ما. ابتسم وهو ينظر إلى السقف. عليك كبح كل هذه الأمور يا ماريان، كما أفعل أنا تماماً.

تعلم ماريان صدق مشاعره تجاهها، وكونه يحمر خجلاً في حضور أصدقائها لا يعني أن ما بينهما ليس جدياً، بل إن علاقتهما جدية. أحياناً يساوره القلق بشأن عدم وضوحه بخصوص هذه العلاقة فإذا سمح لهذا القلق بالتراكم، ليوم أو أكثر، وهو يفكر في سبيل لمفاتحتها في الموضوع، يأتي في الأخير بكلام يغلفه الخجل مثل: أنت تعلمين أنني أحبك أليس كذلك؟ يقول ذلك في نبرة تحسبها، لسبب ما، انزعاجاً، ثم تكتفي بالضحك. ماريان لديها الكثير من

Bitterness-s

الخيارات الأخرى فيما يتعلق بالرومانسية كما يعلم الجميع؛ طلبة قسم السياسة الذين لا يفوتون حفلاتها ويحضرون حاملين زجاجات الشمبانيا وقصصاً عن عطلهم الصيفية في الهند، وأعضاء نوادي الجامعة الذين لا يبرحون ربطات العنق السود والذين يؤمنون إيماناً راسخاً غير مفهوم أن أنشطة المجتمعات الطلابية داخل الجامعة محط اهتمام للناس، والشبان الذين اعتادوا على ملامستها خلال محادثتهم، فتارة يثبتون خصلات شعرها وتارة يضعون أيديهم على ظهرها. وفي إحدى المرات سألها كونيل، والسكر يغالبه، عن سبب ملامستهم لها هكذا فأجابته قائلة: لا أنت تلمسني ولا أنت تسمح لغيرك بذلك؟ سؤال كان كفيلاً بتعكير صفو مزاجه.

لم يعد كونيل يذهب إلى البيت في عطل نهاية الأسبوع حيث إن صديقتهما صوفي ساعدته في الحصول على وظيفة جديدة في مطعم والدها. انحصرت مهامه في الجلوس إلى مكتب في الطابق العلوي أيام عطلة نهاية الأسبوع يرد على الرسائل الإلكترونية ويدوّن عمليات الحجز في دفتر جلدي كبير معد لتدوين المواعيد. في بعض الأحيان كان يتلقى اتصالات من صغار المشاهير كما هو حال عاملين في مؤسسة راديو وتلفزيون أيرلندا وسواهم، لكن خلال معظم ليالي الأسبوع يتحول المطعم إلى ما يشبه القفار. وكان واضحاً لكونيل أن مشروع والد صوفي آيل إلى الزوال حيث إنه يستنزف المال دون مردود مشجع، لكن أمر الوظيفة لم يكن من ضرب الصعاب لدرجة أنه لم يكن ليقلق باحتمال إغلاق المطعم، فما إن يجد نفسه عاطلاً عن العمل حتى يدخل أحد أصدقاء ماريان الأثرياء على الخط ويساعده في الحصول على وظيفة بديلة. فالأثرياء يأخذون بيد بعضهم البعض وكون كونيل أعز أصدقاء ماريان بوأه مكانة المقرب

من الثري؛ شخص يحظى بمفاجآت في عيد ميلاده وتأتيه الوظائف المريحة من حيث لا يحتسب.

قبل نهاية االفصل الدراسي، ألقى كونيل عرضاً شفوياً حول موت آرثر، وفي خضم إلقائه للعرض كان يحس بارتجاف يديه فلم يستطع رفع بصره عن المطبوعات بغية معرفة إن كان أحدهم يصغي إليه. كان يتكلم بصوت يتلكأ بين الفينة والأخرى فساورته فكرة أنْ لولا جلوسه على الكرسي لهوى على بلاط الأرض. اكتشف فيما بعد أن عرضه ذاك كان في الحقيقة مثيراً للإعجاب حيث إن أحد زملائه وصفه «بالعبقري» في حضوره، لكن بنبرة تجاهلية كما لو أن العباقرة أناس جديرون بالازدراء قليلاً. كان كل طلبة الدفعة على علم أن كونيل حصل على أعلى المعدلات في كل المواد عدا واحدة، وقد اكتشف أنه، في داخله، يستحب انطباع الناس عنه باعتباره ذو الذكاء المتقد، لو أن ذلك يجعل من علاقته بالناس أكثر وضوحاً. كان يجد متعة عندما يصادف أحدهم يسعى جاهداً لتذكر عنوان كتاب أو اسم مؤلِّف، فيعطيه الاسم أو العنوان المطلوب جاهزاً، ليس تبجحاً منه ولكن فقط لأنه يتذكره. كان يحس بالكثير من الرضى عن ذاته عندما تقول ماريان لأصدقائها، من أبناء القضاة والوزراء، أصدقاء من أولئك الذين تمدرسوا في مدارس باهظة الثمن على نحو مفرط، إن كونيل أذكى إنسان قد «يقابلونه يوماً».

- وماذا عنك يا كونيل؟ سألت بيغي.

لم يكن يصغي لحديثها فكل ما أمكنه القول هو: ماذا؟

- هل تجد فكرة العلاقة متعددة الأطراف من ضرب الإغراء؟

نظر إليها فإذا بتقاسيم وجهها تخفي شيئاً.

Bitterness-5

- في الحقيقة إني لا أعلم. ماذا تقصدين؟

- أما وددت يوماً لو امتلكت حريماً خاصاً بك؟ كنت أعتقد أن هذه صفة يشترك فيها كل الرجال.

- آه، حسناً، لا، أنا لست كذلك.

- ربما اثنان فقط.

- اثنان ماذا؟ تقصدين امرأتان؟

تطلعت بيغي إلى ماريان ثم أصدرت صوت ضحك عابث ومزعج فرشفت ماريان من كوب الماء في هدوء.

- يمكننا فعل ذلك إن أحببت.

- مهلاً! معذرة، يمكننا فعل ماذا؟

- أياً كنت تسميه، علاقة ثلاثية أو أي شيء.

فانتبه لقولها ثم ضحك من غبائه قائلاً: نعم، نعم، أنا آسف، ثم طفق يطوي الملصق من جديد وقد نضبت قريحته فلم يجد بما يرد عليها، ثم أردف: نعم لم أنتبه لذلك. بالطبع لا يمكنه فعل ذلك؛ بل لم يتردد لحظة في الجزم في موقفه: لم يكن يريد فعل ذلك. كان مجرد التفكير في الأمر يثير في نفسه الخزي والاضطراب. لقد كانت خصوصيته مع ماريان حصناً حصيناً في نفسه لئن اخترقته بيغي أو أي شخص آخر لأنذر بتدمير شيء في داخله، شيء يكمل كيانه، ولا يبدو أن لذلك الشيء تسمية كما أنه لم يحاول من قبل أن يحدد هويته. عاد إلى ملصق زجاجة الجعة المبلل يطويه من جديد حتى صار صغير الحجم ومطوياً بشدة، ثم همهم.

- قطعاً، أنا أخجل من أن أفعل ذلك. ترى الموت أهون علي من أن آتي هذا، قالت ماريان.

Bitterness-s

- حقاً؟ قالت بيغي في نبرة رقيقة مليئة بالاهتمام.

حاول كونيل كتم انفراجه.

- أنا أعاني من كل أنواع العقد العاطفية ولهذا عواقب عصبية علي، أضافت ماريان.

أثنت بيغي على مظهر ماريان بابتذال وعلى نحو يوحي بتخنث ثم سألتها عن نوع العقد العاطفية هذه.

عضت ماريان على شفتها السفلى ثم قالت: في الواقع لا أظنني محبة كثيراً، أعاني من نوع من النفور تجاهي... في الحقيقة أعاني من برود عاطفي، فأنا من الأشخاص الذين تصعب محبتهم، ثم لوحت بيدها الطويلة النحيلة في الهواء في حركة توضح منها أنها قدمت معنى تقريبياً فقط وليس الفكرة برمتها.

- لا أصدق ذلك، أهي باردة معك يا كونيل؟

- كلا، قال كونيل وهو يسعل.

تابعت الحديث مع ماريان بينما واصل هو لف الملصق المطوي بين أصابعه في شعور بالقلق.

غادرت ماريان إلى كاريكلي لبضعة أيام هذ الأسبوع ولما عادت إلى دبلن الليلة الماضية بدا عليها الهدوء فشاهدا فيلم **مظلات شربورغ** سوياً في شقتها. وعند نهاية الفيلم بكت ماريان فأشاحت بوجهها حتى تخفى دموعها، فبعث هذا اضطراباً في نفس كونيل أنْ رأى أن لا مدعاة للبكاء في القصة رغم أن الفيلم انتهى نهاية حزينة. هل أنت على ما يرام؟ سألها فردت بالإيجاب دون أن تدير وجهها ناحيته، فاستطاع رؤية وتراً أبيض يبرز من رقبتها.

Bitterness-S

- هل ثمة شيء يضايقكِ؟

فنفت بهز رأسها دون أن تستدير ناحيته. اتجه إلى المطبخ ليعد لها فنجان شاي فسكتت عن البكاء في غيابه. عند عودته داعب خصلات شعرها فتبسمت في وهن. كانت بطلة الفيلم قد حبلت على نحو غير متوقع فحاول أن يتذكر آخر مرة حاضت فيها ماريان وكلما طال تفكيره بدت المدة أبعد ثم سألها في رهبة: هل أنت حبلى؟ إلا أن ضحكة ماريان عندها هدأت من أعصابه.

- كلا، لقد أتتني الدورة الشهرية صباح اليوم.

- طيب. هذا جيد.

- ماذا كنت لتفعل لو أنني حبلى؟

تبسم من قولها ثم تنهد وقال: هذا يعتمد على ما كنت أنت لتفعلي.

- أعترف أني كنت لأواجه إغراء بسيطاً للاحتفاظ بالطفل، بيد أنني ما كنت لأفعل بك هذا فلا تقلق.

- حقاً؟ وما نوع هذا الإغراء؟ آسف إن كنت ترين في قولي هذا أمراً عديم الإحساس.

- أنى لي أن أعلم. أنا أحب فكرة أن أمرّ بمأساة من نوع ما حتى أخيب آمال الناس، هل تعتقد أنني سأكون أماً سيئة؟

- كلا، ستكونين أماً عظيمة. أنت عظيمة في كل شيء تفعلينه.

فتبسمت قائلة: لم أكن لأقحمك في الموضوع.

- في الواقع، كنت لأقدم لك يد العون، مهما كان قرارك.

لم يدر ما الذي جعله يقول لها إنه سيقدم لها يد العون رغم أنه يعلم بأن لا دَخْلَ لديه تقريباً ولم يكن هناك أي تغيير قريب في

Bitterness-S

الأفق. أحس أن هذا ما كان عليه قوله رغم أنه لم يفكر في الموضع البتة. كانت ماريان من النوع العملي الذي يتحمل مسؤولية أموره بنفسه، أما هو فكل ما كان ليقدمه لها هو مرافقتها.

- تخيل ما الذي كان ليقوله الناس في كاريكلي.

- أنتِ محقّة، ما كانت لورين لتسامحني أبداً.

تطلعت فيه بسرعة سائلة: ولم ذلك؟ ألا تحبني لورين؟

- بل تحبكِ، أقصد أنها ما كانت لتسامحني لفعلي هذا بكِ. إنها تحبكِ لا تقلقي، وأنت تعلمين ذلك، حتى أنها ترى أنني لا أستحقك.

فتبسمت من جديد ثم تحسست وجهه فاستحسن ذلك ثم دنا منها قليلاً وداعب أسفل رسغها قائلاً:

- وماذا عن أسرتك؟ أعتقد أنهم ما كانوا ليسامحوني أيضاً.

هزّت كتفيها ثم أسقطت يدها على حجرها.

- هل يعلمون بعلاقتنا؟

هزت رأسها وأشاحت بنظرها ثم أسندت خدّها على يدها.

- لست مضطرةً أن تخبيريهم فقد لا يرضون بي. ربما يودون لو ترتبطين بطبيب أو محام أو شيئاً من هذا القبيل، أليس كذلك؟

- لا أخالهم يكترثون بأموري.

وارت وجهها بواسطة كفّيها الأملسين لوهلة ثم فركت أنفها بخفة وأخذت نفساً. كان كونيل يعلم أن علاقتها بأسرتها يطبعها التوتر، واكتشف ذلك عندما كانا لا يزالان في المدرسة، بيد أنه لم يجد في الأمر غرابة إذ إن علاقات ماريان آنذاك كانت متوترة مع خلق الله جميعاً.

Bitterness-s

شقيقها آلان يكبرها ببضع سنين وله ما سمتها لورين «شخصية ضعيفة». في الحقيقة كان من الصعب تخيله يدافع عن نفسه في شجار مع ماريان، أما الآن فكلاهما راشدان ومع ذلك فماريان لا تذهب لزيارة عائلتها إلا لماماً، وعندما تفعل، ترجع هكذا ذاهلة متجهمة بعد شجار آخر تقول إنه نشب بينها وبين أسرتها وإنها لا تريد أن تتحدث في الأمر.

- إذاً فقد نشب خلاف آخر بينكم، أليس كذلك؟

أومأت برأسها قائلة: إنهما لا يحبانني كثيراً.

- أعلم أن الأمر يبدو وكأنهما لا يحبانك، لكن في نهاية المطاف هما أسرتك، وأقول من باب اليقين أنهما يحبانك.

تسمرت ماريان دون كلمة أو حركة. وعندما خلدا إلى السرير عانت من بعض التشنجات. نهض من السرير وذهب لينظف أسنانه في الحمام الملحق بالغرفة؛ وهو غرفة ذات بلاط زهري اللون تزين زواياه بعض الشتلات وعلب مرطبات الوجه والعطور في كل ركن منه. سألها وهو يشطف فمه تحت الحنفية إن كانت تشعر بتحسن فأجابته من فوق السرير: أنا في أفضل حال، شكراً لك. انعكس وجهه على المرآة فتناهى إلى سمعه صوت ماريان من السرير تقول: تخيل سوء حالي لو أنك قابلت إحداهن يوماً ووقعت في حبها. كانت تحب المزاح في هذه الأمور. جفف كونيل فمه ثم أطفأ نور الحمام.

- هذا سيناريو متقن، في نظري.

- أنا أبذل جهدي.

عاد إلى السرير بجانبها ثم طبع قبلة على وجنتها فقد كانت في

مزاج سيئ بعد مشاهدة الفيلم لكنها كانت سعيدة في تلك اللحظة. لقد كان من كرامات كونيل أن يمنحها السعادة متى أراد، كانت سعادتها في يده يمنحها إياها كما يشاء. ماريان شخص مستقل ومعزول مع الآخرين، لكنها كانت شخصاً آخر معه، شخصاً مختلفاً، فقد كان الوحيد الذي يعرفها حق المعرفة.

أخيراً، أنهت بيغي زجاجة النبيذ وغادرت، فجلس كونيل إلى المائدة بينما كانت ماريان تودّعها. أُغلق الباب الخارجي فعادت ماريان إلى المطبخ لتغسل كأسها ثم وضعته مقلوباً فوق لوح التجفيف بينما ينتظرها لتنظر إليه.

- لقد أنقذتِ حياتي.

فاستدارت قبالته باسمة وهي تشمر أكمامها.

- ما كنت لألقى متعة في ذلك أنا أيضاً. ولو أنني أقدمت على الأمر، لكان ذلك فقط من باب نيل رضاك، والحال أنك لم تشأ علاقة من هذا النوع كما رأيت.

نظر إليها، وأمعن حتى سألته: ماذا؟

- يجب ألّا تفعلي أشياء لا تريدين فعلها.

- أوه، لكنني لم أقصد ذلك.

ثم لوحت بيديها في الهواء في حركة كأنها تعني منها أن الأمر غير ذي أهمية، إلّا أنه رأى عكس ذلك، فحاول تليين أسلوبه طالما أنه لم يكن منزعجاً منها على كل حال.

- حسنٌ، لقد كان هذا تدخلاً جيداً منكِ. أنت منتبهة لميولي.

- أحاول جاهدة في ذلك.

Bitterness-s

- لا أنكر ذلك. اقتربي مني.

جلست إلى جانبه فلمس خدّها وفجأة طوقه إحساس رهيب بأنه يستطيع صفعها بكل قوة دون أن تمانع هي أو تحتج. قضت الفكرة مضجعه لدرجة أنه سحب كرسيه واستقام واقفاً ويداه ترتعشان. لم يدر لِمَ فكر في ذلك، ربما لأنه أراد فعلها لكن ذلك أشعره بالوهن.

- ماذا خطبك؟

شعر بوخز في أصابعه صاحبه عسر في التنفس.

- أوه لا أعلم، لا أعلم، أنا آسف.

- هل فعلتُ شيئاً؟

- كلا، كلا، أنا آسف. لقد انتابني أمر غريب. . . أشعر بشيء غريب، لا أدري.

لم تبرح مقعدها، لكنها ستقف طبعاً إن طلب منها ذلك. بدأ قلبه ينبض بشدة ثم أحس بدوار.

- هل أنت مريض؟ لقد شحب وجهك.

- اسمعيني يا ماريان. أنت لست باردة الإحساس، أتعلمين ذلك؟ أنت لست كذلك إطلاقاً.

تفحصته بنظرات مريبة ورفعت رأسها قائلة: ربما كانت «باردة» كلمة غير مناسبة. لا يهم، دعك من هذا.

- لكنك لست شخصاً تصعب محبته، أتدرين؟ الجميع يحبك.

- يبدو أنني لم أوضح الأمر جيداً، فقط انس الأمر.

أوماً بينما لا يزال يجد عسراً في التنفس بشكل طبيعي. ما الذي قصدتِه إذاً؟ حملقتْ فيه ثم استندت واقفة في الأخير. يبدو وجهك

Bitterness-s

شاحباً للغاية، هل تحس بدوار؟ رد بالنفي فتناولت كفه وتحسستها ثم قالت له: إنها متعرقة. هز رأسه وهو يتنفس بصعوبة. قالت ماريان بهدوء: إن كنتُ قد فعلتُ شيئاً أزعجك، فأنا حقاً آسفة، فأطلق ضحكة مفتعلة وأبعد يده. كلا، لقد راودني شعور غريب لا أعرف ما هو، أنا بخير الآن.

Bitterness-5

بعد مضي ثلاثة أشهر
(يوليو 2012)

تقرأ ماريان خلفية علبة لبن في مركز التسوق بينما تمسك بيدها الأخرى على هاتف تنقل إليها موجاته صوت جوانا وهي تقصص على أسماعها إحدى الحكايات التي وقعت معها في العمل. وعندما تروي جوانا حكاية، فإنها تخوض في مونولوغ مستفيض فلا غرو أن تترك ماريان المحادثة لقراءة ما كتب على علبة اللبن. كان الجو دافئاً في الخارج فارتدت قميصاً وتنورة خفيفين، وأرسلت البرودة القادمة من ممر المبردات قشعريرة إلى ذراعيها. لم يكن من سبب يجعلها تقصد مركز التسوق عدا أن مشواراً كهذا سيوفر عليها المكوث في البيت مع أسرتها، كما أن كاريكلي لا توفر أماكن كثيرة قد يرغب شخص يحب العزلة في التواري عن الأنظار فيها. فلا تستطيع الذهاب لاحتساء فنجان قهوة في الشارع الرئيس لوحدها، وحتى مركز التسوق يفقد قيمته إذا لاحظ الناس أنها لا تبتاع مواد البقالة أو إذا وقعت عليها أنظار شخص يعرفها فيكون عليها الخوض في محادثة.

نصف الموظفين غير موجودين في المكتب ولا شيء يُنجَز هنا، لكنني أتقاضى راتبي في النهاية فلِمَ عساي أكترث، قالت جوانا.

Bitterness-s

ولأنها كانت قد حصلت على وظيفة، فقد دارت معظم محادثتهما عبر الهاتف بالرغم من أن كلتيهما تعيش في دبلن، ولا تزور ماريان كاريكلي إلا أيام عطلة نهاية الأسبوع، وهي أيام إجازة جوانا الأسبوعية. وغالباً ما تدور المحادثات حول وصف جوانا لمكتبها، من العاملين هناك والحوادث التي تندلع بينهم، كما لو أنها مواطنة بلد أجنبي لم يسبق لماريان زيارته؛ بلد العمالة المدفوعة الأجر. تعيد ماريان علبة اللبن إلى مكانها في المبرد وهي تسأل صديقتها إن كانت تجد غرابة في تقاضي راتب لقاء ساعات عملها في المكتب؛ بعبارة أخرى، مبادلة كمية ضخمة من وقتها المحدود على هذه الأرض لقاء الاختراع الإنساني المسمى المال.

- الوقت لا يعوض، أضافت ماريان. أقصد أن الوقت واقعي.

- وكذلك المال واقعي.

- لكن الوقت أكثر واقعية، فهو يتكون من عدد من المتغيرات الفيزيائية، عكس المال الذي يعتبر مقوماً اجتماعياً لا غير.

- صحيح، لكنني لا أزال حية حتى وأنا أعمل، ما زلت أنا، وما زلت أخوض التجارب. وبالمقابل أنت لا تعملين لكن الوقت يمر عليك أيضاً ولن تتمكني من استرجاعه يوماً.

- لكنني أستطيع تقرير ماذا أفعل به.

- وفي هذا سوف أجازف أن قرارك ذاك هو أيضاً مقوم اجتماعي.

فضحكت ماريان من قولها وهي تغادر ممر المبردات إلى ممر الأكلات الخفيفة.

- في الحقيقة أنا غير مقتنعة بفضيلة العمل. ربما بعض أنواع العمل ضرورية لكن هذا لا ينطبق على ما تقومين به، فكل ما تفعلينه

هو نقل الأوراق عبر المكتب ولا يعد ذلك إسهاماً في الجهود الإنسانية.

- ومن الذي قال شيئاً عن فضيلة العمل!

تناولت ماريان كيساً من الفواكه الجافة وتفقدته فإذا بداخله حبات الزبيب فأعادته إلى مكانه وتناولت آخر.

- أتظنين أنني أحكم عليك لكونك عاطلة عن العمل؟ سألت جوانا.

- أظنك تفعلين ذلك في أعماقك، فأنت تحكمين على بيغي.

- الحال مختلف مع بيغي فهي لديها عقلية الخمول والعطالة.

نقرت ماريان لسانها كما لو أنها توبخ جوانا على فظاظتها تجاه بيغي، لكن دون جهد كبير، فهي لا تزال تقرأ خلفية كيس تفاح مجفف.

- لا أريدك أن تصبحي مثل بيغي، فأنا أحبك كما أنت، قالت جوانا.

- أوه، إن بيغي ليست بهذا السوء. أنا الآن في طريقي إلى صندوق الدفع لذا سأنهي المكالمة الآن.

- طيب، يمكنك الاتصال غداً إن سمح مزاجك بذلك.

- أشكرك، أنت صديقة رائعة. إلى اللقاء.

وجدت ماريان طريقها إلى الصندوق ذاتي الخدمة متناولة قارورة من الشاي المثلج وحاملة كيس التفاح المجفف. عندما وصلت إلى طابور الصندوق الآلي، لمحت لورين تفرغ سلة تحوي العديد من المشتريات فتوقفت الأخيرة عند رؤيتها لماريان ملقية التحية: مرحباً! وضعت ماريان كيس الفاكهة المجففة على صدرها وردّت التحية.

Bitterness-s

- كيف هي أحوالك؟ سألت لورين.

- كل شيء على ما يرام، أشكرك. وأنت كيف حالك؟

- أخبرني كونيل أنك تحتلين المرتبة الأولى في دفعتك وتفوزين بالجوائز وغير ذلك. لم أتفاجأ بالتأكيد فهذا أمر مألوف منك.

تبسمت ماريان ابتسامة بدت حلوة وصبيانية. ضغطت كيس الفواكه الجافة فأحست بطقطقة أسفل قبضتها الرطبة، ثم مررته على الماسح الضوئي. كانت أضواء مركز التسوق بيضاء على شكل الكلور وماريان في إطلالة طبيعية دون أي مساحيق تجميل.

- أوه، لا شيء خارق للعادة.

برز كونيل في الركن المقابل يحمل ستة أكياس من رقائق البطاطس بنكهة الملح والخل، مرتدياً قميصاً أبيض اللون وسروالاً رياضياً مخططاً من الجنب. بدا أوسع المنكبين وهو ينظر إليها. لقد كان هناك طوال الوقت، ولربما رآها في ممر المبردات ومر بمحاذاتها سريعاً مخافة أن تلمحه وقد يكون سمعها تتحدث في الهاتف.

- مرحباً! قالت ماريان.

- مرحباً. لم أكن أعلم أنكِ في المدينة.

راح يحدق في والدته ثم مرر أكياس رقائق البطاطس على الماسح الضوئي ووضعها في منطقة التوضيب. بدا أنه تفاجأ بحق لدى رؤيته ماريان، وهو ما أكده تردده في النظر أو الحديث إليها على الأقل.

- لقد بلغني أنك أشهر من نار على علم هناك في دبلن، أترين؟ كل أخبار الكلية تصلني أولاً بأول، قالت لورين.

Bitterness-s

تحاشى كونيل النظر إليها وواصل أخذ باقي المشتريات من العربة وتمريرها على الماسح الضوئي: علبة أكياس الشاي، والخبز المقطع لشرائح.

- كل ما في الأمر أن ابنك يبالغ قليلاً، وهذا من لطفه.

ثم تناولت محفظة النقود خاصتها لتؤدي ثمن مشترياتها التي كلفت ثلاثة يوروهات وتسعة وثمانين سنتاً، فيما وزع كونيل ووالدته السلع على أكياس بلاستيكية قابلة لإعادة الاستعمال.

سألتها لورين: هل يمكن أن نصطحبك في السيارة؟

- لا، سوف أتمشى قليلاً لكنني أشكر لك عرضك.

- تتمشين! حتى بلاكفورت رود؟ لا، لا تفعلي ذلك، هيا سنوصلك في طريقنا.

أخذ كونيل الأكياس البلاستيكية واتجه نحو الباب قائلاً:

- هيا بنا.

لم تكن ماريان قد رأته منذ شهر مايو فقد عاد إلى كاريكلي عند نهاية الامتحانات فيما لبثت هي في دبلن. قال إنه يريد رؤية أناس آخرين فلم تمانع. وبما أنها لم تكن فعلاً خليلته في السابق، فالمنطق أنها ليست خليلته السابقة الآن؛ إنها لا شيء. صعدوا جميعاً على متن السيارة فاتخذت ماريان المقعد الخلفي بينما انهمكت لورين وابنها في حديث حول وفاة شخص يعرفانه، شخص كان طاعناً في السن فلم تسبب وفاته في حزن كبير. أما ماريان فأخذت تحدق عبر النافذة.

قالت لورين: لقد أسعدني لقاؤك. من الجميل رؤيتك على أفضل حال.

- أوه، أشكرك.

Bitterness-S

- كم تنوين البقاء في المدينة؟
- فقط عطلة نهاية الأسبوع.

أشار كونيل إلى مدخل ملكية فوكسفيلد ثم أوقف السيارة قبالة منزله فترجلت لورين ثم نظر إلى ماريان الجالسة خلفه عبر المرآة وقال لها: ألن تتقدمي إلى المقعد الأمامي؟ فأنا لست سائق سيارة أجرة. فأطاعت دون كلمة منها. فتحت لورين صندوق السيارة فتقلب في كرسيه. اتركي الأكياس، سوف أحضرها عند عودتي، قال كونيل. فرفعت يدها في موافقة، ثم أغلقت الصندوق وودعتهما.

كانت المسافة من منزله إلى منزل ماريان قصيرة فانطلق من أمام المبنى متجهاً إلى الدوار. قبل بضعة أشهر فقط، كان يقضي الليل سامراً مع ماريان يتجاذبان أطراف الحديث، وكان يشيح الغطاء عن جسدها في الصباح بابتسامة تعلو محياه قائلاً: أوه، مرحباً. لقد كانا أفضل صديقين. أخبرها بأنها صديقته المفضلة لما سألته يوماً عن صديقه المفضل. قال لها إنها هي. وفي نهاية شهر مايو أخبرها بأنه سيعود إلى منزله خلال الصيف.

- كيف حالكِ؟
- بخير، شكراً لك. وأنت كيف حالك؟
- أنا على أحسن حال.

بدل مستوى السرعة بحركة مستبدة من يده.

- هل ما زلت تعمل في ورشة صيانة السيارات؟
- تقصدين المكان الذي كنت أشتغل فيه سابقاً؟ لقد أغلق أبوابه.
- حقاً؟
- نعم. في الحقيقة أنا أعمل حالياً لدى مطعم بيسترو. لقد

Bitterness-s

رأيت والدتك هناك الليلة الماضية بصحبة، أوه... بصحبة خليلها أو أياً كانت علاقته بها.

أومأت ماريان وهما يمران قبالة ملاعب كرة القدم. بدأت السماء ترسل خيوطاً رقيقة من الغيث اصطدمت قطراتها بزجاج السيارة الأمامي، فشغل كونيل المساحات التي أنشأت تصدر إيقاعاً آلياً وهي تمور ذات اليمين وذات اليسار.

عندما ذهب كونيل إلى بيته بفوكسفيلد في الأسبوع المخصص للمراجعة قبل الامتحانات، الذي صادف فصل الربيع، طلب من ماريان أن تبعث له بصور لها وهي عارية. لا تقلقي سوف أحذفها من هاتفي متى أردتِ، جملة قالها كونيل فأوحت إليها بوجود نوع من الطقوس الجنسية خلف قصة الصور العارية هذه والتي لم يسبق لها أن سمعت بها من قبل. ولم عساك تحذفها؟ سألت ماريان من وراء سماعة الهاتف في شقتها بميريون سكوير، فطفق يشرح لها سياسة وآليات استخدام مسألة الصور العارية تلك باقتضاب؛ صور عارية يمنع عرضها على أنظار الأغيار وتحذف عند الطلب، وهلم جراً.

- هل تبعث لك الكثير من الفتيات هذا النوع من الصور؟

- في الواقع ليس لدي أي منها الآن. كما أنني لم يسبق لي أن طلبت ذلك من إحداهن من قبل، لكن يحدث أحياناً أن تبعث الفتيات بصورهن.

فطلبت منه أن يبعث لها بصور له بالمقابل فرد بهمهمة، مضيفاً:

- لا أعلم. أحقاً ترغبين في صورة لي؟

- نعم. لكن اعلم أنك إن بعثت بصورة لك، فلن أحذفها أبداً، لذا أظن أن عليك ألا ترسلها.

Bitterness-s

ضحك عندها قائلاً:

- كلا، لا يهمني إن حذفتها أو احتفظت بها.

فَرَدَتْ كاحليها وهي تقول: أقصد أنني سآخذها معي إلى قبري ولن أتوقف عن النظر إليها حتى آخر يوم في حياتي.

فانفجر ضاحكاً من قولها معلقاً: ماريان، أنا لست متديناً لكنني أكاد أجزم أن الرب خلقك من أجلي.

مرت ومضات الأنوار المنبعثة من المركز الرياضي عبر نافذته مخترقة الستار الضبابي الذي أحدثه هطول الأمطار. نظر كونيل إلى ماريان ثم إلى الطريق من جديد.

- وقد سمعت أنكِ على علاقة بذاك المدعو جيمي، أليس كذلك؟

- بلى.

- إنه ليس سيئ المظهر على كل حال.

- آه، حسناً. طيب، شكراً لك.

كانت قد مضت على علاقتها بجيمي بضعة أسابيع؛ شاب لديه بعض الميول التي يتشارك فيها مع ماريان. كان يحدث في بعض الأحيان أن تتذكر شيئاً قاله أو فعله لها جيمي، فتغادر طاقتُها جسدَها كلياً ويستحيل جسدها جثة جوفاء من دون روح، يستحيل وزراً فظيعاً لا تقوى على حمله.

- لقد سبق أن هزمته في لعبة البلياردو ذات مرة، لعلكِ نسيتي.

- كلا، لم أنس.

فأومأ مردفاً: لطالما كان معجباً بك. فراحت تحدق في السيارة القادمة في اتجاههما عبر زجاج السيارة الأمامي. هذا صحيح.

لطالما كان جيمي معجباً بها، فقد حدث مرة أن بعث لها برسالة نصية يضمر فيها أن كونيل لا يأخذ علاقتهما على محمل الجد، وكانت قد أطلعته عليها وضحكا منها، إذ كانا على السرير عندها والضوء المنبعث من شاشة هاتفها يضيء وجه كونيل. الأفضل أن تكوني مع شخص يأخذ علاقته معك على محمل الجد. هكذا جاء في الرسالة.

- وماذا عنك؟ هل تواعد إحداهن في هذه الفترة؟

- لا. لا شيء جدي.

- ها أنت ذا تعانق نمط حياة العزوبية.

- أنت تعرفينني.

- كنت أعرفك مرة.

اعتلت تعابير وجهه تكشيرة قائلاً: هذا فلسفي، فلم أتغير كثيراً خلال الأشهر القليلة الماضية.

- ولا أنا. في الواقع، لم أتغير قط.

في إحدى ليالي مايو أقامت صوفي صديقة ماريان حفلاً في البيت احتفاء بنهاية الامتحانات مستغلة غياب والديها إلى صقلية أو شيئاً من هذا القبيل. كان ينتظر كونيل امتحان آخر حينها، لكنه لم يأبه كثيراً وحضر الحفل أيضاً. حضر الأصدقاء جميعاً وقد يعزى هذا جزئياً لامتلاك عائلة صوفي مسبحاً ساخناً في الطابق السفلي، فقضوا معظم الليل في زي السباحة يغطسون ويخرجون، يحتسون الشراب ويتحدثون. جلست ماريان جانباً مع كأس نبيذ بلاستيكي، بينما كان بعض الأصدقاء يلعبون في المسبح حيث يعتلي بعضهم أكتاف بعض ويحاول كل منهم الإطاحة بالآخر في الماء. في اللعبة.

Bitterness-S

الثانية، اعتلت صوفي كتفي كونيل وقالت في إعجاب: يا له من جسد قوي وجميل، فراحت ماريان تتأملهما وهي في مقتبل الثمالة. كانت تتأمّل كم يبدوان رائعين معاً ويداه على ساقيها السمراوين الناعمتين، فخالجها إحساس الحنين إلى تلك اللحظة التي كانت تنقضي أمام عينيها، فنظرت إليها صوفي قائلة:

- لا تقلقي يا ماريان، لن أخطفه منك.

ظنت أن كونيل سيشيح بنظره إلى الماء ويتظاهر بعدم سماعها، بيد أنه نظر إلى ماريان وابتسم قائلاً:

- إنها ليست قلقة.

لم تكن تعلم ما الذي قصده بقوله هذا، لكنها ابتسمت على كل حال، ثم بدأت اللعبة. كانت تغمرها السعادة لكونها محاطة بأشخاص تحبهم ويبادلونها الحب ذاته. كانت تعلم أنها إن أرادت أن تتحدث، فقد يلتفت إليها الجميع ويصغي إليها بصدق واهتمام، وهذا ما جعلها سعيدة أيضاً، رغم أنه لم يكن لديها ما تقوله.

بعد نهاية اللعبة، اقترب منها كونيل ووقف في الماء حيث كانت تتدلى قدماها فطالعته بنظراتها. كنت أبدي إعجابي بكَ. فدفع خصلات شعره المنسدلة عن جبينه مجيباً: أنت دائماً تبدين إعجابكِ بي، فركلته بلطف ليضع يده حول كاحلها وراح يداعبه بأنامله. أنتَ وصوفي تشكلان فريقاً رياضياً، علقت ماريان فيما واصل مداعبة ساقها من تحت الماء في مشهد لطيف للغاية. قاطعه باقي الرفاق بمناداتهم إليه ليلتحق بالجهة الأعمق من المسبح حتى يكملوا اللعبة، لكنه اعتذر منهم وقفز للجلوس بقربها على حافة المسبح فتدلت قدماه تتلألأ بللاً ثم بسط راحتَي كفيه على البلاط خلفه حتى يسند جسده.

- اقتربي مني.

Bitterness-s

احتوى كونيل خصرها بذراعيه، وقد كانت تلك المرة الأولى التي لمسها أمام أي شخص آخر ولم يسبق لأصدقائهما أن شاهدوهما في وضع حميمي كهذا. استرسل البقية في لعبهم في المسبح يتناثرون بالماء ويصرخون.

- هذا لطيف، قالت ماريان.

أدار رأسه وطبع قبلة على كتفها العارية فضحكت مجدداً مشدوهة راضية. فحدق في اتجاه المسبح ثم أعاد بصره إليها.

- ها أنت ذي سعيدة وتبتسمين.

- أنت محقّ، أنا سعيدة.

أومأ باتجاه المسبح حيث غطست بيغي للتو وبدأ الجميع يضحكون.

- أهكذا هي الحياة؟

طالعت وجهه فلم تفلح في ترجمة تعابيره، لم تدر إن كانت تخفي سروراً أم بؤساً. ما قصدك؟ سألته فاقتصرت إجابته على هز كتفيه. وبعد ذلك بأيام، أخبرها بأنه سيغادر دبلن خلال الصيف.

- لم تخبريني أنك أتيت إلى كاريكلي.

أومأت ببطء، كما لو أنها تفكر في الأمر، كما لو أنها أدركت للتو أنها لم تخبره بنزولها إلى المدينة، ويا لها من فكرة مثيرة للاهتمام.

- إذاً ماذا؟ ألم نظل صديقين؟

- بل نحن صديقان.

- لكنك لا تردين على رسائلي كثيراً.

والواقع أنها كانت تتجاهله بحق. لقد اضطرت لإخبار الناس بما حدث بينهما؛ بأنه انفصل عنها وغادر العاصمة، ما فطر قلبها وأشعرها بالكدر، فهي من قدمته لأصدقائها وكانت تتحدث عن مدى متعة صحبته وعن مدى رهافة شعوره واتقاد ذكائه، فكافأها بمصاحبتها في شقتها كل ليلة تقريباً لنحو ثلاثة أشهر، يحتسي الجعة التي تقدمها له، ثم في طرفة عين تخلى عنها وأضحى أثراً بعد عين. لقد جعلها صنيعه هذا تبدو بلهاء ساذجة فضحكت بيغي من الأمر وقالت: بالتأكيد، إنها خصال الرجال جميعاً. أما جوانا فلم تجد في الموضوع ما يحتمل المزاح بقدر ما وجدته محيراً ومؤسفاً. فطفقت ترهقها بالأسئلة حول ما قاله كل واحد منهما تحديداً خلال انفصالهما ثم لاذت بالصمت كما لو كانت تعيد عرض المشهد في مخيلتها حتى تستوعب معناه.

سألتها جوانا إن كان كونيل يعرف شيئاً عن عائلتها فردت بأن الجميع في كاريكلي يعرفون بعضهم بعضاً، فهزت جوانا رأسها مستطردة: لكن ما قصدته هو هل يعرف طباعهم؟ فعجزت ماريان عن الإجابة، فقد شعرت أنها هي نفسها لا تعرف أسرتها وأنها لا تستطيع أن تفيهم بالوصف، فهي إما تبالغ في وصف سلوكاتهم، وهو ما يبعث في نفسها شعوراً بالذنب، وإما تهوّن منها، وهو ما يبعث في نفسها شعوراً بالذنب أيضاً، لكن هذه المرة شعور دفين وعميق. كانت جوانا تعتقد أنها تعرف طباع أسرة ماريان، لكن كيف لها - أو لأي شخص آخر - ذلك، إن كانت ماريان نفسها لا تعرفها؟ كونيل لم يكن يعرفها أيضاً، فهو شاب متزن وقد نشأ في كنف بيت يغمره الحب، يتوقع الأفضل من الجميع ولا يعرف شيئاً.

- كنت أعتقد أنك قد تبعثين لي برسالة نصية على الأقل في

حال قررت المجيء إلى المدينة. أجد غرابة في أننا تقابلنا في حين لم أكن أدري أنكِ هنا.

تذكرت حينئذ أنها كانت قد تركت قارورة في سيارته يوم سافرا إلى هوث في شهر أبريل ولم تستعيدها ثانية، وقد تكون لا تزال في درج السيارة فألقت نظرة خاطفة على الدرج، بيد أنها لم تكن ترغب في فتحه لأنه كان ليسألها عن قصة القارورة فتضطر لتذكيره برحلة هوث حيث كانا قد ذهبا للسباحة في البحر يومها وركنا السيارة بعيداً عن الأنظار واتخذا المقاعد الخلفية سريراً لهما، وسيكون ضرباً من الوقاحة أن تذكره بذلك اليوم وها هما الآن في تلك السيارة من جديد، فلم تقل شيئاً.

- لماذا أنتِ في المدينة على كل حال؟ هل جئت من أجل زيارة أسرتك وحسب؟

- إنها سنوية[1] والدي.

- أوه، لم أكن أعلم ذلك، ومتى تنظمون هذه السنوية، صباح الغد؟ قال وهو يحدق فيها.

- في العاشرة والنصف، ردت وهي تومئ برأسها.

- آسف بشأن ذلك، لقد كان غباء مني.

- لا عليك. في الواقع ما أتيت إلا على إلحاح والدتي فأنا لست من هواة السنويات.

- آه، نعم.

سعل كونيل بينما كانت تحملق عبر الزجاج الأمامي، وهما الآن يدخلان الشارع حيث تقطن. لم يسبق لهما الحديث عن والدها ولا عن والده.

---

(1) الذكرى السنوية للوفاة، وهي جزء من التقاليد الكاثوليكية - المترجم.

- هل ترغبين في مجيئي؟ بطبيعة الحال، لن آتي في حال لا ترغبين في ذلك، لكن لا مانع لدي من المجيء إن كانت هذه رغبتك.

نظرت إليه وقد زارها إحساس بالوهن في جسدها.

- أشكرك على عرضك، هذا لطف منك.

- أنا لا مانع لدي.

- لا عليك، لست مضطراً لذلك.

- لا بأس. فأنا أرغب في المجيء حقاً.

أوقف السيارة عند ممر السيارات المكسو بالحصى حيث لم تكن سيارة والدتها مركونة.

وقفا تحملق فيهما الواجهة البيضاء الضخمة، وقد كان شيء ما في ترتيب نوافذ بيتها يكسبه مظهراً صارماً.

- آسفة لأني تجاهلت رسائلكَ، لقد كان هذا تصرفاً صبيانياً مني.

- لا عليكِ. اسمعي، إن كنت ترغبين في إنهاء صداقتنا، فالأمر يعود لك.

- بل أريد أن تستمر صداقتنا.

أومأ برأسه وهو يربت بيده على المقود. بدا لها جسده ضخماً ولطيفاً، مثل كلب لابرادور. ودت لو تخبره بذلك وبأشياء أخرى كثيرة، لكن كان قد فات الأوان ولم يكن هذا لينفعها في شيء.

- طيب، أراكِ صباح الغد في الكنيسة، أليس كذلك؟

تنهدت مردفة: هل تريد الدخول لبعض الوقت؟ يمكننا احتساء فنجان شاي أو شيئاً ما.

- كان بودي ذلك لكن لدي مثلجات في صندوق السيارة لذا يجب علي الذهاب.

نظرت من حولها وتذكرت أمر المشتريات وقد روادها تشوش مفاجئ.

- ستقتلني لورين.

- آه، طبعاً.

ترجلت من السيارة فودعها ملوحاً بيده عبر النافذة. وسيأتي في صباح اليوم الموالي مرتدياً كنزة باللون الأزرق الغامق فوق قميص أبيض وتملأ البراءة محياه كمثل الحمل الوديع، ثم سيقف إلى جانبها في الرواق صامتاً ومكتفياً بمبادلتها النظرات في لفتة سند منه، ثم سيتبادلان الابتسامات فتعود صداقتهما إلى عهدها.

Bitterness-5

بعد مضي ستة أسابيع
(سبتمبر 2012)

اضطرت الحافلة للوقوف بسبب عرقلة حركة السير على يد حشد من المتظاهرين في المدينة، مما أخره ثماني دقائق عن موعده مع ماريان وهو لا يعرف حتى مكان المقهى، فلم يسبق له أن قابلها «من أجل فنجان قهوة». كان الجو دافئاً للغاية، حرارة ملتهبة وفي غير أوانها. وجد المقهى أخيراً في شارع كابل وسار مروراً بالكاشير في اتجاه الباب الخلفي وهو ينظر إلى الساعة على هاتفه فإذا بها الثالثة وتسع دقائق. خارج الباب الخلفي كانت ماريان تتخذ مجلسها في باحة التدخين الخالية من الناس، تحتسي قهوتها في هدوء المكان. لمحته فما برحت مجلسها.

– آسف لتأخري. لقد تأخرت الحافلة بسبب عرقلة السير على يد متظاهرين.

جلس على الكرسي قبالتها قبل أن يطلب أي شيء.

– لا بأس بذلك. ماذا كان موضوع الاحتجاجات؟ الإجهاض أو شيء من هذا القبيل؟

أحس بالخجل أنْ لم ينتبه إلى موضوع الاحتجاجات مستدركاً: لا أعتقد ذلك، ربما الضريبة على الدخل المعيشي للأسر أو خلافه.

Bitterness-S

- فليوفقهم الرب، فلتكن ثورة خاطفة وعنيفة.

لم يقابلها وجهاً لوجه منذ شهر يوليو، عندما عادت إلى بيتها في كاريكلي بمناسبة سنوية والدها. كان الشحوب يرهق شفتيها المتشققة بعض الشيء والهالات السوداء تحيط بعينيها. ورغم أنه كان يغتبط لدى رؤيتها في منظر حسن، إلا أنه كان يحس بتعاطف تجاهها إذا بدت في سقم أو بدت بشرتها شاحبة، كمثل رياضي مميز يقدّم أداء باهتاً في أحد مبارياته. جعلها منظرها هذا تبدو ألطف بطريقة ما. ترتدي بلوزة سوداء أنيقة وبدا رسغها أبيض ونحيلاً وشعرها مسدل إلى الخلف يتدلى بارتخاء حول رقبتها.

- نعم. في الحقيقة لو كانت احتجاجات عنيفة لوجدتني أتخذ مكاناً لي بين الحشود.

- أترغب أن تتعرض للضرب على يد أفراد الشرطة؟

- هناك أمور أبشع من الضرب.

أخذت ماريان رشفة من قهوتها على وقع كلماته تلك ثم تسمرت في منتصف حركتها والفنجان في يدها. وضعت بعدها الفنجان فوق الصحن.

- أشاطركَ الرأي.

- وما معنى هذا؟

- أي أنني أتفق معك في الرأي.

- هل طاردتكِ القوات مؤخراً أم تراني فوتت شيئاً؟

أخذت كيس السكر وأضافت القليل إلى فنجانها ثم راحت تحركه بالملعقة، وفي الأخير أخذت تحدق فيه كما لو أنها تذكرت وجوده هناك لتوها.

- ألن تطلب فنجان قهوة؟

Bitterness-s

أومأ برأسه وقد أحس بضيق في التنفس من مشيه طوال الطريق من الحافلة إلى المقهى، بجسد يرهقه الحر تحت ملابسه. استقام واقفاً واتجه عائداً إلى الغرفة الرئيسة حيث الجو أقل حرارة وأكثر عتمة، فدونت امرأة بأحمر شفاه فاقع طلبيته وقالت إنها ستحضرها إليه في الحال.

إلى حدود شهر أبريل، كان كونيل يخطط للعمل في دبلن خلال الصيف فيغطي مصاريف الإيجار، بيد أن رئيسه أخبره قبل بداية الامتحانات أن الظروف حتمت التقليص من ساعات عمله (وبالتالي من راتبه طبعاً)، وبالتالي لن يكسب إلّا مبلغاً ضئيلاً بالكاد يكفيه في سداد الإيجار فلا يبقى معه ما يصرف على حاجياته الأخرى. لقد كان يعلم بأن المطعم آيل للحل وقد غضب من نفسه غضباً شديداً إذ إنه لم يقدم على وظيفة في مكان آخر. وبعد أن شغل الموضوع تفكيره لأسابيع، قرر في نهاية المطاف أن ينتقل إلى كاريكلي خلال الصيف. لقد لقي لطفاً من نيال في هذا الأمر حيث أخبره بأن غرفته ستظل شاغرة من أجله في سبتمبر. وماذا عن ماريان؟ سأله نيال. نعم، نعم، في الحقيقة لا أدري، فلم أخبرها بعد.

والحال أنه كان يبيت في شقة ماريان معظم الأوقات، وكل ما كان عليه هو إحاطتها بوضعه والطلب منها أن يبقى في شقتها حتى سبتمبر، وهو يعلم أنها لن تمانع، فقد كان من الصعب حتى تخيلها ترفض طلبه. وبدل ذلك ألفى نفسه يماطل في الحديث عن الأمر ويماطل في الإجابة عن استفسارات نيال حيال الأمر، يخطط ليفاتح ماريان في الموضوع فيعجز عن ذلك في اللحظة الأخيرة. لقد كان الأمر أشبه إليه بمطالبتها بالمال، وهو الموضوع الذي لم يلج قط

Bitterness-s

دائرة نقاشاتهما. لم يتحدثا قط عن مسألة أن والدتها تدفع لوالدته المال لقاء مسح بلاطهم وغسل ثيابهم مثلاً، أو أن هذا المال كان يذهب بشكل غير مباشر إلى كونيل الذي ينفقها عليها أحياناً. وقد كان يكره أن تعتمر ذهنه أشياء كهذه فهو يعلم أن ماريان لا تفكر على هذا النحو نهائياً؛ لقد كانت تموّل نشاطاتهما طوال الوقت مثل العشاءات في المطعم وتذاكر المسرح؛ أشياء كانت تدفع ثمنها ثم، ومن فورها، تنسى أمرها تماماً.

ذهبا ذات ليلة إلى حفل أقيم في بيت صوفي ويلان بعد انتهاء الامتحانات، وقد كان يعلم أنه في الأخير سيتحتم عليه إخبارها بأنه سيغادر الشقة التي يقطنها مع نيال وسيسألها بصراحة إن كان بإمكانه البقاء معها في شقتها. قضيا ليلتها معظم الوقت في المسبح منغمسين في سحر المياه الدافئة الأخاذة. ظل فيها يعاين ماريان في بدلة السباحة الحمراء تنثر الماء من حولها. هوت خصلة من شعرها المبلل وتدلت على رقبتها وتسمدت ساطعة على جسمها. كان الجميع منهمكاً في الضحك واحتساء الشراب، أما عن كونيل فقد أحس بانعزال تام عن هذا النمط من الحياة؛ لم يكن يعرف أياً من هؤلاء، فبالكاد كان يثق فيهم، أو في نفسه. على جانب المسبح، اقترب من ماريان وقبّل كتفها باندفاع فتبسمت له فرحة، دون أن يلتفت إليهما أحد. ظن حينها أنه سيخبرها بشأن وضعه السكني ليلتها في السرير. لقد كان خائفاً من أن يخسرها، وعندما خلدا إلى السرير غطت في النوم. انتابته فكرة إيقاظها لكنه لم يقدر فقرر الانتظار لحين انتهاء الامتحانات حتى يتحدث إليها بشأن عودته لبيته في كاريكلي.

يومان بعد ذلك، وفوراً بعد إعداده ورقة بحثية حول المذهب

الرومانسي في عصر النهضة والعصور الوسطى، اتجه إلى شقتها وجلسا إلى الطاولة يحتسيان القهوة. أخذ يستمع إليها في لامبالاة، فقد كانت تقص عليه بعض أحداث علاقة معقدة طرفاها تيريزا ولوكران، منتظراً أن تنهي كلامها. بالمناسبة، يبدو أنني لن أستطيع تسديد الإيجار خلال هذا الصيف، قال في الأخير، فتطلعت إليه من وراء فنجان القهوة وقالت بثبات: ماذا؟

- كما سمعتِ، سأضطر لمغادرة الشقة.

- متى؟

- في القريب العاجل، لربما في الأسبوع المقبل.

تصلبت تعابير وجهها دون أن تفصح عن أية عواطف وقالت: ستعود إلى البيت إذاً.

فرك عظمة صدره حيث أحس بعسر في التنفس مردفاً:

- يبدو الأمر كذلك.

أومأت برأسها ورفعت حاجبيها قليلاً وأنزلتهما، ثم شرعت تحدق في فنجان القهوة مستطردة: ستعود في سبتمبر، على ما أفترض.

آلمته عيناه فأغمضهما عاجزاً عن فهم كيف حدث هذا؛ كيف انحرف مسار الحديث هكذا. لقد فات الأوان على إخبارها برغبته في المكوث بشقتها بكل تأكيد، لكن متى فات الأوان؟ بدا أن ذلك حدث في طرفة عين. فكر في أن يضع وجهه على الطاولة ويجهش في البكاء كطفل صغير، لكن، بدل ذلك، فتح عينيه مجدداً.

- نعم. لا داعي للقلق فلن أغادر الجامعة.

- إذاً ستغيب لثلاثة أشهر فقط، أليس كذلك؟

- بلى.

Bitterness-s

ساد الصمت طويلاً بينهما حتى كسره بقوله:

- لا أعلم. أعتقد أنك سترغبين في مقابلة أناس آخرين، أليس كذلك؟

أخيراً، وبصوت نزل عليه كقطعة ثلج باردة، قالت: بكل تأكيد.

انتفض واقفاً وأفرغ ما تبقى من الفنجان في حوض المطبخ ثم غادر الشقة ودموعه تخضب وجنتيه؛ كان يبكي بسبب رغبته المثيرة للشفقة في العيش في شقتها، وأيضاً بسبب فشل علاقتهما، لقد بكى وفقط، أياً كان السبب.

في غضون أسابيع معدودة، كانت ماريان تواعد شاباً آخر؛ أحد أصدقائها يدعى جيمي. كان والده أحد أولئك الذين تسببوا في الأزمة المالية، وليس هذا مجازاً، فقد كان بالفعل أحد المتورطين. خبر نقله إليه نيال عبر رسالة نصية قرأها وهو في العمل، فاتجه إلى الغرفة الخلفية ووضع جبينه على وحدة التخزين الباردة لنحو دقيقة كاملة. كان يدور في خلده أن ماريان رغبت منذ البداية في مواعدة شاب آخر. ولربما كانت سعيدة بمغادرته دبلن بسبب وضعه المادي حتى يتسنى لها الخروج مع خليل يمكّنه وضع أسرته المادي من أخذها في رحالات للتزلج، وها هي قد حصلت عليه الآن، فماذا يحملها على الرد على رسائل كونيل بعد الآن؟

وبحلول شهر يوليو، كان خبر علاقة ماريان الجديدة قد بلغ مسامع لورين حتى، كما أن كونيل نفسه كان يعلم أن موضوع علاقتها الجديدة على لسان الجميع في المدينة لأن جيمي ابن شخص سيئ السمعة في البلاد كلها، إضافة إلى نضوب ساحة النميمة من مواضيع أخرى.

- ومتى انفصلت عنها؟ سألته لورين.

Bitterness-s

- ومتى كنا معاً حتى ننفصل؟
- اعتقدت أنكما كنتما تتقابلان.
- أحياناً.
- يا لشباب هذا الزمان! أنا لا أفهم كيف تسيرون العلاقات بينكم.
- لستِ كهلة بعد.
- عندما كنتُ في المدرسة، كان من أعرافنا الوضوح في العلاقة؛ فإما أن تكون مع شخص ما وإما لا تكون.

حرك كونيل فكه وحملق في التلفاز بصورة عمياء.

- وكيف جئت أنا إلى هذه الدنيا إذاً؟

وكزته لورين لائمة فلم تبرح عيناه شاشة التلفاز التي كانت تعرض برنامجاً حول السفر، حيث تظهر شواطئ فضية ومياه زرقاء.

- ما كانت ماريان شيريدان لتدخل في علاقة مع شخص مثلي.
- وما الذي تقصده بـ«شخص مثلك»؟
- أعتقد أن خليلها الجديد أقرب إلى منزلتها الاجتماعية.

لاذت لورين بالصمت لعدة ثوانٍ أحس خلالها كونيل بأضراسه تحتك بهدوء.

- لا أعتقد أن هذا من خصال ماريان. إنها ليست من هذا النوع من البشر.

نهض عن الأريكة قائلاً: كل ما أستطيع إخبارك به هو ما حدث.

- ربما لم تنجح في تأويل ما حدث على النهج الصحيح. لكنه كان قد غادر الغرفة حينها.

Bitterness-s

بالعودة إلى خارج المقهى، كانت الشمس ترسل أشعتها القوية فتصهر الألوان جميعاً وتلسع بها كل ما تتعرض إليه. كانت ماريان تشعل سيجارة وعلبة السجائر على الطاولة. جلس، فابتسمت له من وراء غيمة الدخان الصغيرة رمادية اللون. خيل إليه أنها تتصرف بخجل لكنه لم يكن متأكداً.

- لا أعتقد أننا تقابلنا في مقهى من قبل، أليس كذلك؟

- ألم نتقابل حقاً؟ أظننا فعلنا ذلك من قبل.

كان يعلم أنه يتصرف على نحوٍ مثير للإزعاج لكنه واصل قوله: لا، لم نفعل.

- بل تقابلنا في مقهى من قبل وقد كان ذلك قبل أن نذهب لمشاهدة فيلم **النافذة الخلفية**، رغم أنني أظن بأن ذلك كان موعداً غرامياً أكثر منه شيئاً آخر.

فاجأته هذه الملاحظة فاكتفى في رده بهمهمة ليست لها أية دلالة.

انفتح الباب من ورائهما وبرزت المرأة تحمل فنجان القهوة، فشكرها كونيل وغادرت مبتسمة لتعود إلى الداخل، مغلقة الباب من خلفها، تاركة ماريان تشرح لكونيل رغبتها في أن يتعرف إلى جيمي أكثر. أتمنى أن تستأنسا بعضكما ببعض. قالت ذلك ثم نظرت إليه بتوتر مبرزة تعابير صادقة من وجهها مست جوارحه.

- نعم، بالتأكيد. أنا متأكد من ذلك.

- أعلم أنك ستتصرف بتحضر معه، ما أقصده أنا هو أن تنسجما مع بعضكما.

- سأبذل جهدي.

- وتجنب إرهابه.

سكب كونيل دفقة من الحليب في قهوته فطفى لونها على سطح الفنجان، ثم وضع الإبريق جانباً على الطاولة.

- آه، أرجو أن تكوني قد أخبرته بألا يرهبني هو أيضاً.

- كما لو كان مصدر إرهاب، حتى إنه أقصر قامة مني يا كونيل.

- لا تنحصر المسألة في القامة فقط، أليس كذلك؟

- في نظره أنت أطول قامة، إضافة إلى كونك الشخص الذي عاشر خليلته.

- أعجبتني طريقتك في الصياغة. أهكذا تحدثت إليه بشأن الأمر: كونيل، الشاب الذي عاشرني؟

- كلا، ردت ماريان ضاحكة ثم استطردت: لكن الجميع يعلم ذلك.

- هل تضيره مسألة القامة تلك؟ لن أستغلها، أنا فقط أريد أن أعرف.

تناولت ماريان فنجان القهوة فيما تسمر كونيل يفكر في طبيعة العلاقة التي يفترض أن تجمعهما الآن؛ هل كان يتفقان على ألا ينجذب أحدهما إلى الآخر بعد يومهما هذا؟ ومتى يفترض أن يكونا قد توقفا عن هذا الانجذاب؟ لم يوح إليه سلوكها بأي إشارة حول ذلك. والحال أنه كان يشتبه في أنها لم تزل تنجذب إليه، وأنها كانت تجد ذلك مضحكاً، مثل مزحة خاصة، كونها تستمتع بإعجاب شخص لم يكن أبداً لينتمي إلى عالمها.

بالعودة إلى شهر يوليو، حضر كونيل سنوية والد ماريان في كنيسة المدينة، كنيسة صغيرة تفوح منها رائحة المطر والبخور،

بألواح زجاجية ملوّنة. لم يكونا هو ولورين يحضران القداديس، وكان ذهابهما للكنيسة ينحصر في أيام الجنائز فقط. لدى وصوله، لمح ماريان منزوية في الردهة وقد بدت كلوحة فنية دينية، ولقد آلمه رؤيتها على حالها ذاك أيما ألم، فاق ما حذره منه الناس، فأطلق العنان لأفكار انحصرت في إيذاء نفسه كمثل إضرام النار في جسده أو قيادة سيارته لترتطم بشجرة فترديه صريعاً. لطالما خيلت له غريزته أن يلحق شر الأذى بنفسه وقتما اكتأبت نفسه وتكدرت، حيث إن تخيل ألم أسوأ وأشمل من ذاك الذي يعيشه بالفعل يسكن من ألمه ولو لفترة وجيزة، وربما كان مرد ذلك للطاقة الذهنية التي يتطلبها فعل التخيل والتوقف اللحظي لسيل الأفكار في دماغه، لكن لا يفتأ الأمر يزداد سوءاً بعد ذلك.

في تلك الليلة، بعد مغادرة ماريان إلى دبلن، خرج للشرب مع زملاء المدرسة، في البداية ذهب إلى حانة كيليهر ثم إلى ماكغوان ومن ثم ذهب إلى ملهى فانتوم الذي يوجد خلف الفندق. لم يجد أحداً من مقربيه، وبعد عدة كؤوس من الشراب، اتضح له أنه لم يأت من أجل الاختلاط مع الناس والتواصل معهم، بل من أجل الشرب حتى يقع تحت تخدير الثمالة. انسحب من المحادثة رويداً رويداً وركز على تجرع المزيد والمزيد من الكحول وتجنب الإغماء؛ لم يكن يضحك من النكت والطرائف التي تروى على أسماعه المغيبة؛ لم يكن يستمع إليها حتى.

هناك في ملهى فانتوم التقى بباولا نيري، مُدرسة مادة الاقتصاد في الثانوية. حينها كان كونيل ثملاً وكانت رؤيته مختلة، حيث كان يرى اثنين من كل شيء كمثل شبح هائم. ابتاعت باولا من أجلهم كؤوساً من التيكيلا. كانت ترتدي فستاناً أسود اللون وقلادة فضية،

Bitterness-5

وعندما نظرت إليه خيل إليه من سكره أنها تملك عيوناً كثيرة وليس اثنتين وكانوا يتحركون على نحو غريب في الفضاء فتحسبهم جواهر. فأنشأ يضحك مما شاهد، فدنت منه بحيث أصبحت أنفاسها أقرب إلى وجهه، سائلة إياه ما المضحك في الأمر.

لم يتذكر كيف وصل إلى بيتها؛ هل تراهما تمشيا طول الطريق أم استقلا سيارة أجرة؟ كان بيتها غير المؤثث يتميز بنظافة غريبة تتميز بها عادة البيوت التي يأهلها شخص واحد. بدت شخصاً من دون مواهب: لا رفوف كتب ولا آلات موسيقية. ماذا تفعلين في أوقات فراغك، سأل وهو يتلعثم. فأجابته قائلة إنها تخرج للتسكع والاستمتاع، فبدا له جوابها في منتهى الكآبة. سكبت كأسين من النبيذ فاتخذ من الكنبة الجلدية مجلساً وأفرغ الكوب في جوفه من باب إشغال يديه.

- كيف يبدو فريق كرة القدم هذه السنة؟ سأل كونيل.

- ليس كما كان عليه بوجودك.

جلست بقربه على الأريكة بينما كان فستانها ينزلق عن كتفها ببطء مشيحاً عن شامة فوق نهدها الأيمن. كان من شأنه النيل منها أيام الثانوية، لقد كان الناس يمزحون في الأمر، لكنهم كانوا ليصدموا لو أن هذا حدث فعلاً، كان لينتابهم الخوف. كانوا ليعتقدوا أن خجله أخفى أمراً قاسياً ومخيفاً.

- لقد كانت تلك أفضل سنوات حياتك، قالت له.

- ماذا؟

- لقد كانت تلك أفضل سنوات حياتك، أقصد سنوات المرحلة الثانوية.

حاول الضحك لكن الضحكة خرجت من جوفه مبتذلة ومضطربة.

Bitterness

- لا أعلم. ولو أن هذا صحيح فإنه لمدعاة للأسف.

أخذت في تقبيله، فبدا له من الغريب أن يحدث له ذلك، لا بل من الكريه ظاهرياً، لكن من المثير للاهتمام على نحو ما، كما لو أن حياته قد اتخذت مساراً جديداً. أحس في فمها بمذاق التيكيلا وقد استغرق لحظة في التفكير فيما إذا كان تقبيلها له أمراً مشروعاً أم لا، فانتهى إلى أنه لا بد أن يكون مشروعاً فلم يجد سبباً يجعله غير مشروع، ورغم هذا فقد أحس في أعماقه بأنه فعل مجانب للصواب. وفي كل مرة كان يتراجع للخلف مبتعداً عنها، كانت تتقدم نحوه حتى وجد نفسه في حيرة، لا يدري إن كان جالساً على الأريكة أم مائلاً على مسندها. ومن باب التجربة، حاول أن يستقيم جالساً، مما أكد له أنه كان بالفعل جالساً ثم اكتشف أن الضوء الأحمر الذي ظن أنه يطل عليه من السقف ما كان إلا مصباح زر تشغيل نظام الستيريو في الجهة الأخرى من الغرفة.

أيام الثانوية، كانت الآنسة نيري تضايقه بسلوكاتها تجاهه، لكن هل تراه الآن يتحكم في مضايقتها له من خلال السماح لها بتقبيله على أريكتها، أم أنه يرضخ لهذه المضايقات؟ لكن كان بالكاد قد صاغ هذا السؤال عندما أنشأت تفك أزرار سرواله، فحاول أن يثنيها مذعوراً لكن في حركة عديمة الجدوى فهمت هي منها أنه يحاول مساعدتها. فكت الزر العلوي فأخبرها بأنه ثملٌ وأنها يجب أن تتوقف عما تفعله، بيد أنها استمرت قائلة: لا بأس، لا يهمني هذا. فظن حينها أنه قد يفقد الوعي لكن لم يقو على ذلك، فتمنى لو أنه فقد الوعى فعلاً.

- أشعر بالغثيان، قال كونيل.

فتراجعت إلى الخلف ساحبة فستانها وراءها، فانتهز الفرصة

واستقام واقفاً من على الأريكة يزر سرواله، فسألته بحذر إن كان على ما يرام، فنظر إليها وإذا بها شخصان يجلسان على الكنبة، لا يستطيع أن يحدد أيهما كانت باولا الحقيقية وأيهما كانت الشبح الذي خيل له من سكره. استيقظ صباح اليوم الموالي كاسياً فوق بلاط غرفة الجلوس في بيته دون أن يدري كيف وصل إلى هناك.

- لا بد أنه يشعر بالنقص تجاه أمر ما، وأنا لا أعلم ماهية ذاك الأمر، لكنه ربما ود لو أنه ذو ذكاء متقد، قالت ماريان.

- أو لعله يتميز بالاعتزاز بالنفس.

- كلا. قطعاً. إنه...

جالت بعينيها ذات اليمين وذات اليسار وبدت بذلك مثل عالم رياضيات يقوم بحسابات ذهنية دقيقة، ثم وضعت الفنجان فوق الصحن.

- إنه ماذا؟

- إنه سادي.

أخذ كونيل يحملق فيها من وراء الطاولة، باسطاً تعابير وجهه التي حملت لها رهبته مما قالته، فردت عليه بابتسامة لطيفة وهي تقلب الفنجان فوق الصحن.

- هل أنت جادة؟

- في الواقع، يحب ضربي؛ فقط في علاقتنا الحميمة وليس عندما نتجادل أو نتشاجر.

ثم ضحكت ضحكة غبية لا تناسبها، بينما ارتعدت تقاسيمه في صورة قاسية لوهلة، كمن ينذر ببداية صداع نصفي قاسٍ، ثم رفع يده

Bitterness-s

إلى جبينه. أدرك عندها أنه خائف، فعادة ما يشعر في حضرتها ببراءة من نوع ما، رغم أن خبرته الجنسية تفوق خبرتها بكثير.

- وأنت تحبين ذلك؟

هزت كتفيها وسيجارتها لا تزال تحترق في المرمدة ثم تناولتها بخفة وسحبت منها نفساً قبل أن تطفئها.

- لا أعلم، لا أعلم، إن كنت حقاً أحب ذلك.

- ولماذا تسمحين له بفعل ذلك إذاً؟

- لقد كانت تلك فكرتي.

تناول كونيل فنجان القهوة خاصته وتجرع منه جرعتين ساخنتين، راغباً في شغل يديه بأمر ما، وعندما أعاد الفنجان إلى موضعه، انقلب وانهرق على الصحن.

- ما الذي تعنينه؟

- لقد كانت فكرة الرضوخ لنزواته فكرتي. يصعب شرح ذلك.

- حسنٌ، فلتحاولي إن أردت، إنني مهتم بالموضوع.

ضحكت من جديد قائلة: سيسبب لك ذلك شعوراً غريباً.

- طيب.

راحت تتفرسه بنظراتها؛ ربما للتبين من جديته. رفعت ذقنها فعَلِمَ أنها لن تتراجع عن إخباره لأن هذا سيعني استسلامها لأمر لا تؤمن به.

- أنا لا أرمي من وراء ذلك إذلال نفسي، بل إنني أحب فكرة السماح لأحدهم بإذلالي إن طلب مني ذلك، هل تفهمني؟ لا أعلم إن كان لقولي أي معنى، فقد شغل هذا الأمر تفكيري مؤخراً. إن للأمر علاقة بالدينامية، أكثر مما يحدث بالفعل. على كل حال، أنا

مَن اقترحت عليه أن أسمح له بإذلالي، فاكتشفت أنه يحب أن يضربني.

أخذ كونيل في السعال بينما تناولت ماريان ملعقة خشبية من برطمان على الطاولة وراحت تقلبها بين أناملها، فيما انتظر هو موجة السعال لتخمد حتى يقول لها: ماذا يفعل لك تحديداً؟

- أوه، لا أعلم. أحياناً يضربني بحزامٍ وأحياناً يحب خنقي، أشياء من هذا القبيل.

- طيب.

- افهمني، أنا لا أجد متعة في ذلك. لكن المرء لا يخضع للإذلال إذا قبل فقط الخضوع للأشياء التي يستمتع بها.

- وهل كنت تحملين هذه الأفكار طوال الوقت؟

قصفته بنظرات الريبة فأحس بالخوف يلتهمه ويحوّله إلى شيء آخر غير نفسه، كما لو أنه عبر نهر الخوف، وكما لو أن النظر إليها أشبه بالسباحة عبر شريط مائي للوصول إليها. تناول علبة السجائر ونظر داخلها. راحت أسنانه تصطك فأخذ سيجارة ووضعها بين شفتيه وأضرم فيها نار الولاعة. لقد كانت ماريان الإنسان الوحيد الذي يحرك هذا النوع من المشاعر في داخله؛ ذلك الإحساس الانفصامي الغريب كمن يغرق في الأعماق والزمن متوقف تماماً.

- لا أريدك أن تظن أن جيمي شخص وضيع.

- يبدو لي كذلك بالفعل.

- إنه ليس كذلك.

سحب كونيل نفساً من سيجارته وترك عينيه نصف مغمضتين لوهلة. كانت الشمس دافئة جداً. كان يحس بقرب جسد ماريان وبطعم الدخان في فمه ومرارة بقايا طعم القهوة.

- ربما أحب أن أعامل بقسوة وبسوء، لا أعلم. أحياناً تنتابني فكرة أنني أستحق أن أعامل شر المعاملة لأنني شخص سيء.

تنهد كونيل متذكراً أيام الربيع في دبلن عندما كان يستيقظ في الليل بقربها، فإذا كانت مستيقظة أيضاً يزحفان في اتجاه بعضهما البعض فيحضنان بعضهما دون أن يحتاجا إلى الكلام. لم يجد في حياته ما يقارنه بما كان يحس به في تلك اللحظات. بعدها يخلدان إلى النوم مفترشان أحضان بعضهما ومتلحفان ذراعَي بعضهما والصمت يطبق على الغرفة.

- لم تتحدثي إلي بشأن هذا الأمر عندما كنا. . .

- لقد كان الأمر مختلفاً معك. لقد كنا. . . أنت تعلم. لقد كانت الأمور مختلفة معك.

قلبت الملعقة الخشبية الصغيرة بين يديها ثم أطلقتها من أحد الجانبين حتى ارتدت من أصابعها.

- هل عليّ أن أشعر بالإهانة؟

- كلا، إن أردت أن تسمع التفسير البسيط فلا مانع لدي.

- أتقصدين أنها كذبة؟

- كلا.

لاذت بالصمت ثم وضعت الملعقة الخشبية على الطاولة بعناية، محرّرة يديها، وأخذت تداعب شعرها.

- لم أكن أحتاج اللعب في العلاقة معك فهي علاقة حقيقية. أما العلاقة مع جيمي فهي أشبه بتجسيد دور ما، فأنا أتصنع تلك الأحاسيس، أختلقها من عندي فأوهمه بخضوعي له. أما معك، فقد كان كل ما أفعله وكل ما أحس به طبيعياً، وقد كنتُ لأفعل كل ما

Bitterness-s

تطلبه مني. أترى؟ ها أنا أتصرف كخليلة سيئة، وخائنة، فمن ذا الذي لن يرغب في ضربي؟

وارت عينيها خلف يديها وهي تتبسم ابتسامة التعب وكره الذات، بينما مسح راحة يده على حجره.

- ما كنت لأرغب في ذلك. ربما أنا شخص من الطراز القديم من هذه الناحية.

أشاحت بيدها بعيداً ثم نظرت إليه، محافظة على ابتسامتها، وشفتاها لا تزلان متشققتين.

- أتمنى أن نتوافق في مواقفنا دائماً، فهذا أقرب إلى قلبي.

- طيب. هذا جيد.

حدقت فيه من جديد كما لو أنها تراه للمرة الأولى منذ جلوسهما معاً.

- دعنا من هذا، كيف حالك أنتَ؟

ولقد علم أن سؤالها ذاك كان صادقاً، فهو ليس شخصاً يرتاح للبوح بمكنوناته للآخرين أو لطلب الأشياء منهم. لقد كان يحتاج ماريان لهذا السبب، وهي حقيقة أدركها حديثاً؛ ماريان شخص يمكنه أن يطلب منها أشياء، ورغم أن العلاقة بينهما تحدق بها بعض المصاعب ومشاعر الاستياء، فإنها مستمرة وحية، وهذا ما يجده لافتاً ومؤثراً إلى حد ما.

- لقد حدث لي أمر غريب خلال الصيف، هل لي أن أخبركِ به؟

Bitterness-5

بعد مضي أربعة أشهر
(يناير 2013)

ماريان في شقتها مع أصدقائها عقب نهاية امتحانات استحقاق المنح الجامعية هذا الأسبوع، وقبل بداية الفصل الدراسي الجديد يوم الاثنين. كانت تشعر بتعب شديد كمثل قدر انقلب على عاقبه. كانت تدخن سيجارتها الرابعة ذاك المساء أحست معها بحموضة غريبة في صدرها، كما أنها لم تكن قد تناولت عشاءها. أما وجبة غدائها فانحصرت في حبة يوسفي وقطعة خبز محمص حافٍ. بيغي متكئة على الكنبة تقصص عليهم سفرها في القطار عبر أوروبا، ولسبب ما، تصر على شرح الفرق بين غرب وشرق برلين فتنهدت ماريان قائلة في لامبالاة: نعم، لقد سبق لي زيارتها.

استدارت إليها بيغي وقد اتسعت حدقتا عينيها هازئة: ذهبت إلى برلين؟ لم أكن أعتقد أن أهل محافظة كوناكت يُسمح لهم بالسفر إلى أماكن بعيدة مثل برلين.

ضحك بعض الأصدقاء من قولها بلطف فأسقطت ماريان رماد سيجارتها في مرمدتها الخزفية الموضوعة فوق ذراع الكنبة معلقة: مضحك جداً.

- لا شك أنك حصلت على إجازة من عملك في المزرعة من أجل ذلك، قالت بيغي.

Bitterness-5

- قليلاً.

فتابعت بيغي قصتها بعد ذلك. لقد اعتادت في الآونة الأخيرة على النوم في شقة ماريان في غياب جيمي، وتحرص على تناول الفطور في سريرها وقد يبلغ بها الأمر أن تتبعها إلى الحمام بينما تستحم وهي تقلم أظافر قدميها في لامبالاة وتتذمر بشأن الرجال. كانت ماريان تحب وصفها لها بصديقتها المميزة رغم ما يتطلبه هذا من تضحية بجزء كبير من وقت راحتها. لكن الأدهى من هذا أن بيغي قد بدأت، في بعض الحفلات مؤخراً، تتخذها مادة للسخرية في حضرة الآخرين. وإرضاءً للأصدقاء، كانت ماريان تتصنع الضحك فيتلوى وجهها، ما يمنح بيغي فرصة أخرى للسخرية منها. وعندما ينصرف الجميع وتبقيان وحدهما، تحتضن كتفَي ماريان قائلة: لا تغضبي مني، فترد ماريان في صوت رقيق وبنبرة دفاعية: أنا لست غاضبة منك. والآن، ما هي إلا سويعات أيضاً حتى يتكرر الحوار نفسه بينهما.

وبعد أن خلصت حكاية برلين تلك، تناولت ماريان زجاجة نبيذ أخرى من المطبخ ثم أعادت ملأ كؤوس الحاضرين.

- بالمناسبة، كيف جرت الأمور مع الامتحان؟ سألت صوفي.

ردّت ماريان بهز كتفيها على نحو مضحك فكافأها الحضور بضحكة لطيفة. لم يكن الأصدقاء على دراية بدينامية العلاقة بين ماريان وبيغي، فكانوا يتطوعون بضحكات إضافية كلما حاولت ماريان تجسيد دور كوميدي، لكن على نحوٍ يمكن أن يوحي بأنه تعاطف منهم أو إشفاق أكثر مما يوحي بالتسلية.

- اصدقينا القول يا ماريان، لا شك أنك قد أخفقت في الامتحانات أليس كذلك؟ سألت بيغي.

Bitterness-s

تبسمت ماريان ثم تجهّمت وأعادت الغطاء إلى زجاجة النبيذ. كانت امتحانات استحقاق المنح قد انقضت منذ يومين وشاركت فيها كل من ماريان وبيغي.

- كان يمكن أن تمر أحسن من ذلكة، قالت ماريان بأسلوب ديبلوماسي.

- هذه شخصيتك تماماً يا ماريان، فأنت أذكى شخص في هذا العالم لكن دائماً ما تكون النتائج دون المستوى المتوقع، علّقت بيغي.

- يمكنك أن تترشحي لاجتيازها العام المقبل، قالت صوفي.

- لا أعتقد أنها سترسب، أردفت جوانا.

تحاشت ماريان النظر في عيني جوانا وأعادت زجاجة النبيذ إلى الثلاجة. يستفيد من يحصل على منحة من خمس سنين من الرسوم الجامعية المدفوعة ومن السكن الجامعي المجاني ومن وجبات العشاء في قاعة الطعام كل مساء بمعية باقي الباحثين. أما بالنسبة لماريان، التي لم تكن تدفع لا الإيجار ولا الرسوم الجامعية ولم تكن لديها أدنى فكرة عن تكاليف هذه الأشياء، بما أن أسرتها هي التي كانت تتكفل بذلك، فقد دخلت غمار امتحانات استحقاق المنح هذه من باب السمعة لا غير، فقد أرادت أن تنال اعترافاً بتفوقها الفكري؛ اعتراف عام من خلال تلقي تحويلات مالية كبيرة. والواقع أنها أبلت بلاء حسناً في الامتحانات.

- لقد حاول أستاذ الإحصاء إقناعي بخوض هذه الامتحانات، لكنني لم أشأ تعكير صفو عطلة عيد الميلاد بالدراسة والمراجعة، قال جيمي.

أطلقت ماريان ابتسامة جوفاء أخرى، لأن جيمي لم يخض

Bitterness-S

الامتحانات لأنه كان يعلم أنه راسب لا محالة، وجميع من في الغرفة يعلم ذلك. كان يحاول التبجح لكنه افتقر للإدراك الذاتي لفهم أن قوله سهل تأويله أنه من ضرب التبجح وأن لا أحد يصدّقه أصلاً. لقد كان هناك شيء مُطَمْئِن في الشفافية التي تقرأه بها.

في بداية علاقتهما، ودون أي تفكير مسبق، أخبرته بأنها «خاضعة»، وقد تفاجأت أنْ ألفت نفسها تتفوه بكلام كهذا، فلربما فعلت ذلك لتصيبه بالصدمة. ما الذي تقصدينه؟ فردت: في الحقيقة، أتلذذ بالتعرض للعنف الذكوري. فبدأ بعدها يربطها ويضربها بالعديد من الأشياء، وكلما تذكرت مدى قلة احترامها له شعرت بالاشمئزاز تجاه نفسها وخيم عليها إحساس بكره الذات، مما يثير في داخلها رغبة جامحة في الانصياع، وبشكل من الأشكال، في الانكسار. وكلما فكرت في الانفصال عنه، وهو أمر يحدث كثيراً، لا يشغل بالها ردة فعله هو بقدر ما تشغلها ردة فعل بيغي.

بيغي معجبة بجيمي، مما يعني أنها تعتقد أنه فاشي، لكنه فاشي منزوع القوة في حضرة ماريان، التي تشتكي منه أحياناً وتكتفي بيغي بقول أشياء من قبيل: وماذا تنتظرين من شوفيني قذر؟ تعتقد بيغي أن الرجال حيوانات مثيرة للاشمئزاز تعجز عن كبح اندفاعاتهم، وأن على النساء أن يتوقفن عن الاتكال عليهم فيما يتعلق بالدعم العاطفي. لقد تطلب من ماريان وقت طويل لتفهم أن بيغي تتخذ تصورها النقدي العام تجاه الرجال قناعاً للدفاع عن جيمي كلما اشتكت منه ماريان. وماذا كنت تتوقعين؟ أو: أتعتقدين أن هذا أسوأ ما فيهم؟ إن جيمي أمير بالقياس إلى بشاعة الرجال. هي أمور اعتادت بيغي قولها، ولم تفهم ماريان سبب ذلك. وكلما اقترحت ماريان، ولو بصورة مبدئية، إنهاء علاقتها بجيمي، تستشيط بيغي

Bitterness-s

غضباً. وقد حدث أحياناً أن نشبت بينهما شجارات حول ذلك، شجارات تنهيها بيغي بإعلانهاالمفاجئ أنها لا تأبه بشأن انفصالهما من عدمه على كل حال، فترد ماريان متعبة مرتبكة قائلة إنهما ربما لن ينفصلا.

ما إن عادت ماريان إلى الجلوس حتى بدأ هاتفها يرن، فإذا به رقم غير مسجل في وجهات الاتصال لديها، فاستقامت واقفة لترد على المكالمة ملوحة بيدها للآخرين بالاسترسال في حديثهم.

- ألو؟

- مرحباً، أنا كونيل. أعلم أن هذا غريب لكنني تعرضت للسرقة للتو؛ لقد فقدت محفظة نقودي وهاتفي وأشياء أخرى.

- رباه! هذا فظيع، ما الذي حدث بالضبط؟

- أنا فقط أتساءل... أترين، أنا الآن في دون لاوجير وليس لدي فلس حتى لأستقل سيارة أجرة، فقط أردت أن أعرف إن كان بإمكانك مقابلتي وإقراضي بعض المال.

كانت نظرات أصدقائها مسلطة عليها فأشارت إليهم أن يسترسلوا في حديثهم، فيما واصل جيمي مراقبتها من كرسيه وهي تتحدث في الهاتف.

- بالتأكيد، يمكنك ذلك. أنا الآن في المنزل، هل يمكنك أن تستقل سيارة أجرة؟ سأقابلك في الخارج وأدفع للسائق، هل يناسبك هذا؟ يمكنك قرع الجرس لدى وصولك.

- حسناً، شكراً لك. أنا استعرت هاتف أحدهم والأفضل أن أنهي المكالمة الآن. أراك بعد قليل.

قطع كونيل الاتصال بينما تفرس فيها أصدقاؤها في ترقب وهي

تحمل الهاتف في يدها وتستدير لتواجههم. شرحت لهم ما جرى فعبروا جميعاً عن تعاطفهم تجاه كونيل. كان الأخير لا يزال يرتاد حفالتها في بعض الأحايين ولو أنه كان يكتفي باحتساء مشروب على جناح السرعة قبل أن يقذف به الليل إلى مكان آخر. وفي شهر سبتمبر، أخبر ماريان بما جرى بينه وبين باولا نيري، فشعرت ماريان بغضب غريب، لم تشعر به قط من ذي قبل. أعلم أنني أكبر الموضوع، فما فعلته ليس بهذا السوء، غير أنني أحس بالامتعاض تجاه ذلك. فردت ماريان بصوت متجمد: لكم أود قطع حنجرتها. فتطلع إليها ضاحكاً من وقع الصدمة يقول: رباه! ماريان! لكم أود ذلك، قالت متوهجة إصراراً فهز رأسه معقباً: يجب أن تكبحي اندفاعاتك العنيفة، فلا يمكن أن تجوبي البقاع تقطعين حناجر العباد هكذا ببساطة، إذ سيكون مآلك السجن لا محالة، قال كونيل قوله هذا وضحك منه دون تذمر منها، لكنها استطردت في هدوء:

- لئن تجرأت ولمستك ثانية لفعلتها وليكن ما يكون.

لم يكن في حقيبتها سوى بعض الفكة لكن لديها ثلاثمائة يورو في درج المنضدة قرب سريرها، فتوجهت إلى غرفة النوم دون أن تشعل النور وصوت غمغمة أصدقائها لم يزل يتسلل إلى آذانها من وراء الجدار. تناولت الورقات النقدية من الدرج؛ ست ورقات من فئة خمسين يورو، فأخذت ثلاثاً منها وطوتها ووضعتها في حقيبتها بسكون ثم جلست على حافة سريرها، غير راغبة في الخروج من فورها.

كانت الأجواء مشحونة في بيتها أيام عيد الميلاد، فآلان يصاب بالتوتر كلما استقبلوا ضيوفاً في المنزل. وذات ليلة، بعد أن غادر

Bitterness-s

خالهما وخالتهما، تبع آلن ماريان إلى المطبخ حيث أخذت فناجين شاي الضيوف لتغسلها.

- انظري لحالك، تتبجحين بشأن نتائج الامتحانات!

فتحت حنفية الماء الساخن وتأكدت من درجة حرارته بأصابعها بينما ظل آلان واقفاً عند الباب عاقداً ذراعيه.

- لم أكن أنا من افتتح الموضوع، بل هما.

- إن كانت الامتحانات هي كل ما في حياتك من إنجازات لتتبجحي بشأنها فأنا أرأف لحالك.

ارتفعت حرارة الماء النازل من الحنفية فوضعت السدادة المطاطية في فتحة البالوعة وعصرت القليل من صابون غسل الصحون على قطعة الإسفنج.

- أتصغين إلي؟

- نعم إني أصغي إليك، أنت ترأف لحالي.

- يا لك من فتاة مثيرة للشفقة.

- لقد وصلت رسالتك.

وضعت أحد الفناجين على لوح التجفيف وغطست الآخر في الحوض المليء بالماء الساخن.

- هل تعتقدين أنك أذكى مني؟

مررت قطعة الإسفنج داخل الفنجان مجيبة: هذا سؤال غريب، ولا أعلم له إجابة، ولم أفكر فيه قط من قبل.

- أنتِ لستِ أذكى مني.

- طيب، مفهوم.

- طيب مفهوم. قلدها بصوت أنثوي متدلل مستطرداً: لا عجب أنْ لا أصدقاء لك، فأنت عاجزة حتى عن الحديث كما الناس.

Bitterness-5

- صحيح.
- عليكِ أن تسمعي ما يقوله الناس عنك في المدينة.
ولأنها وجدت الفكرة من ضرب التفاهة، فقد ضحكت لاإرادياً فما كان منه، والحنق يتلبسه، إلا أن أمسكها من ذراعها وجرها من الحوض ثم بصق عليها بعفوية ظاهرة، ثم أفلتها لتسقط إحدى قطرات البصاق على تنورتها. عظيم، قالت له، هذا حقاً مقزز. فاستدار آلان وترك المطبخ ثم استأنفت غسل الأواني. وبينما هي تضع الفنجان الرابع على لوح التجفيف أحست برعشة خفيفة في يدها اليمنى.

وفي يوم عيد الميلاد، مدت إليها والدتها ظرفاً بداخله خمسمائة يورو من دون حتى بطاقة معايدة؛ ظرف صغير بني من الأظرفة التي اعتادت أن تضع فيها راتب لورين. شكرتها ماريان فقالت لها في استخفاف: تراني قلقة قليلاً بشأنك. تحسست ماريان الظرف بأصابعها محاولة تنظيم قسمات وجهها في تعبير مناسب وقالت: وماذا بشأني؟

- ماذا ستفعلين بعد الجامعة؟

- في الواقع لا أدري. أمامي العديد من الخيارات المتاحة. أنا أركز حالياً على دراستي في الجامعة فقط.

- وماذا بعد ذلك؟

ضغطت ماريان بإبهامها على الظرف حتى لطخته فظهرت بقعة قاتمة خافتة على الورق ثم أردفت: كما قلت لك، لا أدري.

- إني أخاف أن تُصدمي بحقيقة العالم خارج أسوار الجامعة.

- وكيف ذاك؟

- لا أعلم إن كنت تدركين أن البيئة الجامعية بيئة حامية آمنة. فميدان العمل عكس ذلك تماماً.

Bitterness-s

- في الحقيقة، لا أعتقد أن أحدهم سيبصق عليّ بسبب جدال ما في ميدان العمل، فلا يُسمح بهذه الأمور هناك.

أطلقت دينيس ابتسامة مشدودة وأردفت: إن كنت عاجزة عن تدبر أمر خصومة أخوية تافهة فلا أعتقد أنك قادرة على مواجهة حياة الراشدين يا عزيزتي.

- فلنرى.

ضربت دينيس براحة كفها على طاولة المطبخ لدى سماعها هذا، فأجفلت ماريان لكنها لم تنظر إليها ولم تبرح يدها الظرف.

- أنتِ تعتقدين أنك مميزة، أليس كذلك؟

أغمضت ماريان عينيها مجيبة: لا، أنا لا أعتقد ذلك.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة الواحدة صباحاً تقريباً عندما قرع كونيل الجرس فنزلت ماريان الدرج حاملة حقيبتها لتجد سيارة الأجرة مركونة خارج المبنى. في الساحة المقابلة لبيتها، لمحت غيمة تكلل الأشجار الوارفة تكليلاً، فما أروع ليال الشتاء، عبارة فكرت في قولها لكونيل الذي كان واقفاً يتحدث إلى السائق عبر النافذة، فاستدار لمواجهتها لدى سماعه أزيز الباب، فإذا بفمه مجروح والدم ينزف منه، دم متختر داكن كمثل الحبر الجاف فتراجعت إلى الخلف من هولها واضعة يدها على ترقوة صدرها. أعلم ذلك، لقد رأيت وجهي في المرآة لكني على ما يرام. كل ما أحتاجه هو أن أنظف هيئتي، قال كونيل وهي تدفع الأجرة للسائق في حال من الاضطراب، بحيث إنها كادت توقع فكة النقود في إحدى البالوعات. على الدرج في الداخل، رأت شفته العليا منتفخة ومشكّلة كتلة صلبة ولامعة على الجهة اليمنى، وأسنانه ملطخة بالدم.

Bitterness-s

رباه، ما الذي حدث لك؟ فأخذ يدها بلطف وأخذ يداعب مفاصل أصابعها بإبهامه شارحاً:

- طلب مني أحدهم حافظة نقودي فأبيت ذلك، فما كان منه إلا أن سدد لي لكمة على وجهي. أظن أنني لم أحسن التصرف فقد كان علي إعطاؤه المال. آسف لأني اتصلت بك فقد كان رقمك كل ما احتفظت به ذاكرتي.

- أوه، كم هذا فظيع يا كونيل! على أي حال لدي بعض الأصدقاء في الداخل فاختر ما يناسبك؛ هل تريد أن تستحم وتقضي ليلتك هنا أم أنك تريد فقط المال ثم ترحل؟

كانا واقفين أمام باب البيت.

- اختاري ما يناسبك أنت. بالمناسبة، أنا سكران حد الثمالة، أنا آسف.

- ثمل؟ كيف؟

- في الواقع، لقد غبت عن البيت منذ الامتحانات، لا أعلم، هل ما زال البؤبؤان في مكانهما؟

تفقدت عينيه فلمحت بؤبؤي عينيه قد استحالا منتفخين كرصاصتين سوداويين.

- نعم، هما ضخمتان.

داعب يدها من جديد وأردف بصوت خفيض:

- أوه، حسناً، يصبحان على هذا الشكل كلما رأيتكِ.

فضحكت وهي تهز رأسها قائلة:

- لا أشك أنك ثمل ما دمت تتغزل بي، فجيمي بالداخل كما تعلم.

أخذ كونيل نفساً من أنفه ثم تطلع وراء كتفه.

- ربما ينبغي لي العودة إلى الخارج لأتلقى لكمة أخرى فلم يكن الأمر بهذا السوء على كل حال.

تبسمت له، لكنه أفلت يدها ففتحت الباب.

في غرفة الجلوس، احتشد أصدقاؤها متلهفين لسماع أطوار الحادث فقصها على أسماعهم بأقل قدر من الدراما. آتته ماريان بكوب من الماء فأفرغه في فمه ومضمض جيداً قبل أن يبصقه في حوض المطبخ فخرج الماء من فمه ورديا كالمرجان.

- حثالة قذر، قال جيمي.

- من، أنا؟ هذا ليس لطيفاً، فليس كل الناس يحضون بفرصة الدراسة في مدرسة خاصة كما تعلم، علّق كونيل.

ضحكت جوانا، أما ماريان فتعلم أن كونيل ليس من النوع العدائي وكانت تتساءل ما إذا نشطت تلك اللكمة على وجهه طبع العدائية فيه.

- لقد كنت أقصد الشخص الذي سرق مالك، وأظنه كان يسرق من أجل شراء المخدرات، فهذا ما يفعله معظمهم.

لمس كونيل أسنانه كما لو أنه أراد أن يتأكد من أنها لا تزال موجودة في فمه، ثم مسح يده بمنشفة الصحون.

- في الواقع،إن حياة المدمنين في الشوارع صعبة جداً، قال كونيل.

- بالفعل، هي كذلك، أكّدت جوانا.

- أعتقد أنهم بإمكانهم المحاولة، لا أعلم. أقصد الإقلاع عن التعاطي، عارض جيمي.

ضحك كونيل مستطرداً: نعم، أجزم أنهم لم يفكروا بذلك قط.

Bitterness-S

طبق الجميع بالصمت فافترّ ثغر كونيل عن ابتسامة محتشمة كاشفاً عن أسنان أقل فظاعة عما كانت عليه فقد غسلها بالماء، ثم أردف: أعتذر منكم جميعاً، سأعفيكم من حضوري. فأصروا أن حضوره لم يسبب لهم أدنى إزعاج، عدا جيمي الذي أطرق بالصمت. انتابت ماريان رغبة أموية في أخذ كونيل ليستحم. سألته جوانا إن كان ما زال يشعر بالألم، ففرك مقدمة أسنانه من جديد قائلاً: كلا، الأمر ليس بهذا السوء. كان يرتدي سترة سوداء اللون فوق قميص أبيض ملطخ بالدماء فلمحت ماريان من تحته وميض سلسلة فضية بسيطة يرتديها منذ أيام المدرسة، سلسلة وصفتها بيغي ذات مرة بـ«أناقة أرجوس[1]»، ما جعل ماريان تشعر بالإهانة، مع أنها لم تعرف أي منهما تشعر بالإهانة من أجله.

كم من المال تظن أنك ستحتاج؟ سؤال وجهته إليه ماريان وكان حساساً كفاية أنْ جعل باقي الأصدقاء يتكلمون فيما بينهم حتى تحس بجو من الخصوصية بينها وبينه. قد لا تتمكن من استخراج النقود من المصرف دون بطاقتك الائتمانية، أردفت ماريان فأغمض عينيه ولامس جبينه.

- سحقاً لي، أنا ثمل جداً، أنا آسف. أشعر أنني أهلوس، ماذا كنت تسألينني؟

- كنت أسألك بشأن المال، كم ستحتاج؟

- أوه في الحقيقة لا أعلم. ربما عشرة يوروهات؟

- فلتأخذ مائة.

---

(1) أناقة أرجوس: وأرجوس ماركة قلائد في إنجلترا واستعملت هنا إشارة تهكمية على الخلفية الطبقية لشخص يرتدي قلادة رخيصة - المترجم.

Bitterness-S

- ماذا؟ كلا.

تجادلا لبعض الوقت ثم تدخل جيمي ولمس ذراعها فأدركت لتوها مدى بشاعته وأرادت أن تفلت يدها بعيداً عنه. كان خط شعره منحسراً ووجهه رقيقاً يسفله فك ضامر، أما كونيل، الواقف أمامه، ورغم كونه مغطى بالدماء، فقد كان يشع قوة بدن وشخصية.

- أظن أنه علي الانصراف بعد قليل، قال جيمي.

- طيب، أراك غداً، ردت ماريان.

حدّق فيها مشدوهاً فكظمت في نفسها باعثاً لقول: ماذا؟ لكنها ردت بابتسامة بدل ذلك. لم تكن أجمل امرأة في العالم، فهي أبعد ما تكون عن ذلك، ففي بعض الصور لا تبدو عادية فقط، بل قبيحة على نحو مبهرج، بارزة أسنانها المعوجة للكاميرا كأنها قارض. قبضت على معصم جيمي بقوة كما لو أرادت أن تؤدي فعل التواصل المستحيل الآتي: أن تُفْهِم جيمي أن كونيل قد تعرض لتوه إلى الضرب وهو مع الأسف مجروح ويحتاج الرعاية، وأن تُفْهِم كونيل أنها ما كانت لترغب بلمس جيمي إطلاقاً.

- طيب، طابت ليلتكم إذاً، قال جيمي.

طبع قبلة على خدّها ثم تناول سترته من على المشكاة. نهض الجميع وشكروا ماريان على استضافتهم تاركين الكؤوس على لوح التجفيف أو في الحوض، ثم أوصد باب البيت وفتح عليهما باب الخصوصية منفردين ببعضهما. شعرت بارتياح في كاهليها كما لو أن وجودهما لوحدهما مخدر يهدئ من روعها. ملأت الغلاية وتناولت كوبين من الدرج، ثم وضعت المزيد من الأكواب المستعملة في الحوض وأفرغت المرمدة.

- ما زلتما معاً إذاً؟ استفسر كونيل.

Bitterness-s

تبادلا الابتسامة ثم أخذت كيسين من الشاي من العلبة وأفرغتهما في الكأسين بينما الماء يغلي في الغلاية. كان أحب إليها أن تستفرد به هكذا لما لهذا الشعور من وقع يجعلها تحس بأن الحياة بسيطة فجأة.

- نعم.

- ولماذا ذلك؟

- لماذا هو خليلي؟

- أجل، ما الذي يحدث؟ أعني لماذا لا تزالين تواعدينه؟

تنهدت قائلة: أظن أنك تريد بعض الشاي. أومأ برأسه ودس يده اليمنى في جيبه، فأخذت علبة حليب من الثلاجة بللت رطوبتها أصابعها بينما وقف كونيل مستنداً إلى منضدة المطبخ منفوخ الفم لكن معظم الدم كان قد غُسل فغدا فجأة يبدو في وسامة أخّاذة.

- بإمكانك الحصول على خليل آخر. أقصد أنك ما فتئت تشغفين الرجال حباً كما بلغني.

- كف عن هذا.

- أنت من نوع الأشخاص الذين إما أن يحبهم الناس وإما أن يكرهونهم.

انطفأت الغلاية الكهربائية آلياً فأخذتها من على الحاضنة وملأت الكأسين الواحدة تلو الأخرى.

- أنت لا تكرهني.

طرق بالصمت في البداية ثم عقب: كلا، لديّ مناعة ضد ذلك، بشكل ما، لأنني أعرفك منذ الثانوية.

- عندما كنتُ فاشلة قبيحة.

Bitterness-S

- لم تكوني قبيحة قط.

وضعت الغلاية ثم استقبلت إحساساً بالسلطة؛ إحساساً خطيراً بالسلطة عليه.

- هل ما زلت تعتقد أنني جميلة؟

حدق فيها، مدركاً ربما ما الذي تفعله، ثم نظر إلى يديه كما لو أنه يذكر نفسه بوجوده الفزيائي في الغرفة.

- أنتِ في مزاج حسن. لا شك أنها كانت حفلة ممتعة.

تجاهلت كلامه وخيل لها تقول له: سحقاً لك، لكنها لم تقصد ذلك بالفعل. رميت بكيسَي الشاي الفارغين في الحوض ثم سكبت الحليب وأعادت العلبة إلى الثلاجة في حركات خاطفة كمثل من يتعامل مع صديق ثمل بفارغ الصبر.

- تمنيت لو كان أي شخص آخر خليلك، أي شخص حتى ذاك الشاب الذي اعتدى علي.

- وما شأنك أنت؟

طبق بالصمت ثم عادت هي بذاكرتها إلى الطريقة التي عاملت بها جيمي قبل مغادرته وفركت وجهها. كان جيمي قد وصفه ذات مرة بالكولتشي[1] شارب الحليب، وهذا صحيح فعلاً، فقد رأته ماريان يشرب الحليب من العلبة مباشرة. كذلك هو يلعب ألعاب الفيديو التي تدور حول المخلوقات الفضائية، ولديه آراء حول مدربي كرة القدم. وربما لم يفكر قط في إنزال الألم بالطرف الأخر في سبيل أهداف المتعة الجنسية. إنه شخص طيب وصديق صدوق.

---

(1) Culchie: نعت يستخدم في اللغة الأيرلندية لوصف القادمين من الريف من باب التحقير والاستصغار - المترجم.

Bitterness-S

فلماذا تطارده هكذا طوال الوقت، وتضغط عليه بسبب أمر ما؟ هل يجب عليها أن تكون دائماً الجانب البائس من حياته؟

- هل تحبينه؟

تسمرت يدها عند باب الثلاجة.

- ليس من عادتك أن تهتم بمشاعري يا كونيل. كنت أعتقد أن هذه الأمور محضورة بيننا.

- طيب، حسناً.

فرك فمه من جديد مشتت الذهن ثم أسقط يده وحدق عبر نافذة المطبخ.

- اسمعيني، ربما كان عليَّ إخبارك من قبل... في الواقع أنا على علاقة مع إحداهن، علاقة تدوم منذ بعض الوقت. كان علي إخبارك من قبل.

وقع هذا الخبر على ماريان كقطعة ثلج باردة فنظرت إليه عاجزة عن مداراة دهشتها. طوال فترة صداقتهما، لم يكن له خليلة قط، حتى إنها لم تعر أي اهتمام لفكرة أنه قد يرغب في مواعدة إحداهن.

- ماذا؟ ومنذ متى وأنتما معاً؟

- منذ نحو ستة أسابيع. إنها هيلين بروفي. لا أدري إن كنت تعرفينها، إنها طالبة في كلية الطب.

أدارت ظهرها وأخذت كأسها من على المنضدة. حاولت أن تمنع كتفيها من أي حركة مخافة أن تبكي فيراها.

- ولماذا تحاول أن تجعلني أنفصل عن جيمي إذاً؟

- أنا لا أحاول فعل ذلك إطلاقاً. كل ما أسعى إليه هو سعادتك.

- وهذا لأنك صديق صدوق أليس كذلك؟

Bitterness-5

- في الواقع بلى. أقصد، لا أعلم.

كان الفنجان في يد ماريان ساخناً جدّاً، لكنها بدل أن تتركه من يدها سمحت للألم بالتسلل إلى أصابعها ومن ثم إلى لحمها.

- هل تحبها؟

- نعم. أنا أحبها.

عندها أجهشت ماريان في البكاء وقد كانت تلك أكثر التجارب إحراجاً في حياتها، منذ أن بلغت رشدها. كانت تقف عكس اتجاه وقوفه لكن شعرت بارتجاف كتفيها في تشنج لاإرادي رهيب.

- رباه! ماريان!

- اغرب عن وجهي!

لمس كونيل ظهرها فابتعدت عنه كما لو أنه أراد بها شراً، ثم وضعت الكأس على المنضدة لتمسح وجهها بكمها.

- فقط انصرف، دعني وشأني.

- ماريان، توقفي عن هذ، أنا أشعر بالذنب، حسناً؟ لقد كان علي إخبارك من ذي قبل. أنا حقاً آسف..

- وأنا لا رغبة لي في الحديث إليك. غادر الآن.

ساد السكون للحظات أخذت فيها تعض باطن خدها بغية امتصاص اضطرابها حتى هدّأ الألم من هيجان أعصابها فسكتت عن البكاء. مسحت وجهها من الدموع من جديد، بيدها هذه المرة، واستدارت لتواجهه.

- أرجوك غادر، أرجوك.

تنهد ثم فرك عينيه وهو ينظر إلى بلاط الأرضية.

- نعم. اسمعيني، أعتذر عن طلب هذا لكنني أحتاج لذلك المال كي أعود إلى البيت. أنا آسف.

Bitterness-S

تذكرت أمر المال فشعرت بالذنب. ابتسمت له وقالت في حماس: يا إلهي لقد نسيت تماماً أنك تعرضت للسرقة، هل لك أن تأخذ مائة يورو؟ فأومأ برأسه متحاشياً النظر إليها. كانت تعلم أنه يشعر بالحرج وكانت تريد أن تبدو ناضجة بخصوص تلك الأمور. تناولت حقيبتها ومدته بالمال فدسه في جيبه ثم غرس ناظريه في الأرض وهو يرمش ويتنحنح كمن على وشك البكاء. أنا آسف.

- لا عليك، لا تهتم لذلك.

فرك أنفه وجال بعينيه أرجاء الغرفة كما لو أنه مفارقها إلى الأبد.

- في الواقع، لم أعلم ما الذي جرى بيننا الصيف الماضي، عندما اضطررت للعودة إلى المنزل في كاريكلي. فكرت في إمكانية المكوث في شقتك، لكن لم أستوعب ما الذي جرى في نهاية المطاف.

فاجأها ألم حاد في صدرها وقذفت يدها إلى حلقها في حركة لاإرادية، ممسكة بالخواء.

- قلتَ لي إنك ترغب في أن نقابل أشخاصاً آخرين. لم يكن لدي أدنى فكرة عن رغبتك في المكوث معي، لقد فهمت من كلامك أنك تريدنا أن ننهي علاقتنا.

مرر راحة يده على فمه لثوانٍ ثم أخذ نفساً، فاستطردت:

- لم تذكر لي أي شيء بخصوص رغبتك في البقاء هنا وإلا لكنتُ رحبت بالفكرة طعباً. أنت دائماً مرحب بك.

- حسناً، طيب. اسمعي، يجب أن أغادر الآن، طابت ليلتك، حسناً؟

لفظه باب المنزل، وانغلق في سكون.

Bitterness-s

صباح اليوم الموالي، في الآرتس بلوك[1]، قبلها جيمي أمام مرأى الجميع وداهن جمالها مضيفاً: كيف كان حال كونيل ليلة البارحة؟ مسكت بيده وقلبت عينيها على نحو تآمري مردفة: لقد كان ثملاً إلى حد كبير. المهم أنني تخلصت منه في النهاية.

(1) Arts Block: مبنى في كلية الثالوث شيد بين 1968 و1979 ويعتبر تحفة معمارية في أيرلندا. ويحوي المبنى مدرجات، وحجرات للندوات، ومكتبات، ومتحف للفن، إضافة إلى مرافق إدارية واجتماعية - المترجم.

Bitterness

بعد مضي ستة أشهر
(يوليو 2013)

استيقظ بعدما استقر عقرب الساعة عند الثامنة. كان الجو صحواً خارج النافذة والطقس يزداد دفئاً داخل العربة، دفء العرق والأنفاس البشرية. كان القطار يسير بسرعة خاطفة فيمرون بمحطات بلدات صغيرة أسماؤها غير مقروءة، فتغدو أثراً بعد عين. كانت هيلين قد استيقظت فيما لا يزال نيال يغط في نومه. فرك كونيل عينه اليسرى وجلس، فإذا بهيلين منهمكة في قراءة الرواية الوحيدة التي أحضرتها معها في هذه الرحلة، رواية ذات غلاف لامع قرأ من على جزئه العلوي أنها حُوِّلت إلى فيلم وقد كانت الممثلة البارزة على الصورة رفيقتهم لأسابيع حتى إن كونيل أحس بتقارب ودي جمعه بوجهها الشاحب الذي يرمز لدراما تاريخية.

- هل تعلمين أين نحن الآن؟ سأل كونيل.

طلّت هيلين من وراء كتابها مجيبة: لقد تجاوزنا العاصمة السلوفينية ليوبليانا قبل بضع ساعات.

- طيب، لقد اقتربنا إذاً.

تطلع إلى نيال فوجده نائماً ورأسه مائل قليلاً على عنقه فتبعت هيلين نظراته مضيفة: خارج نطاق الخدمة كما العادة.

Bitterness-S

في البداية، كان هناك أصدقاء آخرون، فقد رافقهم بعض رفاق هيلين من برلين إلى براغ، ومن ثم قابلوا بعض زملاء نيال في قسم الهندسة بالعاصمة السلوفاكية براتيسلافا قبل أن يستقلوا القطار إلى فيينا. كانت اللوكاندات رخيصة الثمن وكذلك المدن التي زاروها أحسوا فيها بهجة وسروراً مؤقتاً. أما كونيل، فلم يبدُ أنه احتفظ في ذكراه بما حدث في تلك الأماكن، فقد كانت الرحلة برمتها أشبه بمجموعة من الأفلام القصيرة عُرِضت مرة واحدة وبعدها تذكر فقط خطوطها العريضة، أما تفاصيل الحبكة فقد انقشعت كالضباب. تذكر رؤيته أشياء من وراء نوافذ سيارات الأجرة.

كان كلما جلس في مقهى تتوفر بها شبكة الإنترنت بمدينة ما، يكرر طقوس التواصل الثلاثة التي اعتادها: يتصل بهيلين عبر برنامج سكايب، ويبعث لوالدته برسالة نصية من شبكة هاتفه، ويبعث لماريان برسالة عبر البريد الإلكتروني.

كانت هيلين قد حصلت على تأشيرة J1[1] إلى مدينة شيكاغو بأمريكا خلال الصيف. وكانا كلما تكلما يسمع صوت صديقاتها في الخلفية يتحدثن ويعبثن بشعر بعضهن البعض وقد يحدث أن تلتفت إليهن هيلين وتصيح فيهن: يا فتيات، ألا ترين أنني أجري مكالمة هاتفية هنا! كان يحب رؤية وجهها على الشاشة ولا سيما عندما تكون جودة الشبكة عالية بحيث يرى حركاتها المرنة والمفعمة حيوية بوضوح. لهيلين ابتسامة خلابة وأسنان رائعة لا تزيدها إلا جمالاً. وبعد نهاية مكالمتهما يوم أمس، دفع فاتورة المقهى وسار إلى

---

(1) تأشيرة J1: تمنحها حكومة الولايات المتحدة للباحثين والأساتذة والمشاركين في البرامج التي تعزز التبادل الثقافي - المترجم.

Bitterness-s

الخارج حيث الشمس ترسل أشعتها الوهاجة، وابتاع كأساً من الكوكا كولا مع الثلج مبالغ في ثمنه. في بعض الأحيان، عندما تكون هيلين برفقة الكثير من الصديقات أو عندما يكون المقهى مكتظاً بالزبائن، تكون المحادثة بينهما متعثرة بعض الشيء، ومع هذا فإنه يشعر براحة داخلية بعد الحديث إليها. كان يجد نفسه ينتظر نهاية المحادثة ليتمكن من الاستمتاع بذكرى رؤيتها، من دون الضغط الآني الذي تفرضه المكالمة من إظهار التعابير المناسبة وقول الكلامات المناسبة. وقد كان مجرد النظر إلى هيلين ورؤية وجهها الجميل وابتسامتها الأخاذة، وأن يعلم أنها لم تزل تكن له الحب، يثلج صدره ويضفي جرعة من الفرح إلى يومه، تكفي لإسعاده ساعات طويلة بعدها.

لقد منحته هيلين طريقة جديدة للحياة، فأحس كأنما انزاح وزر ثقيل عن حياته العاطفية فغدا يتنفس هواء نقياً فجأة. لقد كان من المستحيل عليه من ذي قبل كتابة رسائل من قبيل: أنا أحبك! لقد كان هذا من ضرب المستحيلات لديه، لكنه يفعله بسهولة الآن. ولو رأى شخصٌ ما الرسائل لوجدته يشعر بالخجل بكل تأكيد، لكنه يعلم أن هذا النوع من الخجل عادي، فهو دافع وقائي تجاه جزء مميز من الحياة. كان يستطيع تناول وجبات العشاء مع والديها، ومرافقتها إلى حفلات أصدقائها، وتحمل الابتسامات وتبادل المحادثات المتكررة. كان يستطيع الإمساك بيدها وهو يخوض في الحديث مع الناس بخصوص مستقبله. وعندما كانت تلمسه بعفوية، فتضغط على مرفقه أو تزيل بعض الوبر العالق على ياقته، تجده فخوراً، راجياً أن يراه الناس على هيأته تلك. لقد رسّخه اشتهاره بين الناس أنه خليل هيلين في العالم الاجتماعي وأسس لمنزلته كشخص مقبول، شخص

Bitterness-s

ذي مكانة مميزة، شخص يوحي صمته أثناء الحديث بالرصانة والفكر، لا بالارتباك الاجتماعي.

كانت الرسائل التي يبعث بها إلى لورين أقرب إلى محادثة عمل، فلا تخرج عن إعلامها بالمآثر التاريخية أو الثروات الثقافية التي يمر بها، فكتب لها يوم أمس:

مرحباً، أنا في فيينا الآن وأعتقد أن كاتدرائية القديس ستيفن مبالغ في تقديرها بكل صراحة لكن متحف تاريخ الفنون جيد. أرجو أن تكوني على ما يرام.

كانت لورين تحب سؤاله عن حال هيلين، فقد انسجمت معها منذ أول لقاء بينهما، فكلما زارته في البيت تجد لورين تهز رأسها وقتما آتى كونيل سلوكاً سيئاً وتقول: إني أتساءل كيف تحتملينه؟ ومع هذا فمن الجميل انسجامهما معاً. لقد كانت هيلين أول خليلة يقدمها كونيل لوالدته ويجد نفسه متلهفاً ليبهرها بمدى استقرار واعتيادية علاقتهما وإلى أي مدى تعتبره هيلين شاباً لطيفاً، وهو لا يعلم من أين أتى هذا كله تحديداً.

خلال الأسابيع التي انفصل فيها عن ماريان، أصبحت رسائله إليها عبر البريد الإلكتروني نصوصاً طويلة مصاغة بعناية كبيرة. فكان يبدأ في كتابتها على هاتفه في أوقات الفراغ؛ بينما ينتظر دوره في محل غسيل الملابس؛ أو يكون مستلقياً على السرير في اللوكاندة ليلاً وقد خاصمه النوم بسبب شدّة الحر. كان يقرأ تلك المسودات مراراً وتكراراً ويراجع العناصر النثرية وينقل الجمل وأشباه الجمل حتى تتخذ موضعاً مناسباً ويخلص إلى نسق نصي صحيح. كان

Bitterness-S

الوقت يمضي بسرعة عند ترقينه تلك الرسائل، فكان ينظر إلى ساعته غير مرة فيجد عقاربها قطعت مسافات طوال. وما وجد تفسيراً لما يجده جاذباً في رسائله لماريان، بيد أنه لا يحس بأنه أمر تافه. لقد ألفى في تجربة كتابة تلك الرسائل تعبيراً عن مبدأ واسع وجوهري؛ هو شيء في هويته، أو شيء أكثر تجرداً ومتعلق بالحياة في حد ذاتها. وقد دوّن مؤخراً في مفكرته الرمادية الصغيرة: فكرة قصة تحكيها في رسائل إلكترونية؟ ثم شطب ما كتبه، إذ رآه مصطنعاً. كان يجد نفسه يشطب كثيراً مما يكتبه على مفكرته، كما لو أنه يتخيل شخصاً في المستقبل يتفحص ما كتبه، وكما لو أنه أراد من هذا الشخص في المستقبل أن يعلم الأفكار التي تراجع عنها.

وكان يرفق رسائله لماريان بكثير من الروابط تنقلها إلى صفحات مقالات الأخبار. لقد كانا مهتمين حالياً بقصة إدوارد سنودن[1] نظراً لاهتمام ماريان بمطبخ المخابرات الدولية ولفضول كونيل الكبير بالدراما الشخصية، فهو كان يقرأ كل التكهنات على الإنترنت ويشاهد أشرطة الفيديو الضبابية لمطار شيريميتييفو الدولي بموسكو. لم يكن باستطاعتهما الحديث عن الأمر إلا عبر البريد الإلكتروني؛ وهي قناة تواصلية يعلمان تماماً أنها تخضع للمراقبة. وكان ينتابهما أحياناً إحساس بأن علاقتهما باتت محفوظة في سجلات شبكة معقدة تابعة لأجهزة الدولة، وأن الشبكة في حد ذاتها شكل من أشكال المخابرات، تحتويهما هما وأحاسيسهما تجاه بعضهما البعض.

---

(1) إدوارد سنودن: عميل وموظف لدى وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة الأمن القومي الأمريكيتين، عُرف بتسريبه تفاصيل برنامج بريسم PRISM للتجسس لصالح **الغارديان والواشنطن بوست** - المترجم.

أشعر أن الموظف الذي يقرأ رسائلنا لدى وكالة الأمن القومي الأمريكية قد كوّن فكرة خاطئة عنا، فلعلهم لا يعرفون أنك لم تدعوني إلى حفل الدبس، كتبت ماريان ذات مرة.

كتبت له كثيراً عن البيت الذي تسكنه برفقة جيمي وبيغي خارج مدينة تريستي. كانت تقصص عليه كل ما يحدث؛ كتبت عن أحاسيسها هي وعن تخميناتها إزاء أحاسيس الآخرين، وعن الأشياء التي تقرؤها وتفكر فيها، فيما كان هو يكتب لها عن المدن التي يزورها وأحياناً يدرج فقرات مسهبة الكتابة يتحدث فيها عن مشهد أو لقطة ما. كتب لها عن خروجه من ميترو برلين في محطة شونلاينشتغاسه ليتفاجأ بحلول الظلام وأن جريد الأشجار يلوح من فوقه كأنه أصابيع شبح، والضوضاء المنبعثة من الحانات الصاخبة ورائحة البيتزا وعوادم السيارات. كان ينتابه شعور عارم بالقوة كلما دوّن تجاربه بالكلمات، كأنه يحبسها في قمقم فيطمئن بذلك أنها لن تتركه أبداً. وكان قد أخبر ماريان مرة أنه يكتب القصص وها هي الآن تلح عليه أيما إلحاح أن تقرأها، حتى إنها كتبت مرة: إذا كانت بنفس جودة كتاباتك في الرسائل الإلكترونية فلا أشك في روعتها، وقد كانت تلك رسالة استحسنها ولو أنه رد بصدق: لا، إنها ليست بنفس الجودة.

قرر بمعية نيال وهيلين أن يستقل القطار من فيينا إلى تريستي فيقضوا لياليهم القليلة المتبقية في بيت عائلتها الذي تقضي فيه ماريان عطلتها، قبل أن يستقلّوا الطائرة إلى دبلن سوية، وقد جرت الإشارة إلى رحلة من يوم واحد إلى مدينة البندقية. في الليلة الماضية، صعدوا القطار حاملين أمتعتهم فأرسل كونيل رسالة نصية إلى ماريان يخبرها: من المتوقع أن نصل إلى هناك بعد زوال يوم غد، وبه لن

يتسنى لي الرد على رسالتك الإلكترونية كما يليق قبل ذلك. لم يكن قد تبقى معه ملابس نظيفة تقريباً. كان يرتدي قميصاً رمادياً وسروال جينز أسود وحذاء رياضياً أبيض متسخاً، ويحمل في حقيبته ملابس متسخة، وقميصاً أبيض نظيفاً، وقنينة ماء بلاستيكية فارغة، وملابس داخلية نظيفة، وشاحن هاتف ملفوف، وجواز سفره، وعلبتين من الباراسيتامول، ونسخة من رواية لجيمس سالتر في حال بائسة، ونسخة من ديوان مختارات لفرانك أوهارا كان قد وجده في مكتبة للكتب بالإنجليزية في برلين فاشتراه من أجل ماريان، بالإضافة إلى مفكرة رمادية.

وكزت هيلين نيال حتى انحنى رأسه إلى الأمام وفتح عينيه يسأل عن مكان وجودهم فأخبرته هيلين. شبك نيال أصابعه ومدد يديه أمامه حتى طقطقت مفاصله بهدوء. ينظر كونيل خارج النافذة إلى المناظر العابرة: أوراق صفر وخضر يابسات، أسقف قرميدية منحدرة برتقالية اللون، نافذة ينكسر عليها نور الشمس وومضها.

في شهر أبريل، تم الإعلان عن نتائج امتحانات استحقاق المنح الجامعية، حيث وقف العميد على درج قاعة الامتحانات وأنشأ يقرأ أسماء الطلبة الممنوحين تحت سماء، كانت ذاك اليوم، شديدة الزرقة تهذي كالثلج القابع في قاع كؤوس ملوّنة. كان كونيل يرتدي سترته ممسكاً بيد هيلين. وعندما أتى دور قسم الإنجليزية، قرأ العميد على مسامع الحضور أربعة أسماء بالترتيب الهجائي كان آخرها اسم كونيل والدرون فطوقته هيلين، من فرحتها، بذراعيها وحضنته. ثم ظل ينتظر نتائج قسم التاريخ والسياسة، وعندما سمع اسم ماريان شيريدان جال بنظره باحثاً عنها، فسمع جلبة أصدقائها

Bitterness-S

يتحلقون حولها، ويهتفون، وبعضهم يصفق. دس يديه في جيبيه، وقد تأكد له عند سماعه اسم ماريان أن كل ذلك حقيقي؛ لقد نجح في الامتحانات ونال المنحة، لقد نجح كلاهما. إنه لا يتذكر كثيراً من تفاصيل ما حدث حينها. تذكر أنه هاتف لورين بعد الإعلان عن النتائج فأبدت ردة فعل هادئة أقرب إلى الذهول ثم غمغمت: رباه! بحق المسيح!

اقترب منه نيال وهيلين يهتفان ويربتان على ظهره. «يا لك من عبقري فذ لعين»... أما هو فقد أخذ يضحك من لا شيء، فقط لأن ثورة حماسه تطلبت منه أن يعبر عنها علناً ولم تكن له رغبة في البكاء. ووفق العُرف المعمول به، فقد كان على كل الممنوحين حضور مأدبة رسمية على شرفهم في قاعة الطعام يلبسون فيها ربطة العنق السوداء. استعار كونيل بدلة رسمية من أحد زملائه، لم يناسبه مقاسها كثيراً. وخلال مأدبة العشاء تلك، وجد نفسه متوتراً وهو يحاول خلق محادثات مع أستاذ الإنجليزية الجالس إلى جانبه، فقد كان يود أن يكون مع هيلين ومع أصدقائه وليس مع هؤلاء الناس الذين لم يلتق بهم من ذي قبل ولا يعرفون عنه شيئاً.

لقد غدا كل شيء ممكناً الآن وقد نال المنحة الجامعية، فلن يقلق بعدها بشأن دفع الإيجار أو تغطية الرسوم السنوية، كما أنه سيحصل على وجبات مجانية يومياً في الكلية. وبفضل ذلك تمكن من قضاء نصف العطلة الصيفية يجوب أقطار أوروبا، ينثر اليوروهات بكل حرية غير آبه، مثل الأثرياء من الناس. لقد شرح، أو إنه حاول شرح، ذلك في رسائله لماريان التي لم تكن المنحة بالنسبة لها سوى اعتزاز للاعتداد بالنفس وإقرار بهيج لإيمانها الراسخ تجاه شخصها؛ إيمان بأنها مميّزة، وهو إيمان لم يعلم كونيل قط إن كان عليه

اعتناقه، ولا يزال لا يعلم ذلك إلى يومه هذا. المنحة بالنسبة له حقيقة مادية عظيمة، كأنها سفينة سياحية ضخمة دخلت مرمى بصره من العدم، وفجأة صار بإمكانه متابعة دراسته العليا مجاناً إن هو أراد ذلك، وصار بإمكانه العيش في دبلن مجاناً أيضاً، دون الحاجة إلى القلق بشأن دفع الإيجار مجدداً وإلى حدود تخرجه.

فجأة بات بإمكانه قضاء أمسية في فيينا يتفرج على لوحة فن الرسم لجوهانس فيرمير والجو دافئ في الخارج، ولو ود، لابتاع لنفسه قدح جعة بارد رخيص الثمن بعد ذلك. لقد كانت أشياء أشبه إليه بلوحة مرسومة وها قد اتضح له أنها حقيقية: المدن الأجنبية حقيقية، والأعمال الفنية الذائعة الصيت حقيقية، ونظام السكك الحديدية التحت أرضية حقيقية، وبقايا جدار برلين حقيقية. هذا هو المال، تلك المادة التي تجعل العالم حقيقياً؛ مادة تنضح فساداً وجاذبية في الوقت نفسه.

وصلوا إلى بيت ماريان على الساعة الثالثة بعد الزوال فى حرارة من فيح القيض، والشجيرات في الخارج يرهقها أزيز الحشرات فيما ربضت قطة في لون الزنجبيل تستحم بأشعة الشمس فوق غطاء سيارة مركونة على الجهة المقابلة من الشارع. وعلى الجانب الآخر من المدخل، رأى كونيل البيت الذي بدا على نفس الهيأة التي ظهر فيها في الصور التي بعثت له ماريان؛ بيت ذو واجهة مصممة بالحجر ونوافذ مطلية باللون الأبيض. لمح كونيل طاولة الحديقة وتُرك فوقها فنجانان. قرعت هيلين الجرس وما هي إلا ثوانٍ حتى ظهرت بيغي قادمة من الجهة الجانبية من البيت. خلال الآونة الأخيرة، تأكد لكونيل أنها لا تحبه فألفىٰ نفسه يتقفى سلوكاتها حتى يخرج بدليل.

اعتناقه، ولا يزال لا يعلم ذلك إلى يومه هذا. المنحة بالنسبة له حقيقة مادية عظيمة، كأنها سفينة سياحية ضخمة دخلت مرمى بصره من العدم، وفجأة صار بإمكانه متابعة دراسته العليا مجاناً إن هو أراد ذلك، وصار بإمكانه العيش في دبلن مجاناً أيضاً، دون الحاجة إلى القلق بشأن دفع الإيجار مجدداً وإلى حدود تخرجه.

فجأة بات بإمكانه قضاء أمسية في فيينا يتفرج على لوحة فن الرسم لجوهانس فيرمير والجو دافئ في الخارج، ولو ود، لابتاع لنفسه قدح جعة بارد رخيص الثمن بعد ذلك. لقد كانت أشياء أشبه إليه بلوحة مرسومة وها قد اتضح له أنها حقيقية: المدن الأجنبية حقيقية، والأعمال الفنية الذائعة الصيت حقيقية، ونظام السكك الحديدية التحت أرضية حقيقية، وبقايا جدار برلين حقيقية. هذا هو المال، تلك المادة التي تجعل العالم حقيقياً؛ مادة تنضح فساداً وجاذبية في الوقت نفسه.

وصلوا إلى بيت ماريان على الساعة الثالثة بعد الزوال في حرارة من فيح القيض، والشجيرات في الخارج يرهقها أزيز الحشرات فيما ربضت قطة في لون الزنجبيل تستحم بأشعة الشمس فوق غطاء سيارة مركونة على الجهة المقابلة من الشارع. وعلى الجانب الآخر من المدخل، رأى كونيل البيت الذي بدا على نفس الهيأة التي ظهر فيها في الصور التي بعثت له ماريان؛ بيت ذو واجهة مصممة بالحجر ونوافذ مطلية باللون الأبيض. لمح كونيل طاولة الحديقة وتُرك فوقها فنجانان. قرعت هيلين الجرس وما هي إلا ثوانٍ حتى ظهرت بيغي قادمة من الجهة الجانبية من البيت. خلال الآونة الأخيرة، تأكد لكونيل أنها لا تحبه فألفى نفسه يتقفى سلوكاتها حتى يخرج بدليل.

Bitterness

هو نفسه لم يكن يستحب وجودها وهو ما كان يراه غير ذي أهمية. تقدمت بيغي باتجاه المدخل تطرق بصندلها الأرضية المحصبة. كانت أشعة الشمس تضرب ظهر كونيل كما لو أنه تحت أنظار عيون بشرية مسلطة عليه. فتحت الباب وفسحت لهم الطريق راسمة على ثغرها ابتسامة عريضة وهي تردد ciao, ciao[1]. كانت ترتدي فستاناً من الدنيم وتضع نظرات شمسية كبيرة. تقدموا جميعاً على طول أرضية المدخل المحصبة؛ نيال يحمل حقيبته وحقيبة هيلين، فأخرجت بيغي مفتاحاً وفتحت الباب الداخلي.

داخل الردهة ممر حجري مقوس تليه بضع درجات. كان المطبخ عبارة عن غرفة طويلة يغطي أرضيتها بلاط التراكوتا، ومجهزة بخزائن بيضاء اللون وبطاولة بقرب الباب المؤدي إلى الحديقة، تغمرها أشعة الشمس. كانت ماريان تقف بالخارج، في الحديقة الخلفية وسط أشجار الكرز تحمل سلة غسيل في يدها. كانت ترتدي فستاناً أبيض بحمالة الرقبة وقد استحالت بشرتها مسمرة؛ كانت تنشر الغسيل على الحبل. صادف الجو رياحاً هادئة في الخارج فكانت الملابس تتدلى من الحبل في ألوان رطبة، ساكنة لا تتحرك. وضعت ماريان يدها على مقبض الباب فرأتهم بالداخل. بدا كل هذا يحدث ببطء، لكنه لم يدم سوى ثوانٍ معدودات. فتحت الباب ووضعت السلة على الطاولة، فراوده إحساس لذيذ بالألم في حلقه. بدا فستانها أبيض ناصعاً، فأدرك أنه يبدو في هيئة غير نقية فهو لم يستحم منذ أن غادروا اللوكاندة صباح يوم أمس، وأن ملابسه ليست نظيفةً تماماً.

---

(1) مرحباً باللغة الإيطالية - المترجم.

Bitterness-S

- مرحباً! قالت هيلين.

تبسمت لهم ماريان قائلة: ciao كما لو أنها تسخر من نفسها ثم قبلت وجنتي هيلين ونيال وسألتهما عن حال رحلتهم بينما وقف كونيل مثقلاً بشعوره، الذي قد يكون شعوراً بالتعب؛ تعب راكمه لنحو أسابيع. كان يشتم رائحة الغسيل، وعلى مقربة منه يرى ذراعي ماريان منمشتين قليلاً وكتفيها في لون زهري فاتح. استدارت إليه وتبادلا القبل على الخدّين، ثم نظرت في عينيه قائلة: حسناً، مرحباً. رصد قابلية في تعبيرها كما لو أنها تجمع معلومات عن مشاعره، وهو أمر قد ألفاه بينهما دهراً كما لو أنهما يتحدثان لغةً خاصً بهما. كان يشعر بوجهه يحمر كلما تطلعت إليه، إلا أنه لا يريد أن يشيح بنظره عنها، فهو أيضاً يستطيع جمع المعلومات من تعابير وجهها بدوره، فإذا به يستشف أن هناك أموراً تريد إخباره بها.

- مرحباً، رد كونيل.

قبلت ماريان عرضاً لقضاء سنتها الجامعية الثالثة في السويد ويفترض أن تغادر في شهر سبتمبر المقبل. ووفق مخططاتهما لعطلة عيد الميلاد، قد لن يتسنى له رؤيتها مجدداً حتى شهر يونيو المقبل. دائماً ما يقول له الناس إنه سيشتاق إليها، لكنه كان يتطلع إلى جمال وعمق الرسائل الإلكترونية بينهما خلال فترة بُعدهما. والآن ها هو ينظر في عينيها المتفحصتين ويقول في نفسه: حسناً، سأشتاق إليها. انتابته أحاسيس متضاربة بشأن ذلك، كما لو أنه ضرب من الخيانة منه، ربما لأنه كان يستمتع بمظهرها أو ببعض جوانب قربها الفيزيائي منه، فلم يكن يعلم ما الجوانب المسموح للأصدقاء الاستمتاع بها في بعضهم البعض.

عبّرت ماريان، في الرسائل التي تبادلاها في الآونة الأخيرة

Bitterness-s

حول صداقتهما، عن أحاسيسها تجاهه فيما يتعلق أساساً باهتمامها الدائم بأفكاره واعتقاداته، وعن إحساسها بالفضول بشأن حياته، وعن إحساسها الفطري في استقصاء أفكاره كلما تضاربت عليها مسألة من المسائل. أما هو فكان يعبر عن نفسه من ناحية التطابق بينهما، ودعمه لماريان ومشاركتها معاناتها، وقدرته على إدراك حوافزها والتعاطف معها فيها. اعتقدت ماريان أن لهذا علاقة بأدوار النوع الاجتماعي[1]، فرد عليها شارحاً كما لو أنه يدافع عن نفسه: أظنني أحبك كشخص. هذا حقاً لطف منك، ردت عليه ماريان.

ظهر جيمي نازلاً من على الدرج فاستدار الجميع ليلقي عليه التحية، عدا عن كونيل الذي حياه بشبه إيماءة من رأسه، بالكاد محركاً ذقنه أعلى قليلاً، فرد جيمي بابتسامة ملؤها التهكم قائلاً: تبدو في حال مهترئة يا صاح! ومنذ أن أصبح جيمي خليل ماريان، أصبح كونيل لا يتوانى في كيل الكراهية والسخرية له بسخاء، وخلال الأشهر التي تلت رؤيته لهما معاً لم يفتأ كونيل تراوده تخيلات ورغبات جامحة في لكم جيمي حتى تنكسر جمجمته فتغدو كصفحة جريدة مهشمة. وذات مرة، بعد أن تحدث إليه قليلاً في إحدى الحفلات، غادر كونيل المكان ووجه لكمة قوية للجدار الآجري حتى نزفت يده. لقد كان جيمي شخصاً ذا طبيعة مملة وعدائية في الآن نفسه، فتجده دائماً يتثاءب ويقلب عينيه عندما يتحدث الآخرون، ومع هذا فهو أكثر شخص ثقة بالنفس التقاه كونيل، فلا شيء يمسه، ولا يواجه أي صراع داخلي. كان كونيل يتخيله يخنق ماريان بيديه العاريتين، وهذا ما يفعله فعلاً، حسب قولها.

---

(1) أدوار النوع الاجتماعي: القواعد المجتمعية التي تحدد المظهر والسلوك والقيم والأفكار التي تقترن بالإنسان من باب جنسه البيولوجي - المترجم.

Bitterness-S

وضعت ماريان إبريق القهوة على النار بينما تقطع بيغي الخبز إلى شرائح وترتب قطع اللحم والزيتون في الأطباق، وانهمكت هيلين في قص الطرائف التي حدثت مع نيال فضحكت ماريان بسخاء، ليس لأن طرائف نيال مضحكة ولكن لتُشْعِر هيلين أنه مرحب بها. مررت بيغي الأطباق حول المائدة، ولمست ماريان كتف كونيل ثم قدمت له فنجاناً من القهوة. وود كونيل، وهو يراها في الفستان الأبيض، وفي يدها الفنجان الأبيض الناعم، أن يقول: تبدين مثل ملاك. لم تكن هيلين ليضيرها قول كهذا لكنه ما كان ليتكلم هكذا أمام الناس ويتلفظ بكلمات عاطفية غريبة. أخذ يشرب القهوة الساخنة، والتي بدت مرة الطعم، ويأكل بعض الخبز الطري والطازج، ثم ما لبث أن بدأ الشعور بالتعب يتسلل إليه.

بعدما فرغوا من الغداء، اتجه كونيل إلى الطابق العلوي ليستحم، هناك حيث توجد أربع غرف نوم فاتخذ لنفسه واحدة؛ غرفة ذات إطار نافذة كبير تطل على الحديقة. ارتدى ما قد بقي معه من ثياب نظيفة: قميصاً أبيض وسروال الجينز الأزرق الذي لا يزال معه منذ أيام الثانوية. تغيرت حال كونيل عما كانت عليه قبل قليل بشعره المبلل، وصفاء ذهنه من فعل القهوة، وضغط الماء العالي في الحمام، ونعومة القطن على بشرته. وضع المنشفة المبللة على كتفيه وفتح النافذة. كانت ثمرات الكرز تتدلى من أغصان الأشجار ذات اللون الأخضر الغامق كأنها أقراط تتدلى من آذان بشرية. أخذ يفكر في هذه الجملة، لعله يذكرها في نص أحد رسائله الإلكترونية إلى ماريان، لكنه لا يستطيع أن يبعث إليها برسالة وهي على بعد بضعة أدراج منه. ترتدي هيلين أقراطاً، عادة قرطين ذهبين صغيرين على شكل أطواق. ويطلق العنان لتخيلاته بشأنها قليلاً، لأنه كان يسمع الآخرين في الطابق

Bitterness-s

السفلي على كل حال؛ كان يتخيلها مستلقية على ظهرها. ربما كان عليه أن يفكر بهذا عندما كان في الحمام لكنه كان متعباً حينها. هو الآن في حاجة لكلمة مرور شبكة الوايفاي الخاصة بالمنزل.

لقد كانت هيلين، كمثل كونيل، تلميذة ذات شعبية كبيرة في المدرسة، فما زالت تبذل جهوداً كبيرة لتصل الرحم مع أصدقائها وعائلتها الكبيرة؛ تتذكر أعياد الميلاد وتنشر على الفيسبوك صوراً يتضوع منها عبق الحنين، ودائماً ما ترد على دعوات الحفلات وتصل في الوقت المحدد، وتأخذ صوراً جماعية في كل وقت وحين حتى يستقر الجمع على واحدة منها؛ وبصيغة أخرى: إنها شخص طيب، وها قد بدأ كونيل يدرك أنه يحب الطيبين من الناس، وأنه يود لو يحشر في زمرتهم فيكون واحداً منهم. كانت قد دخلت في علاقة جدية مرة واحدة في الماضي. كان اسمه روري وقد انفصلت عنه في سنتها الجامعية الأولى. يدرس روري في كلية دبلن الجامعية وبهذا فلم يتسن لكونيل لقاءه قط لكنه شاهد صوره على الفيسبوك؛ شاب لا يختلف عن كونيل بنية وبشرة، لكنه يبدو أبلهاً وكلاسيكي الطراز. اعترف لهيلين مرة أنه بحث عن حسابه على الفيسبوك فسألته عن انطباعه عنه.

- لا أعلم. يبدو لي على غير أناقة ورقيّ، أليس كذلك؟

وجدت ذلك طريفاً جداً. كانا مستلقيان على السرير يطوقها بذراعيه. وقال مستطرداً:

- أهذا هو نوع الرجال الذي يعجبك؟

- أخبرني أنت...

- لماذا؟ هل أنا على غير أناقة ورقي؟

Bitterness-s

- أعتقد ذلك. أقصد. . . على نحوٍ إيجابي.

استند جالساً لينظر إليها.

- هل أنا حقاً كذلك؟ أنا لا يضيرني ذلك، لكنني كنت أعتقد أنني شاب ذو أناقة ورقي.

- بيد أنك كولتشي حقيقي.

- حقاً؟ وكيف ذلك؟

- لهجة سلايغو التي تتكلمها هي أثخن ما سمعت.

- كلا، ليس صحيحاً. أنا لا أصدق ذلك. لم يخبرني أحد بذلك من قبل. هل أنا حقاً كذلك؟

كانت تضحك فداعب بطنها بيده وهو يبتسم لنفسه سعيداً أنْ جعلها تضحك.

- أجد صعوبة في فهمكَ أحياناً، حمداً للرب أنك من النوع الصموت.

فاضطر للضحك بدوره، مردفاً: هيلين، هذا فظ.

ثنت ذراعها ووضعته تحت رأسها معلقة: هل تعتقد بصدق أنك شاب ذو أناقة ورقيّ؟

- في الواقع، ليس بعد ما قلته لتوك.

فابتسمت وأعقبت: جميل، جميل أنك لم تعد تحسب نفسك كذلك.

التقت هيلين بماريان لأول مرة في فبراير الماضي في شارع داوسن. كانت تتسكع برفقة كونيل يداً في يد فلمحها هذا الأخير خارجة من أحد محلات هوجز فيغيس مرتدية قلنسوة بيريه سوداء، فحياها بصوت مكلوم: أوه مرحباً. فكر في ترك يد هيلين لكنه لم

يستطع حمل نفسها على ذلك. مرحباً، لا شك أنك هيلين، قالت ماريان ثم انغمست الفتاتان في حديث رصين ولطيف، بينما وقف كونيل مذعوراً يحدق في بعض الأشياء في الفضاء المحيط به.

سألته هيلين بعد ذلك: إذاً أنت وماريان كنتما مجرد صديقَين أم...؟ كانا في غرفته حينها في شارع بيرس حيث الحافلات تروح وتغدو مسلطة أضواءها على باب الغرفة.

- أجل، على نحوٍ ما. لم نكن خليلين البتة.

- لكنك عاشرتها.

- أجل، إلى حد ما. لا، نعم، في الحقيقة نعم. هل يضيرك هذا؟

- كلا، فقط انتابني الفضول لأعرف. إذا هل كانت علاقة صداقة مصالح؟

- مبدئياً. خلال السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية وخلال فترة قصيرة العام الماضي، كانت هناك علاقة بيننا لكنها لم تكن جدية البتة.

تبسمت له هيلين وهو يعض على شفته السفلى، حركة لم يتذكر التوقف عنها إلا عندما كانت قد رأته.

- تبدو وكأنها تدرس في كلية الفنون. أعتقد أنك تراها فتاة أنيقة جداً.

ضحك ضحكة خفيفة ونظر إلى الأرض مجيباً: إن الأمر ليس كذلك، إننا نعرف بعضنا بعضاً منذ كنا صغيرَين.

- إن كونها خليلتك السابقة ليس بالضرورة من ضرب الغرابة.

- لكنها لم تكن خليلتي، إننا مجرد صديقَين.

Bitterness-S

- ولكن من قبل هذا كنتما...
- حسناً، لم تكن خليلتي.
- لكنك مارست الجنس معها.

وارى كامل وجهه بين كفيه بينما أنشأت هيلين تضحك من ذلك.

بعد تلك المحادثة قررت هيلين إقامة علاقة صداقة مع ماريان كما لو أنها أرادت أن تثبت مسألة ما. فكانا كلما التقياها في حفل، هرعت هيلين لمدح شعرها ولباسها فما يكون من ماريان إلا الإيماء في إبهام ثم تستأنف التعبير عن آرائها العميقة إزاء تقارير المغاسل المجدلية[1] أو قضية دينيس أوبراين[2]. من الناحية الموضوعية، وجد كونيل أن مواقف ماريان مثيرة للاهتمام لكنه كان يدرك أن شغفها في التعبير عنها بإسهاب، باستثناء المحادثات الخفيفة، لم يكن محبباً على العموم. وذات ليلة، بعد نقاش مستفيض حول إسرائيل، أصبحت هيلين منفعلة، وفي طريقهما إلى البيت قالت لكونيل إنها ألفت ماريان «معجبة بنفسها».

- هل لأنها تناقش في السياسة كثيراً؟

هزت هيلين كتفيها واستنشقت نفساً من أنفها مما دل على أنها لم تستحب تأويله لقولها. فاستطرد:

---

(1) المغاسل المجدلية: مؤسسات كاثوليكية لاستصلاح النساء الساقطات والداعرات واللاتي حملن خارج نطاق الزواج وسواهن. وفي سنة 2013 خرجت تقارير تدين ضلوع الدولة الأيرلندية في جرائم سوء المعاملة تجاه النازلات. واعترفت الحكومة الأيرلندية «باستعباد» زهاء 100 ألف نازلة أرسلن إلى مؤسسات تسيرها الكنيسة ضد رغبتهن وأرغمن على العمل دون أجر أو تقاعد أو حماية اجتماعية. (**الغارديان**، 5 فبراير 2013) - المترجم.

(2) دينيس أوبراين: رجل أعمال أيرلندي. في 2013 طفت قضية دعواه بخصوص التزامات ضريبية على سطح الرأي العام المحلي - المترجم.

- لقد كانت كذلك في الثانوية، لكنها لا تتصنع؛ إنها حقاً شغوفة بهذه الأمور.

- هل تأبه حقاً بمحادثات السلام الإسرائيلية؟

فأجاب كونيل مندهشاً، ببساطة: أجل. وبعد ثوانٍ من المشي في صمت أضاف: كما هو الحال بالنسبة لي؛ صدقاً. إنه أمر مهم جداً. فتنهدت هيلين بصوتٍ عالٍ، وتفاجأ أنها تتنهد بهذه الفظاظة فتساءل في خلده كم شربت تلك الليلة. كانت ذراعاها ممضمومتين إلى صدرها. تابع: إني لا أحاول تقمص الوعظ، فمن الواضح أننا لن ننقذ الشرق الأوسط من خلال الحديث عنه في حفلة منزلية. أعتقد أن كل ما في الأمر أن ماريان شغوفة بهذه الأمور كثيراً.

- ألا تعتقد أنها تصطنع ذلك بغية جذب الانتباه إليها؟

تجهم في مجهود واضح ليبدو وكأنه يفكّر في الأمر. لقد كانت ماريان غير آبهة تماماً بآراء الناس فيها، آمنة مطمئنة بشأن تصوراتها الشخصية لحد كان من الصعب تخيلها تكترث لجذب الانتباه بأي شكل من الأشكال. وحسب علم كونيل، فهي لا تحب ذاتها البتة لكنها كانت ترى أن المديح والاستنكار من قِبَل الآخرين سيان.

- صدقاً؟ لا، ليس كذلك.

- يبدو أنها تحب انتباهك كفاية.

ابتلع كونيل ريقه وقد أدرك لتوه سبب امتعاض هيلين ومحاولتها عدم مواراة هذا الامتعاض. لم يظن أن ماريان أبدت له اهتماماً خاصاً، رغم أنها كانت تصغي إليه كلما تكلم، وهذه لباقة قلما ظفر بها غيره منها. استدار يحدق في سيارة عابرة قائلاً في الأخير:

- لم ألاحظ ذلك.

Bitterness-5

ثم تنفس الصعداء لما أخلت هيلين سبيل هذا الموضوع وراحت تقلب في سلوكات عامة أخرى من ماريان تنتقدها.

- إننا في كل مرة نلقاها في حفلة إلا وتجدها تتغزل بنحو عشرة رجال مختلفين، فهل نحن أمام حالة فتاة تواقة لاستحسان الذكور؟

ابتسم كونيل من علمه أنه لم يعد معنياً في استهجان هيلين هذا وقال: نعم، إنها لم تكن هكذا في المرحلة الثانوية.

- تقصد أنها لم تكن تتصرف كالعاهرات؟

شعر كونيل فجأة أنه محاصر، وندم على تخليه عن حذره، فأطبق بالصمت من جديد. كان يعلم أن هيلين فتاة طيبة، لكنه كان ينسى أحياناً أنها تحمل قيماً قديمة الطراز. وبعد فترة، قال في غير ارتياح: إنها صديقتي، حسناً؟ لا أحبذ حديثك عنها بهذه الطريقة.

لم ترد هيلين ورفعت يديها أعلى صدرها، فلم يكن قولها من ضرب الصواب على كل حال. وفيما بعد، أخذ يتدبر فيما إذا كان دافع عن ماريان أم أنه فقط دافع عن نفسه ضد تهمة ضمنية بخصوص ميوله الجنسية؛ أي أنه كان ذو رغبات ملوثة وغير مقبولة.

وإلى حدود يومهم ذاك، كانت الحقيقة المسلم بها والمكتومة أن هيلين وماريان ليستا على وفاق تام. إنهما شخصان مختلفان. يظن كونيل أن جوانب شخصه الأكثر تطابقاً مع هيلين هي أفضلها: وفاؤه ومواقفه العملية، ورغبته في أن يكون شخصاً صالحاً. فمع هيلين لا يشعر بأمور مخزية؛ ولا يجد نفسه يقول كلاماً غريباً كلما مارسا الجنس؛ ولا يتلبسه ذلك الإحساس الدائم بالتيه، وأنه لا ينتمي ولن ينتمي إلى أي عالم من العوالم. كانت ماريان تتصف بنوع من الضراوة والتي تسربت عدوتها إليه لفترة ما، واجتاحه إحساس بأنه يشبهها تماماً في ضراوتها، وأنهما كان لهما الجرح الروحي

Bitterness-S

نفسه عديم الاسم، وأن لا أحد منهما في مكانه الصحيح في هذا العالم، بيد أنه لم يكن قد بلغ به الضرر مبلغها. هي فقط حملت إليه هذا الشعور.

ذات ليلة، وبينما كان واقفاً على السلم يتفرس هاتفه منتظراً هيلين في الكلية خارج مبنى الخرجين التذكاري، حيث كانت قادمة من النادي الرياضي في الطرف الآخر من الحرم الجامعي ليستقلا الحافلة إلى بيتها، انفتح الباب من خلفه ولفظ حفنة من الناس في بدلات رسمية، يضحكون ويتجاذبون أطراف الحديث. كان الضوء المنبعث من الرواق مسلطاً عليهم من الخلف فصورهم فيما يشبه رسماً ظلياً، حتى إنه استغرق عدة ثوانٍ ليتعرف على ماريان. كانت ترتدي فستاناً داكن اللون وقد حزمت شعرها أعلى رأسها فبدت رقبتها مكشوفة مرهفة. وقعت عيناه على تعابير وجهها المألوفة. مرحباً، قالت. لم يكن يعرف أياً من الأشخاص الذين بصحبتها، وقد خمن أن يكونوا زملاءها في نادي المناظرات أو ضرباً من هذا. رد التحية. كيف لشعوره تجاه ماريان أن يشبه بأي حال من الأحوال شعوره تجاه باقي البشر؟ ولكن جزءاً من هذا الشعور تجسد في السيطرة الفظيعة التي كان ولا يزال يمتلكها عليها، ولا يتوقع أن يفقدها يوماً.

وصلت هيلين حينها ولم يلحظ وجودها إلا عندما نادته. كانت ترتدي طماقاً وحذاء رياضياً وحقيبة الرياضة معلقة على كتفها، وما يشبه البلل على جبينها يتألق لامعاً تحت ضوء مصابيح الشارع. خالجته فورة هائلة من الحب تجاهها؛ حب وعطف، أقرب إلى التعاطف. كان يعلم أنه ينتمي إلى عالمها وأن ما كان بينهما طبيعي، وأن علاقتهما جيدة، وأن الحياة التي يعيشانها هي الحياة الصحيحة.

Bitterness-s

تناول الحقيبة من على كتفها ولوّح بتحية وداع لماريان التي لم تلوّح له واكتفت بإيماءة. أردفت هيلين: استمتعي بوقتكِ! ثم اتخذا سبيلهما ليستقلا الحافلة ونفسه تنبض حزناً على حال ماريان. كان حزيناً لأن لا شيء في حياتها بدا صحياً ولأنه كان عليه الابتعاد عنها في نهاية المطاف. كان يعلم أنه آلمها. وعلى نحو ما فقد كان حزيناً من أجل نفسه هو أيضاً. اتخذ مقعده في الحافلة ثم عاد بذاكرته إلى ماريان واقفة في الرواق والأضواء وراءها؛ يا لروعتها، ويا لرقة تعابير وجهها عندما نظرت إليه. ولكنه لم يقدر أن يكون على ما أردته هي. ثم ما لبث أن أدرك أن هيلين كانت تتحدث إليه، فقطع وصال الذاكرة مع كل هذا وطفق ينصت إليها.

أعدت بيغي طبق معكرونة للعشاء فجلسوا إلى المائدة الدائرية بالحديقة يأكلون تحت سماء فاتنة في زرقة الكلورين تتمدد أنيقة لا ملامح فيها كمثل ثوب الحرير. جلبت ماريان من الداخل زجاجة نبيذ باردة فوارة والقطرات الناتجة عن التكثف تجري على الزجاج، وطلبت من نيال أن يفتحها. وقد رأى كونيل في قرارها هذا حس اللياقة فماريان إنسانة رقيقة وذات طبع اجتماعي في هكذا مناسبات، كمثل زوجة رجل دبلوماسي. كان كونيل يجلس بين بيغي وماريان. طارت سدادة الزجاجة وتوارت خلف جدار الحديقة حيث لا يراها إنسي. تسرب بعض السائل وطفى على فم الزجاجة، فأخذ نيال يسكب النبيذ في كوب هيلين. كانت الأكواب كبيرة وضحلة كأنها صحون فقلب جيمي الكوب على عاقبه معلقاً: أليس لدينا أكواب خاصة بالشمبانيا؟

- هذه أكواب خاصة بالشمبانيا، علّقت بيغي.

Bitterness-s

- كلا، أقصد الأكواب الأخرى، الطويلة.

- أنت تقصد «الفلوتس»[1]، هذه «كوبس»، أوضحت بيغي.

فكر كونيل في هيلين ضاحكة من حديث كهذا، وابتسم لما فكر إلى أي مدى قد تضحك. قالت ماريان: إنها ليست مسألة حياة أو موت، أليس كذلك؟ ملأت بيغي كوبها ومررت الزجاجة لكونيل.

- أنا فقط أقول إن هذه الأكواب غير مخصصة للشمبانيا، أصرّ جيمي.

- أنت شخص غير مستنير، قالت بيغي.

- أنا غير مستنير؟ إننا نشرب الشمبانيا في أطباق المرق!

أنشأ نيال وهيلين يضحكان فابتسم جيمي مأخوذاً بانطباعه المغلوط أنهما يضحكان من طريف قوله. لمست ماريان جفنها بطرف إصبعها بلطف كمن يريد إزالة حبة غبار أو رمل حطت على عينه، ثم ناولها كونيل الزجاجة فأخذتها.

- إنها أكواب شمبانيا قديمة الطراز كانت لوالدي، اذهب إلى المطبخ واجلب كأس فلوت إن كنت تحبذها، إنها في الرف مباشرة فوق الحوض، قالت ماريان.

اتسعت حدقتا عيني جيمي في تهكم وقال: لم أكن أعلم أن هذا الموضوع عاطفيٌّ بالنسبة إليك.

وضعت ماريان الزجاجة في منتصف المائدة صامتة. لم يسبق لكونيل أن سمعها تذكر اسم والدها هكذا في المحادثات العابرة، ويبدو أن لا أحد قد فطن لهذا؛ فهيلين ربما لا تعلم أن والد ماريان ميت، ثم حاول كونيل تبادل النظرات مع ماريان فلم يفلح.

---

(1) Flutes: أكواب طويلة ومقعرة تخصص لاحتساء شراب الشمبانيا - المترجم.

Bitterness-S

- المعكرونة لذيذة، قالت هيلين.

- أوه! إنها مطهوة على طريقة ألدينتي[1]، أليس كذلك؟ ربما ألدينتي أكثر من اللازم، علّقت بيغي.

- أعتقد أنها جيدة كفاية، قالت ماريان.

شرب كونيل جرعة من النبيذ حملت إلى فمه رغوة باردة سرعان ما اختفت. طفق جيمي يروي لهم قصة وقعت لأحد أصدقائه الذي يقضي دورة تدريبية صيفية في مؤسسة جولدمان ساكس. فرغ كونيل كأس النبيذ خاصته فأعادت ماريان ملأها فشكرها في هدوء ثم طافت بيدها في الهواء لثوانٍ كما لو أنها ستلمسه ثم عدلت وركنت للصمت.

في صباح اليوم الذي تلى الإعلان عن نتائج استحقاق المنح الجامعية، كان عليهما الذهاب هو وماريان لحضور مراسيم أداء اليمين سوياً. وفيما يبدو أنها كانت قد خرجت للسهر خلال الليلة الماضية وقد أثقلت من الشرب فبدت عليها آثار ذلك، الأمر الذي استحسنه هو لأن طبيعة الحفل كانت رسمية جداً وقد حتم عليهما العرف ارتداء العباءات وتلاوة كلمات باللغة اللاتينية. فإذا فرغا من هذا خرجا معاً لتناول الفطور في مقهى قريب من الكلية. جلسا إلى طاولة خارج المقهى بمحاذاة الطريق حيث يشاهدان المارة يجيئون ويغدون حاملين أكياس تسوق ورقية ومحدثين جلبة بمكالماتهم الهاتفية الصاخبة. شربت ماريان كأساً واحدة من القهوة وطلبت قطعة

---

(1) Al dente: مصطلح إيطالي لقياس درجة طهي المعجنات بحيث لا تكون مطهوة بشكل كامل - المترجم.

Bitterness-S

كرواسون لم تأكلها كاملة، فيما طلب كونيل عجة بلحم الديك الرومي والجبن وشريحتين من الخبز بالزبدة وشاياً بالحليب.

قالت ماريان إنها قلقة بشأن بيغي، الوحيدة من بينهم الثلاثة التي لم تتمكن من الحصول على المنحة. قالت إن ذلك سيكون أمراً صعباً بالنسبة لها. تنهد كونيل دون أن ينبس بكلمة. والحال أن بيغي لم تكن في حاجة لمن يساعدها في دفع رسوم الكلية أو في حاجة للسكن المجاني، إذ كانت تقطن في بيت في منطقة بلاكروك الراقية وكان والداها طبيبين، إلّا أن المنحة في نظر ماريان مسألة شعور شخصي أكثر من كونها مسألة مالية.

- على أية حال أنا سعيدة من أجلكَ.

- وأنا سعيد من أجلكِ أيضاً.

- لكنك تستحقها أكثر مني.

تطلع إليها ومسح فمه بالمنديل مستطرداً:

- تقصدين من الناحية المالية؟

- أوه، في الواقع كنت أقصد أنك أكثر ذكاء. ثم تفرست في قطعة الكرواسون على الطاولة وهو يطالعها مضيفة:

- ومن الناحية المالية كذلك طبعاً، أعني أنه من السخافة عدم تقصيهم الظروف المادية وأخذها بعين الاعتبار.

- أعتقد أننا ننحدر من خلفيات مختلفة جداً، اجتماعياً وطبقياً.

- أنا لا أفكر في هذا الأمر كثيراً، ثم استطردت سريعاً: آسفة إن هذا قول الجاهلين، ربما يجب علي أن أفكر فيه أكثر.

- ألا تعتبرينني صديقك الكادح؟

أفصح ثغرها عن ابتسامة بدت أقرب إلى التكشيرة وقالت: إني مدركة لحقيقة أننا تعرفنا إلى بعضنا لأن والدتك تعمل في بيت

أسرتي، كما أنني أعتقد أن والدتي مشغلة سيئة فهي تدفع للورين أجراً زهيداً.

- كلا، إنها بالكاد تدفع لها ملاليم.

قطع كونيل شريحة صغيرة من العجة بسكينه وقد وجد أن البيض أكثر هشاشة مما يحب.

- أستغرب أننا لم نأت على ذكر هذا الموضوع من قبل. أظن أنه من حقك العادل أن تكون ممتعضاً مني.

- كلا، أنا لست ممتعضاً منكِ، ولم عساي أكون؟

وضع الشوكة والسكين على الطاولة وحدق فيها فإذا بوجهها تكسوه تعابير القلق.

- كل ما في الأمر أنني أرى في الأمر غرابة. لقد أحسست بالغرابة وأنا أرتدي ربطة عنق سوداء وأتلو أشياء باللغة اللاتينية. أتدرين، إن أولئك الشباب الذين كانوا يقدمون لنا العشاء ليلة أمس، إنهم طلبة مثلنا وهم يشتغلون حتى يعولوا أنفسهم في نفقات الكلية، يشتغلون بينما نحن نجلس هناك ونأكل الطعام الذي يقدمونه لنا، فأي فظاعة هذه!

- صدقاً، إنها كما أسميتها. إني أجزم أن فكرة «الاستحقاق» برمتها، أو أياً كان ما يطلقونه عليها، فكرة مشينة. ولكن ما الذي عسانا نفعله؟ نرجع قيمة المنحة مثلاً؟ لا أحسب ذلك يجدي نفعاً.

- إننا دائماً ما نجد أسباباً نتذرع بها حتى لا نفعل بعض الأشياء.

- هيا! ولا أنت ستفعلها، أنت تعلم ذلك، فلا تحشرني في زمرة الذنب لوحدي.

Bitterness-s

تابعا أكلهما وكأنهما يصطنعان جدالاً يلح كل طرف فيه على موقفه الثابت منه، وقد اختارا المواقف على نحو اعتباطي تقريباً، فقط كي يمضيان بالنقاش إلى الأمام. وغير بعيد حيث جلوسهما حط نورس كبير ذو ريش ناعم ونظيف للغاية على أحد أعمدة النور.

- يجب أن تتخذَ موقفاً حازماً حيال طبيعة المجتمع التي تراها ملائمة. فلو أنك تصر على أن من حق الناس جميعاً ولوج الكلية ودراسة الإنجليزية ونيل الشهادات، فلا يضيرك الأمر إن فعلت ذلك أنت أيضاً، فأنت واحد من الناس ولك الحق في ذلك.

- طيب، لا بأس عليك، أنت لا تشعرين بالذنب حيال أي شيء.

أخذت تقلب حقيبتها باحثة عن شيء ما ثم قالت في بديهة: أهكذا تراني؟

رد كونيل نافياً ثم استطرد جاهلاً مقدار شعور ماريان بالذنب تجاه أي شيء: لا أدري. كان يجب أن أعلم أن رحلتي إلى كلية الثالوث ستكون على هذا الحال. كل ما في الأمر أنني أجدني أتأمل في موضوع المنحة هذا وأفكر: بحق المسيح ما الذي قد يقوله الناس في المدرسة؟

أطبقت بالصمت لوهلة فخالجه شعور مبهم بأنه قد عبر عن أفكاره على النحو الخاطئ لكنه لم يعرف كيف. في الواقع، لطالما شغل بالك ما قد يقوله الناس في المدرسة، أردفت ماريان. فتذكر عندها كيف كان يعاملها الناس في المدرسة وكيف كان يعاملها هو كذلك، ثم تملكه شعور بالذنب. لم تكن تلك الخلاصة التي ود أن يخلص إليها نقاشهما ولكنه تبسم وقال: هكذا إذاً! ثم بادلته الابتسامة وتناولت فنجان القهوة. راح يقول في خلده إن علاقتهما

التي خضعت لشروطه أيام المدرسة هي تخضع الآن لشروطها هي، بيد أن ماريان أكثر كرماً. إنها شخص أفضل منه.

عندما فرغ جيمي من قصته، دخلت ماريان إلى المطبخ ثم عادت حاملة زجاجة أخرى من النبيذ الفوار وزجاجة من النبيذ الأحمر. أخذ نيال يفك الشريط من على الزجاجة الأولى وناولته ماريان بريمة الفتح، فيما أنشأت بيغي تأخذ الأطباق. أزال نيال رقاقة الزجاجة في الوقت الذي مال فيه جيمي نحو ماريان يهمس لها بشيء. غرس نيال البريمة في السدادة ثم برمها نحو الأسفل بينما أخذت بيغي طبقه لتضعه فوق الآخرين، ثم طوي ذراعي البريمة لتُقذف بالسدادة خارج عنق الزجاجة محدثة صوتاً أشبه بالبقبقة.

الآن، أفلت زرقة السماء واستحالت أكثر فتوراً، ترقشها سحب فضية اللون على شفة الأفق. أحس كونيل باحمرار وجهه فتساءل إن كان قد تعرض لسفعة شمس. تجده يحب تخيل ماريان وقد تقدّمت في السن وصارت أم أطفال. يتخيل تجمعهم كلهم هنا في إيطاليا وهي تعد السلطة أو سواها وتتأفف بشأن زوجها الأكبر سناً، شخص مثقف على الأرجح، تراه رتيب الطبع. ستقول له: لماذا لم أتزوجك أنت؟ تجده يرى صورة ماريان بكل وضوح في حلم اليقظة هذا؛ يرى وجهها ويحس أنها قد أصبحت تعمل في الصحافة، وتعيش في لبنان ربما. لم يستطع رسم صورة له هو ولم يعلم ما الذي سيكون قد فعله، لكنه يعلم بماذا سيجيبها على سؤالها: إنه المال يا ماريان، ثم ستضحك من قوله دون النظر إليه، مواصلة إعداد السلطة.

ظلوا جالسين إلى الطاولة يناقشون تفاصيل رحلتهم إلى البندقية: أي قطار سيركبون، وأي المعارض أجدر بالزيارة. أخبرت ماريان

كونيل أنه سيحبذ متحف غوغنهايم[1]، فأثلج هذا صدره لأنها قد تحدثت إليه، ولأنه قد أشير إليه باعتباره عاشق الفن الحديث.

- لا أعلم لماذا ننشغل بالبندقية، مدينة مكتظة بالآسيويين الذين يأخذون صوراً لكل شيء، قال جيمي.

- لا جعلك الرب تلتقي بآسيوي يا جيمي، قال نيال.

ساد صمت في المكان ما كسره إلا صوت جيمي سائلاً: ماذا؟ وقد بدا من نبرة صوته، ومن الغلاف الزمني الذي استغرقه للرد، أنه قد ثمل.

- إن ما قلته عن الآسيويين لتوك ضرب من العنصرية، وأنا لا أضخم الأمر، أجاب نيال.

- أوه، الآن سيمتعض كل الآسيويين الجالسين إلى الطاولة معنا، أليس كذلك؟

استندت ماريان واقفة بشكل مفاجئ قائلة: سأذهب لأحضر الفواكه.

شعر كونيل بخيبة أمل من موقف الجُبْن ذاك، لكنه ظل صامتاً. تبعت بيغي ماريان إلى الداخل تاركتين صمتاً وراءهما ما كسرته إلا حفنة من الفراشات تحوم في الظلام فبددها جيمي بضربة من منديل الطاولة. وما هي إلا دقيقة أو اثنتان حتى خرجت بيغي وماريان من المطبخ تحملان الفاكهة: سلطانية زجاجية كبيرة من الفراولة المشطورة ومجموعة من الصحون البيضاء والمعالق الفضية، وزجاجتان إضافيتان من النبيذ. جابت الصحون حول الطاولة وملأها الحاضرون بالفاكهة.

---

(1) Peggy Guggenheim Collection: متحف للفن الحديث بالبندقية. - المترجم.

- لقد قضت ماريان كل المساء تقطع هذه الفاكهة اللعينة، قالت بيغي.
- أشعر أنني فتاة مدللة، قالت هيلين.
- أين الكريما؟ سأل جيمى.
- إنها بالداخل، ردّت ماريان.
- ولم لم تحضريها إذاً؟ سأل جيمي.

دفعت ماريان كرسيها بعيداً عن الطاولة ببرود ووقفت لتدخل إلى المطبخ. لقد أصبح الظلام حالكاً تقريباً. طاف جيمي بعينيه على الحاضرين باحثاً عمن يبادله النظرات ويتفق معه بأنه كان على حق في سؤاله عن الكريما، أو أن ماريان قد بالغت في ردة فعلها إزاء سؤال بريء، لكنه عاد خاوي الوفاض فتنهد بصوتٍ عالٍ ودفع كرسيه إلى الخلف ثم تبعها إلى المطبخ. تأرجح الكرسي وسقط على العشب دون صوت. دخل من الباب الجانبي للمطبخ وأوصده بقوة. كان هناك باب خلفي أيضاً يؤدي إلى الجهة الأخرى من الحديقة حيث توجد الأشجار، لكنه أُغلق بجدار اسمنتي فلم تعد تُرى سوى قمم الأشجار.

ولما أعاد كونيل انتباهه إلى الطاولة، ألفى نيال يتفرسه فلم يفهم معنى ذلك. حاول أن يرمش بعينيه بغية إظهار ارتباكه لنيال، الذي أرسل نظرة معبرة اتجاه المنزل ثم نظرة إليه. نظر كونيل من وراء كتفه الأيمن فلمح النور في المطبخ يتسرب منه بريق مصفر عبر باب الحديقة. لم يمكنه موقعه سوى من نظرة عرضية فلم يتمكن من معرفة ما الذي يجري بالداخل. كانت بيغي وهيلين منغمستين في الإطراء على مذاق الفراولة اللذيذ، وعندما سكتتا تناهى إلى سمع كونيل صوتٌ آتٍ من الداخل، صوت يشبه الزعيق. فتسمر الجميع بينما

وقف هو واتجه إلى المطبخ وهو يشعر بضغط دمه في هبوط، فقد كان قد شرب زجاجة نبيذ أو يزيد لوحده.

لما وصل إلى باب المطبخ، رأى جيمي وماريان واقفين إلى المنضدة يتجادلان ولم يريا كونيل عبر زجاج الباب. تسمرت يده عند مقبض الباب يعاين المشهد؛ ماريان محمرة البشرة، ربما من فعل تعرضها المفرط للشمس أو ربما من غيظها الشديد، وجيمي، متثاقلاً، يعيد ملء كوبه المخصص للشمبانيا بالنبيذ الأحمر. أدار كونيل مقبض الباب ودلف إلى الداخل قائلاً: حسناً؟ فسكت كلاهما عن الكلام ونظرا إليه، فلاحظ أن ماريان ترتعد كأنها تشعر بالبرد. رفع جيمي كأسه في اتجاه كونيل بتهكم دالقاً ببعض النبيذ على حافة المنضدة وعلى الأرض.

- قالت ماريان في هدوء: ضع هذه الكأس من يدك.

- عذراً، ماذا قلت؟

- ضع هذه الكأس من يدك أرجوك.

ابتسم جيمي وأومأ لنفسه مضيفاً: تريدينني أن أضع هذه الكأس من يدي؟ حسناً، حسناً، انظري، أنا أضعها من يدي الآن.

ثم ترك الكأس من يده لترتطم بالأرض وتتهشم، فصرخت ماريان صرخة عميقة من حلقها واندفعت بجسمها على جيمي ويدها إلى الخلف كأنها أرادت ضربه. حال كونيل بينهما يسحق الزجاج تحت حذائه وتلقف ماريان من أعلى ذراعها ومن ورائه جيمي يضحك. حاولت ماريان إبعاد كونيل جانباً وجسدها كله يرتعش، ووجهها مبقع لا لون فيه كما لو أنها باكية. قال لها: تعالي معي، فنظرت إليه وتذكر حينها كيف كانت أيام المدرسة؛ فظة عنيدة مع

Bitterness-s

الجميع. لقد كان يعرف عنها الكثير حينها. نظر أحدهما إلى الآخر ثم تخلت عن صلابتها وتراخت في يده كأنها تلقت رصاصة.

- إنك مختلة عقلياً، أنت حقاً كذلك وتحتاجين للعلاج، قال جيمي.

أدارها كونيل وقادها نحو الباب الخلفي، فلم تبد أية مقاومة.

- إلى أين أنتما ذاهبان؟

لم يرد عليه كونيل الذي فتح الباب وخرجت منه ماريان دون أن تنطق بحرف. أوصد الباب وتبعها إلى ذلك الجزء من الحديقة حيث لا نور يكسر عتمة الليل البهيم إلا من بعض الوميض القادم من النافذة المرقطة. كانت حبات الكرز تتوهج تحت الضوء الخافت على الأشجار. كانا يسمعان صوت بيغي من فوق الجدار. نزلا الدرج في صمت ونور المطبخ يتعقبهما. سمعا جيمي على الجانب الآخر من الجدار يلتحق بالبقية. مسحت ماريان أنفها بظهر كفها. تتدلى حبات الكرز من الأشجار حولهما براقة كأنها كواكب في صورة طيفية. كان الجو خفيفاً برائحته وفي لون اليخضور. لاحظ كونيل أنهم يبيعون علك اليخضور هنا في أوروبا. كانت السماء في زرقة مخملية ترقطها نجوم وامضة لا يسطع منها ضوء. سارا سوياً بمحاذاة صف من الأشجار مبتعدين عن البيت ثم توقفا.

استندت ماريان إلى جذع شجرة فضية ممشوقة وطوّقها كونيل بذراعيه فأحس بجسمها النحيل ثم تساءل في خلده إن كانت على هذا الحال من ذي قبل. ضغطت وجهها على قميصيه النظيف الوحيد، أما هي فكانت لا تزال ترتدي فستانها الأبيض وقد أضافت إليه وشاحاً مطرزاً الآن. ضمّها إليه بقوة، واعتدل بهيئته حتى يتواءم مع جسدها كمن يعدل فرشة السرير حتى تتناسب معه. لانت بين

Bitterness-S

يديه وقد بدت أكثر هدوءاً. أخذت أنفاسهما تتباطأ في إيقاع متزامن، ونور المطبخ يشعل تارة وينطفئ أخرى، والأصوات تتعالى وتسكن. كان كونيل يحس أنه متمكن مما يفعله، لكنه تمكّن أجوف وكأنه يؤدي مهمة يحفظها بصورة جوفاء. وجد أنامله تمسد شعر ماريان وهو يدلك رقبتها بهدوء، ولم يعلم كم مضى من الوقت يفعل هذا، فيما فركت ماريان عينيها برسغها.

أخلى كونيل سبيلها فتحسست حقيبتها باحثة عن علبة سجائر وعلبة مهشمة من عيدان الثقاب. مدت إليه سيجارة فتناولها، ثم أوقدت عود ثقاب فلما أضاء ما حولها تجلت ملامحها في عز الظلام. بدت بشرتها جافة وملتهبة، وعيناها متورّمتين. امتصت دخان السيجارة فأطلقت الأخيرة هسهسة وهي تحترق بين شفتيها. أشعل هو سيجارته ثم تخلص من عود الثقاب على العشب وهشمه تحت حذائه. أخذا يدخنان سيجارتيهما بروية، ثم وقف وابتعد عن الشجرة يعاين أسفل الحديقة، بيد أن الظلام الكالح لم يسعفه في تبين أي شيء، فعاد أدراجه إلى حيث تجلس ماريان تحت الأغصان ثم قطف ورقة كبيرة في لامبالاة. ثبتت السيجارة بين شفتيها ثم رفعت شعرها في يديها ولفّته في ربطة حزمتها بشريط مطاطي من رسغها. ولما انتهيا، ألقيا ببقايا السيجارتين على العشب.

- هل لي أن أنام في غرفتكَ هذه الليلة؟ لا تقلق سأنام على البلاط، سألته ماريان.

- لا تهتمي لذلك فالسرير واسع جداً.

كان الظلام حالكاً عندما عادا إلى المنزل. دلفا إلى غرفة كونيل فخلعا ملابسهما إلا الداخلية منها؛ كانت ماريان ترتدي حمالات

Bitterness-s

صدر قطنية بيضاء اللون ما جعل نهديها يبدوان صغيرين ومثلثي الشكل. استلقيا تحت البطانية جنباً إلى جنب.

بعد هنيهة سمعها تقول كلاماً لم يتبين ما هو، فقال لها إنه لم يستطع سماعها.

- لا أدري ما خطبي. لا أعلم لماذا لا أستطيع أن أكون مثل الناس العاديين.

خرج صوتها بارداً بعيداً على نحوٍ غريب، كأنه سُجِّل على آلة تسجيل ثم شُغِّل بعد أن رحلت.

- وكيف ذلك؟

- لا أعلم لماذا لا أستطيع جعل الناس يحبونني. أظن أن ثمة خطباً ما فيَّ منذ ولدت.

- الكثير من الناس يحبونك يا ماريان، حسناً؟ أسرتك وأصحابك، كلهم يحبونك.

أطبقت بالصمت للحظة ثم أردفت: إنك لا تعرف شيئاً عن أسرتي.

لم يكن قد استعمل كلمة «أسرة» عمداً وعلى وجه التحديد، فكل ما كان يرمي إليه هو قول شيء لطيف يطيب نفسها، وها هو الآن في ورطة.

استطردت في نفس الصوت عديم النبرة: إنهما يكرهانني.

انتصب جالساً على السرير ليراها على نحوٍ أفضل قائلاً:

أعلم أنك كثيرة الخصام معهما، بيد أن هذا لا يعني أنهما يكرهانك.

- آخر مرة زرتهما فيها في المنزل قال لي أخي إنه من الأفضل لي أن أقتل نفسي.

Bitterness-s

اندفع كونيل في حركة لاإرادية وانتصب في جلسته، دافعاً عنه البطانية كمن يهم بالوقوف ثم لاك لسانه حول فمه وقال:

- ولماذا قال لك ذلك؟

- وأنى لي أن أعلم. قال إني لا أصدقاء لدي ولن يفتقدني أحد إذا مت.

- ولماذا لا تخبرين والدتك بأنه يكلمك بهذه الطريقة؟

- لقد قالها في حضرتها.

حرك كونيل فكه وقد كان نبضه يخفق في رقبته ثم حاول أن يتصور ذلك المشهد في ذهنه؛ أسرة شيريدان موجودة في البيت ولسبب ما، يحث آلان ماريان على الانتحار، فألفى صعوبة بالغة في تصور أسرة تتصرف على النحو الذي وصفته ماريان لتوها.

- وما الذي قالته؟ أعني، كيف كانت ردة فعلها؟

- أظنها قالت شيئاً من قبيل: أوه! لا تشجعها على ذلك.

ببطء، أخذ كونيل شهيقاً من أنفه ثم زفر من فمه.

- وما سبب كل هذا؟ أقصد كيف بدأ الشجار أصلاً؟

استشعر أن شيئاً ما في وجه ماريان قد تغير لحظتئذ، أو استحال قاسياً، لكنه لم يستطع تسمية هذا الشيء بالضبط.

- تظن أنني فعلتُ شيئاً لأستحق ذلك.

- قطعاً. أنا لم أقل ذلك بتاتاً.

- أحياناً أقول في نفسي إني لا بدّ أنيَ أستحق ذلك؛ وإلا فلماذا يحدث لي؟ لكن آلان لا يتوانى في ممارسة هوايته في الإساءة إلي، فكلما تعكر مزاجه تجده يطوف البيت في أثري، يقتحم غرفتي غير آبه إن كنت نائمة أم مستيقظة، وأنا قصيرة الحيلة أمام كل هذا.

Bitterness-s

حك كونيل راحة كفه في البطانية مردفاً:

- هل يضربك؟

- أحياناً. قَلّ ذلك منذ أن رحلت إلى دبلن. صدقاً إن الضرب لا يضيرني بقدر ما يضيرني الألم النفسي. لا أعرف كيف أشرح لك ذلك. أعلم أن الأمر يبدو . . .

لمس جبينه فإذا بجلده بلِل. لم تكمل ماريان جملتها لتشرح له كيف يبدو الأمر.

- ولماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟ سألها. لم ترد. كان الضوء في الغرفة فاتراً لكنه كان يرى أن عينيها مفتوحتين، فكرر سؤاله: ماريان، لقد قضينا وقتاً طويلاً في علاقتنا فلماذا لم تخبريني بأي من ذلك من قبل؟

- لا أدري. أعتقد أنني لم أرد أن تظن أنني محطمة. ربما كنت أخشى أن تتركني بعد ذلك.

وضع وجهه بين كفيه فشعر بأصابعه باردة ومتعرقة على جفنيه، وبالدموع في عينيه. وكلما ضغط بأصابعه أقوى، ارتفع صبيبها فتنهمر مخضبة وجنتيه. اقتربي مني! قال ذلك بصوت ثقيل، فتنحنح. اقتربت منه وهو يشعر بخجل وتشوش رهيبين. استلقيا وجهاً لوجه فأحاطها بذراعيه وهمس في أذنها: أنا آسف، حسناً؟ أطبقت عليه وطوقته بذراعيها ثم طبع قبلة على جبينها. لكنه لطالما كان يظنها محطمة، كان يظن ذلك على أي حال. أغمض عينيه والإحساس بالذنب يتلبسه. استحال وجهاهما محمرين تخضبهما الدموع وتذكر قولها: كنت أخشى أن تتركني بعد ذلك. كان فمها قريباً منه فشعر بأنفاسها على شفتيه. أخذا يتبادلان القبل وقد تذوق في فمها مذاقاً داكناً كالنبيذ. لامس نهديها فقالت: لا، لا ينبغي لنا فعل هذا. ثم

Bitterness-s

سحبت جسمها من قبضته. كسر صوت أنفاسه المثير للشفقة جدار الصمت في الغرفة. انتظر إلى أن هدأ فلم يرد أن يتقطع صوته عندما يتكلم. أنا آسف جداً، قال، فأمسكت يده بإحكام في حركة حزينة جداً. لم يصدق مدى غباء ما قد فعل لتوه فكرر اعتذاره: أنا آسف. لكن ماريان كانت قد استدارت إلى الجهة الأخرى.

Bitterness-5

بعد مضي خمسة أشهر
(ديسمبر 2013)

جلست ماريان في بهو مبنى اللغات والأدب بالكلية تتفقد الرسائل الواردة على بريدها الإلكتروني. لم تخلع معطفها فما هي إلا لحظات حتى تغادر. وضعت على المكتب فطورها الذي ابتاعته لتوها من مركز تسوق على الجهة المقابلة من الشارع: قهوة بالسكر البني وقطعة حلوى بنكهة الليمون، أي فطورها المعتاد. اعتادت في الآونة الأخيرة أن تتناول طعامها ببطء، فتجدها تقضم لقمات كبيرة محلاة تركن بين أضراسها دهراً. فكلما أكلت ببطء أكبر، تأملت مكونات طعامها أكثر وقلَّت حدة جوعها، ولن يعضها الجوع إلا حوالي الثامنة أو التاسعة مساء.

اعتلت قائمة صندوق الواردات رسالتان؛ واحدة من كونيل والأخرى من جوانا. انتقلت بفأرة حاسوبها بين رسالتيهما ثم استقرت على رسالة جوانا وفتحتها.

لا أخبار مهمة هنا، كالعادة. في الآونة الأخيرة، قررت أن أعتكف في البيت أشاهد مسلسلاً وثائقياً من تسعة أجزاء عن الحرب الأهلية الأمريكية. لقد راكمت كمّاً من

المعلومات حول عددٍ من جنرالات الحرب سوف أزودك بها في مكالمة سكايب القادمة. كيف حالك؟ وكيف هو لوكاس؟ هل أخذ لك تلك الصور أم الموعد اليوم؟ والسؤال العريض: هل سأتمكن من رؤيتها عندما تنتهون منها أم أنها صور خاصة؟ أنتظر ردك. قبلاتي.

أخذت الحلوى وقضمت منها لقمة كبيرة، ببطء، ثم تركتها تذوب في طبقات على لسانها. مضغت اللقمة وابتلعتها ثم تجرعت من قهوتها وفتحت رسالة كونيل.

لم أفهم قصدك بالضبط من تلك الجملة الأخيرة. هل تقصدين فقط لأننا بعيدان عن بعضنا أم لأننا قد تغيرنا في شخصنا؟ لا أخفيك إحساسي بأنني بت مختلفاً عما كنت عليه من ذي قبل، لكن ربما لا أبدو كذلك. في الواقع لا أدري. بالمناسبة، لقد بحثت عن حساب صديقك لوكاس على الفيسبوك، إنه يتمتع بما تسمينه «المظهر الإسكندنافي». لسوء الحظ لم يتأهل المنتخب السويدي إلى نهائيات كأس العالم هذه المرة، لذا فإن ارتبطت بشاب سويدي فسيكون عليَّ إيجاد طريقة أخرى لأنسجم معه. إني لا أعني بذلك أن لوكاس هذا سيكون خليلك أو أنه سيرغب في الحديث معي حول كرة القدم، رغم أنني لا أستبعد هذا الاحتمال. أعلم أنك تنجذبين للرجال الوسيمين طويلي القامة كما تقولين، فلم لا يكون لوكاس إذاً! إنه شاب طويل القامة ووسيم أيضاً (اطلعت هيلين على صوره وقد شاطرتني الرأي). لكن على

Bitterness-s

كل حال أنا لا أدفعك إلى مسألة الارتباط دفعاً، فقط آمل أنك تيقنت من أنه ليس مريضاً نفسياً. فأنت لست ماهرة في استشعار هذه الأمور.

وبعيد عن هذا كله، فقد كنت راكباً سيارة أجرة في فينيكس بارك ليلة أمس، وقد رأينا في طريقنا قطيعاً من الأيائل. أتدرين، إن الأيائل حيوانات ذات مظهر غريب نوعاً ما، ففي الظلام تبدو كأنها أشباح هائمة ولها عيون تعكس الأضواء الأمامية باللون الزيتي أو الفضي كمثل التأثيرات الخاصة.

لقد تسمروا في مكانهم ليحدقوا في سيارة الأجرة قبل أن يمضوا في سبيلهم. ولقد ألفيت غرابة في أن يتوقف حيوان يحدق في سيارة، فهذا ينم عن ذكاء منه، لكن ربما لمجرد أنني أربط فعل الوقوف بالفكر. وعلى كل حال، فهي حيوانات أنيقة، ولو كنتِ أنتِ حيواناً لاستطعت فعل أسوأ من أن تكوني حيوان أيل. يعتلي وجوهها الذكاء المتقد وتتمتع بقوام ناعم. لكنها أحياناً تباغتك. إنها لم تذكرني بك لدى رؤيتي لها، لكن بعد أن تذكرتها وجدت نوعاً من التشابه بينكم، وأرجو ألا تزعجك المقارنة. وددت أن أخبرك بشأن الحفلة التي ذهبت إليها قبل أخذ سيارة الأجرة عبر فينيكس بارك، لكنها في الحقيقة كانت رتيبة للغاية وتقل جمالاً عن الأيائل، كما أنه لم يرتدها شخص قد ترغبين في معرفة أخباره. لقد كانت رسالتك الأخيرة رائعة، أشكرك عليها، وأنتظر رسائل أخرى منك بفارغ الصبر كالعادة.

Bitterness-s

تفقدت ماريان الساعة على الزاوية اليمنى أعلى الشاشة فإذا بها التاسعة وتسع وأربعون دقيقة، فعادت أدراجها إلى رسالة جوانا ثم نقرت زر الرد.

من المنتظر أن يأخذ تلك الصور اليوم، فأنا ذاهبة إليه الآن. سأرسلها إليك عند انتهائنا بالطبع، وأنتظر منك تعليقاً مسهباً تمدحين فيه كل صورة على حدة. أتوق لمعرفة المعلومات الجديدة التي راكمتها حول الحرب الأهلية الأمريكية. كل ما تعلمتُه من اللغة السويدية هو «لا، شكراً» (nej tack) و«حقاً، لا» (verkligen, nej). سأراسلك لاحقاً. قبلاتي.

أغلقت ماريان حاسوبها المحمول وقضمت لقمتين من الحلوى ثم لفّت الباقي منها في ورق مقاوم للدهن ودسّت حاسوبها في محفظتها واعتمرت قلنسوة البيريه خاصتها ثم تخلصت من باقي الحلوى في سلة مهملات قريبة.

الجو في الخارج تسوده رقائق الثلج التي تكسو الأرض كساء، والعالم في الخارج كمثل شاشة تلفاز عتيقة تعرض صوراً مشوشة وتقسم المشهد إلى شظايا ناعمة. دسّت ماريان يديها في جيبها، ورقائق الثلج تحط على وجهها وذوب عليه. نزلت إحدى الرقائق على شفتها العليا فتحسستها بلسانها، ثم خفضت رأسها إلى الأسفل حذر البرد وتابعت طريقها إلى حيث استوديو لوكاس. كان شعر لوكاس شديد الشقرة حتى تبدو لك الشعيرات بيضاء. ويحدث مرات أن تجد بعض هذه الشعيرات على ملابسها؛ شعيرات أرق من

الخيط. لا تخرج ملابسه عن اللون الأسود؛ كل ثيابه سوداء، الأقمصة، والسترات ذات القبعات، والأحذية ذات النعال المطاطية السميكة. إنه فنان، وأخبرته أول مرة التقيا فيها أنها أديبة، وقد كذبت في ذلك بالطبع وها هي الآن تتجنب الحديث معه في ذلك الموضوع.

كان لوكاس يقطن على مقربة من المحطة. أخرجت يدها من جيبها ونفخت عليها ثم ضغطت على الجرس ليجيب باللغة الإنجليزية: من هناك؟

- ماريان.

- آه، لقد وصلت باكراً، تفضلي بالدخول.

لماذا يا ترى قال إني «وصلت باكراً»؟ سؤال تردد في ذهن ماريان وهي تصعد أدراج السلم. لقد كانت الشبكة ضعيفة أثرت على جودة الصوت، لكنه بدا يقولها بابتسامة. هل يا تراه كان يريد أن يجعلها تبدو متلهفة للقاء؟ ولكنها تكتشف أنها لا تأبه إن بدت متلهفة أو خلاف ذلك، فهي لا تكتم تلهفاً سرياً حتى يكتشف أمره. كان بإمكانها التواجد في مكتبة الكلية أو في مسكنها تعد القهوة، أو تصعد أدراج السلم في طريقها لاستوديو لوكاس، كما هي عليه الآن. لقد قضت أسابيع أسيرة هذا الشعور؛ شعور بالتقلب داخل شريط واقٍ، تطفو مثل الزئبق، يلامس العالم الخارجي بشرتها الخارجية، لكن لا يصل إلى الجزء الداخلي. لذا، مهما كان قصد لوكاس من قوله «وصلت باكراً»، فلا يهمها بشيء.

وصلت الاستوديو فألفته ينسق المعدات. خلعت قبعتها وطفقت تهزها في يدها. تطلع لوكاس إليها ثم أعاد نظره إلى الحامل الثلاثي للكاميرا، ثم دشن حديثهما بسؤاله: هل تعودت على الطقس في

السويد؟ هزّت كتفيها وعلّقت القبعة على علاقة وراء الباب وأنشأت تخلع معطفها. في السويد لدينا مثل شعبي يقول: ليس هناك طقس سيئ، هناك فقط ملابس سيئة.

علّقت ماريان المعطف بجانب القبعة مجيبة بلطف: وما العيب بملابسي؟

- إنه مجرد مَثَل يُضرب.

لم تستطع تبين إن كان بقوله المأثور ذاك ينتقد ثيابها أم هو مجرد مثل كما قال. كانت ترتدي سترة من الصوف وتنورة سميكة سوداء اللون وتنتعل حذاء طويلاً يصل حتى ركبتيها. إن لوكاس شخص تعوزه اللباقة وحسن السلوك، مما جعل ماريان تعتبره صبيانياً، فلا تجده قط، عند وصولها، يقدم لها القهوة أو الشاي أو حتى الماء. فما إن تصل حتى يبدأ مباشرة بالحديث عما فعله أو ما قرأه منذ زيارتها الأخيرة. وأما آراؤها في الموضوع فلا يبدو أنها تستهويه كثيراً، إضافة إلى أن أجوبتها أحياناً تربكه أو تضلله، وهو أمر يعزيه دائماً إلى إنجليزيته الركيكة. والحال أنه يفهم الإنجليزية على نحو جيد. وعلى كل حال فاليوم ليس كسائر الأيام. خلعت حذاءها وتركته عند الباب.

في ركن الاستوديو مرتبة ينام عليها لوكاس. كانت النوافذ طويلة جداً تكاد تلامس الأرض، تغطيها ستائر وستائر خلفية رقيقة. كانت أرجاء الغرفة تعج بأشياء مختلفة منتشرة هنا وهناك: أوعية نباتات عديدة، وأكوام من الصور الجغرافية، وعجلة دراجة هوائية. هي أشياء انبهرت بها ماريان في البدء، لكنه شرح لها فيما بعد أنها أشياء جمعها لزوم التصوير، ما جعلها تبدو لها مصطنعة. قالت له مرة إن كلَّ شيء تأثيرٌ معه، وقد حسب ذلك مدحاً لفنه، فهو يتمتع

Bitterness-S

بذوق رفيع، وتجده يترصد النقائص في الفن وإن كانت مثقال ذرة؛ في الرسم وفي السينما، وحتى في الروايات أو البرامج التلفزيونية. فإذا ذكرت اسم فيلم شاهدته مؤخراً، تجده يلوح بيده معلقاً: إنه فيلم فاشل بالنسبة إلي. بيد أن هذا الذكاء المتقد الذي آنسته منه لم يجعل منه شخصاً طيباً. فما نفع الحساسية العالية تجاه الفن التي طورها فيه إن كان لا يستطيع التمييز بين الصالح والطالح؟ وكون شيء كهذا ممكناً أصلاً، جعل ماريان لا ترى جدوى من الفن.

لقد اتفقا قبل أسابيع على ترتيب من نوع ما. يسميه لوكاس «اللعبة». لعبة كسائر الألعاب، تقوم على قواعد. لعبة لا تستطيع خلالها ماريان النظر أو الحديث إليه وإن حدث وكسرت القاعدة، فتُعاقب لاحقاً. ولا تنتهي هذه اللعبة إلّا عندما تستحم. أحياناً يستغرق لوكاس وقتاً طويلاً قبل أن يسمح لها بالاستحمام، يقضيه في الحديث إليها، وينعتها بأقدح الصفات. ومن الصعب معرفة إن كانت تستحب سماع ذلك أم لا؛ إنها ترغب في سماعه، لكنها باتت الآن مدركة أنه من الممكن أن ترغب في شيء لا تريده. حتى المتعة المبتغاة من وراء ذلك كانت تأتي ضئيلة وشاقة، تأتي سريعة وتتركها عليلة مرتجفة. أنت عديمة القيمة، كان لوكاس يقول لها. أنت لا شيء، فتشعر أنها لا شيء؛ خواء يجب ملؤه بالقوة. لم تكن تفعل هذا لأنها تحب ذلك الإحساس، ولكن لأنه كان يخفف عنها على نحو منها. ثم تدخل الحمام وتنتهي اللعبة. بعدها تحس باكتئاب عميق يسكنها، ثم تأكل ما يأمرها بأكله، فتفقد العضمة على جسدها وكأنه قمامة.

ومنذ أن حلت بالسويد، أو على وجه الدقة، منذ أن بدأت هذه اللعبة، بدا لها الناس كأمثال أشكال ورقية ملوّنة، وغير حقيقية.

Bitterness-5

ويحدث أحياناً أن تلتقي عينها بعين أحدهم؛ سائق حافلة أو شخص يبحث عن فكة، فتصدم لوهلة من إدراكها أن هذه هي حياتها الحقيقية، وأن من شأن الناس رؤيتها. فيفتح عليها هذا الإحساس الباب على بعض الشهوات كالجوع والعطش والرغبة في تحدث اللغة السويدية أو رغبة جسدية في السباحة أو في الرقص. في لوند لا يعضها الجوع مطلقاً، ومع أنها تملأ قنينة إفيان بلاستيكية بالماء كل صباح، إلا أنها تفرغ معظم محتواها في الحوض لدى عودتها ليلاً.

تجلس الآن على طرف المرتبة بينما يشغل لوكاس المصباح ويفعل ما يفعله بآلة التصوير. ما زلتُ غير متأكد من الإضاءة، ربما يمكننا أن نأخذ الصورة الأولى وبعدها أخرى ثم نرى، قال لوكاس، فهزت ماريان كتفيها في صمت، إذ لم تكن تدري أهمية ترجى مما يقوله. ولما كان كل أصدقاء لوكاس يتكلمون السويدية، فقد قصرت حيلتها في تبين إن كان هذا الأخير محبوباً ومحترماً من أترابه. فالناس يأتون لقضاء وقت في الاستوديو خاصته فتجد أيديهم تمتد إلى المعدات الفنية، يحركونها أعلى وأسفل سلالم الدرج، ولا أحد يعلم إن كانوا معجبين حقاً بفنه وممتنين لاهتمامه، أم تراهم يداهنونه حتى يمرحوا في ورشته ويهزؤون منه وراء ظهره.

- طيب، أعتقد أننا جاهزان، قال لوكاس.

- أتريدني أن...

- ربما يكفي خلع السترة الآن.

خلعت ماريان السترة ووضعتها على حجرها ثم طوتها وركنتها جانباً. كانت ترتدي حمالة صدر سوداء ترقطها أزهار صغيرة، وانهمك لوكاس في ضبط شيء في آلة التصوير.

Bitterness-5

وأما بقية أصدقائها فكانت قد غابت عنها أخبارهم في الآونة الأخيرة: بيغي وصوفي وتيريزا وباقي شلتها. لم يكن جيمي سعيداً بانفصالهما وقد أخبر الناس بذلك جهراً فربح تعاطفهم. وهكذا بدأ الجميع يدير ظهره لها، وقد أحست بذلك قبل رحيلها. في البداية، لم تحب الطريقة التي عاملوها بها، كأن يشيحوا بنظرهم عنها في غرفة أو أن يسكتوا فور دخولها؛ لم تحب ذلك الشعور بأنها قد خسرت مجدها ومنزلتها في العالم الاجتماعي، وأنها لم تعد محط إعجاب وحسد، غير أنها اكتشفت بعد ذلك أنه من السهل التعود على الأمر. لطالما امتلكت شيئاً بداخلها أراد الرجال السيطرة عليه، ورغبتهم في السيطرة تلك يمكن أن تكتسي صورة الانجذاب، أو الحب حتى. في أيام المدرسة، حاول الفتيان كسرها بالقسوة وبالنبذ، وفي الجامعة حاول الرجال فعل ذلك بالجنس وبالشعبية، كل ذلك من أجل غاية واحدة، وهي قهر قوةٍ ما داخل شخصيتها. وفكرة أن سلوك الناس قابلة للتنبؤ إلى هذا الحد أشعرتها بالإحباط. ففي نهاية المطاف، لم يشكل كونها محط احترام أو احتقار فارقاً كبيراً. فهل ستظل كل محطة في حياتها تكشف لها أنها تكرار لما سبقها، وأنها تحمل لها نفس التنافس الشرس للسيطرة عليها؟

لقد كان الأمر عسيراً مع بيغي التي ما فتئت تردد عليها **أنا أعز صديقاتك**، تقول ذلك بنبرة تزداد غرابة، فهي لم تستسغ موقف ماريان المتجاهل تجاه الوضع. أتدركين أن الناس يتحدثون عنك؟ قالت بيغي ذات ليلة عندما كانت ماريان تحزم رحالها. ولم تعرف هذه الأخيرة كيف تجيب، ثم أردفت بعد برهة تأمل: لا أظنني أكترث دائماً للأمور التي تكترثين لها أنت، ولكنني أكترث لأجلك. رفعت بيغي يديها بغلو ودارت حول طاولة القهوة مرتين.

Bitterness-S

- أنا أعز صديقاتك، فماذا يفترض بي أن أفعل؟
- إني لا أعرف حتى معنى هذا السؤال.
- أعني ماذا يفترض بموقفي أن يكون؟ لأنني، صدقاً، لا أريد أن أنحاز إلى أي صف من الصفين.

دست ماريان فرشاة شعر في جيب الحقيبة مكشرة السحنة مستطردة:

- تقصدين أنك لا تريدين أن تنحازي إلى صفي.

تطلعت إليها بيغي وهي تتنفس بعسر من فعل جهدها حول الطاولة بينما لم تزل ماريان جاثية أمام حقيبتها.

- لا أدري إن كنت تفهمين شعور الناس حيال ذلك، إن الجميع مستاء من الموضوع، قالت بيغي.
- من موضوع انفصالي عن جيمي؟
- من القصة برمتها. إن الجميع مستاء بحق.

نظرت إليها بيغي منتظرة إجابة، فردّت ماريان في الأخير: طيب. فركت بيغي وجهها قائلة: سأنصرف لأدعك تهيئين رحالك ثم أردفت لدى الباب: الأفضل لك أن تعرضي نفسك على معالج نفسي أو ما شابه. لم تفهم ماريان اقتراحها فراحت تقلب الاحتمالات في خلدها: أعرض نفسي على معالج نفسي لأنني لستُ مستاءة؟ إلا أنه كان من الصعب عليها التغاضي عن كلام لم يبرح مسامعها طوال حياتها ومن مصادر شتى: أنها كانت غير سليمة عقلياً وأنها تحتاج المساعدة في هذا الخصوص.

جوانا الوحيدة التي ظلت على اتصال بها. تلتقيان في المساء في محادثة على سكايب، تناقشان شؤون دراستهما والأفلام التي شاهدتاها والمقالات التي تعمل عليها جوانا لإعداد ورقتها البحثية.

Bitterness-s

تنبعث أنوار الشاشة مضيئة وجهها على نحوٍ خافتٍ في الخلفية نفسها، غرفتها المدهونة بلون القشدة. لم تعد تضع مساحيق التجميل بتاتاً، وأحياناً لا تمشّط حتى شعرها. ارتبطت بفتاة مثلية اسمها إفلين تدرس في قسم دراسات السلام الدولي. سألت ماريان جوانا إن كانت تلتقي ببيغي أحياناً فجفلت ملامحها بسرعة، حركة لم تدم سوى جزء من الثانية، لكنها كانت كافية حتى تلمحها ماريان. كلا، لا ألتقي أياً منهم فعم يعلمون أنني منحازة لصفك، ردت جوانا.

- آسفة، لم أرغب أن تخسريَ وصالك مع أحد بسببي.

تغيرت سحنة جوانا مجدداً إلا أن ماريان لم تستطع هذه المرة فك تعابيرها، وذلك إما بسبب الإضاءة الخافتة، أو رداءة الصورة على الشاشة، أو بسبب الشعور المتناقض الذي كانت تحاول إيصاله.

- على كل حال لم يكونوا أصدقائي بقدر ما كانوا أصدقاءك.

- خلت أننا كنا جميعاً أصدقاء.

- أنتِ الوحيدة التي كنتُ على وفاق معها. صدقاً لا أعتقد أن جيمي وبيغي شخصان طيبان. أنا لا أهتم إن كنت ترغبين في المحافظة على صداقتك معهما، فذاك ليس من شأني، أنا أدلي برأيي فقط.

- كلا، أنا أوافقك الرأي. أظن أنني كنت مخطئة لما فكرت أنهما يحباننني.

- نعم، أعتقد أنك أدركت بعد التمعن مدى دناءتهم، أما أنا فلم أجد صعوبةً في ذلك لأنهما لم يحباني أصلاً.

تفاجأت ماريان من هذا التحول في مسار النقاش، وأحست أنها

Bitterness-s

تُوبَّخ من طرف جوانا، رغم أن نبرة هذه الأخيرة ظلت ودّية. والواقع أنها على حق؛ فما كانت بيغي ولا جيمي شخصَين طيّبَين؛ بل كانا سيئين، إذ كانا يستلذان استصغار الآخرين. لقد شعرت بالغبن أنْ انخدعت فيهما، وأنْ حسبت وجود أوجه تشابه بينهم، وأن شاركتهما في تجارتهما التي سوقاها على أنها صداقة.

في المرحلة الثانوية، كانت تحسب أنها فوق التجارة القائمة على الرأسمال الاجتماعي هذه، عدا أن حياتها الجامعية أكدت لها بالملموس أن لو أحداً رغب في الحديث إليها أيام الثانوية، لتصرفت بنفس حماقة الآخرين، فلم تكن في منزلة أعلى.

- هل يمكنك أن تستديري قبالة النافذة؟ سأل لوكاس.

- بالطبع.

استدارت ماريان على المرتبة وساقاها مرفوعتان إلى صدرها.

- هل يمكنك أن تتحركي بحيث... تبسطين ساقيك؟

عقدت ماريان ساقيها أمامها، بينما يثني لوكاس حامل الكاميرا ثلاثي القوائم إلى الأمام ثم يعيد تعديل الزاوية. عادت بذاكرتها إلى سطور الرسالة التي قارنها فيها كونيل بالأيائل، ولقد استحبت الجزء المتعلق بالوجوه المتقدة الذكاء والأجساد الناعمة. وقد فقدت في السويد المزيد من وزنها فاستحالت ذات جسم ضامر وأنيق.

قررت عدم الذهاب إلى بيتها في كاريكلي خلال عطلة عيد الميلاد لهذا العام. تجدها تفكر كثيراً في السبيل إلى انتشال نفسها من «وضع العائلة». وإذا خلدت إلى سريرها في الليل، تتخيل سيناريوهات تعيش فيها حياتها بمنأى عن شقيقها وعن والدتها، فلا هي على وئام معهما ولا هي على بين، فقط شخص ذو وجود محايد

Bitterness-s

في حياتهما. لقد أفنت طفولتها ومرحلة المراهقة في إعداد خطط مفصلة كي تنسل نفسها من صراعات أسرتها: فتجدها تقعد واجمة تماماً، وتحافظ على ثبات وسكون سحنتها وجسدها، وتترك غرفة الجلوس في صمت وتتجه إلى غرفتها موصدة الباب بهدوء خلفها. تغلق الباب عليها في المرحاض، وتترك البيت لساعات طويلة فتختلي بنفسها في مرآب سيارات المدرسة. عدا أن كل هذه الاستراتيجيات لم تؤت أكلها. بل على العكس من ذلك، كانت هذه التكتيكات ترفع من إمكانية تعرضها للعقاب باعتبارها المحرض الأساسي.

والآن هي ترى بوضوح أن محاولاتها لتفادي قضاء عطلة عيد الميلاد مع العائلة، التي ما فتئت تجسد أكثر المناسبات التي تتفشى فيها الأعمال العدوانية، ستدخل سجل الحسابات المنزلي تحت وسم سلوك عدائي آخر يقيد باسمها.

ترتبط مناسبة عيد الميلاد في ذهنها بكاريكلي، بالأضواء الساطعة من الأعمدة المتراصة على طول الشارع الرئيسي، ودمى سانتا كلوز البلاستيكية اللامعة في واجهة حانة كيليهر تلوح بيدها التحية. حبات ثلج مصنوعة من رقائق القصدير تتدلى من صيدلية المدينة، وباب محل الجزارة يتأرجح، والأصوات تنادي من الزاوية، وأنفاس الحاضرين ضباب يتصاعد في مرآب الكنيسة ليلاً. وفي حي فوكسفيلد مساءً، تلفي البيوت ساكنة كهرة تربض نائمة، والنوافذ تلمع منها الأنوار. أما في بيت كونيل، فتنتصب الخيوط الفضية اللامعة على الباب الأمامي، وبالداخل أثاث مكدس حتى يفسح الفضاء، وصوت الضحك المتعالي والمليء بهجة يملأ المكان. قال لها إنه يشعر بالأسف لأنه لن يكون بمقدوره لقاؤها. لن يكون لعيد الميلاد طعم من دونك، هكذا كتب لها، فشعرت بأنها

Bitterness-s

غبية وأحست برغبة في البكاء فحياتها الآن عقيمة ولم يعد الجمال يزينها.

- ربما عليك خلع هذه الآن.

قال ذلك لوكاس وهو يشير إلى حمالة صدرها، فمدّت يدها وراء ظهرها وفكت المشبك ثم خلعت الشريطين من على كتفيها، ووارتها خارج نطاق الكاميرا. أخذ لوكاس بعض الصور، وغيّر وضعية الكاميرا أسفل الحامل ثم مال بها إلى الأمام قليلاً وهكذا. راحت ماريان تتفرس في النافذة. توقف صوت مصراع الكاميرا فجأة فاستدارت. فتح درجاً تحت الطاولة وتناول شريطاً سميكاً أسود اللون مصنوعاً من القطن الخشن أو من ألياف الكتان.

- ما هذا؟

- أنت تعلمين ما هذا.

- لا تبدأ هذا الآن.

وقف لوكاس يفك قطعة القماش تلك غير آبه، أما هي فأحست بثقل عظامها، وهو إحساس مألوف لديها، رافقه عسر في الحركة. ثم مدت ذراعيها أمامها، المرفق لصق المرفق، بصمت. هذا جيد، قال لوكاس وهو ينحني ليوثق وثاقها. كان معصماها نحيفين لكن الشريط شُدَّ بإحكام حتى تورمتا قليلاً. لقد بدا المشهد بشعاً للغاية فأشاحت بوجهها، في حركة غريزية، واستدارت قبالة النافذة. هذا جيد جداً، أردف لوكاس وهو يعود إلى الكاميرا ثم يضغط على زر المصراع لتغمض عينيها من أثر الضوء فيطلب منها أن تفتحهما. جسمها يرهقه التعب، بدا ينجذب من الداخل أكثر فأكثر نحو الأسفل، نحو البلاط ونحو مركز الأرض. عندما رفعت عينيها، لمحته يفك شريطاً آخر.

Bitterness-s

- لا.
- لا تصعبي الأمر على نفسك.
- لا أريد فعل ذلك.
- أعرف.

جثا على ركبتيه من جديد فسحبت رأسها إلى الوراء متجنبة لمسه لها، فقبض على عنقها بسرعة. لم يغشها الخوف من حركته هذه ولكن تمطى عليها التعب بشكل كلي فلم تعد تقدر على الحراك ولا على الكلام. مال فكها وتراخى إلى الأمام. لقد سئمت من المراوغة والتهرب في حين أن الانصياع أسهل بكثير. أحكم قبضته على عنقها فسعلت، ثم خلى سبيلها دون كلمة. تناول قطعة القماش من جديد ولفها على شكل عصابة حول عينيها. حتى تنفسها بات يجري بإرهاق كبير الآن وأحست بالحكة في عينيها. لمس خدها بلطف بظهر يده فشعرت بالتقزز.

- أترين، أنا أحبك وأعلم أنك تحبينني أيضاً.

ومن فرط اشمئزازها، سلت جسدها منه بقوة حتى ارتطم رأسها بالجدار ثم طفقت تحرك معصميها المربوطين حتى تنزع عصابة العينين، فاستطاعت أن تبعدها إلى حد سمح لها بالرؤية.

- ما خطبكِ؟
- فك وثاقي.
- ماريان.
- فك وثاقي وإلا اتصلت بالشرطة.

لم يبد هذا التهديد واقعياً منها ويداها لا تزالان مربوطتين، لكن أنشأ لوكاس يفك الشريط عن رسغيها، ربما لإدراكه أن مزاجها قد

Bitterness-S

تغير بالفعل. جسدها الآن يرتعش بقوة. وما إن ارتخى الشريط بحيث تستطيع تفريق ذراعيها حتى فعلت. أبعدت العصابة من عينيها وانتزعت سترتها، لبستها ثم انتصبت واقفة على المرتبة.

- لماذا تتصرفين هكذا؟

- تنحى عن طريقي، وإياك وأن تتجرأ على مخاطبتي بهذا الأسلوب ثانية.

- أي أسلوب؟ ما الذي قلته؟

تناولت حمالة صدرها من على المرتبة وكوّرتها في يدها ومشت إلى الطرف الآخر من الغرفة حيث حقيبتها ودستها بداخلها. راحت تنتعل حذاءها وهي تتنطط على رجل واحدة.

- ماريان، ما الذي فعلته لك؟

- هل تتخذني هزؤاً؟ هل هذه تقنيات فنية بالنسبة لك؟

- الحياة برمتها تقنيات فنية.

راحت تحدق فيه، فأعقب هذا التعليق بقوله: أعتقد أنك كاتبة موهوبة جداً. فضحكت مشمئزة.

- أنت لا تبادلينني نفس المشاعر.

- دعني أصدقك القول، أنا لا أكن لك أية مشاعر. مطلقاً. مفهوم؟

تراجع إلى حيث آلة التصوير خاصته ووجهه إلى الجهة الأخرى، كما لو أنه يحاول مواراة تعابير وجهه. هل تراه أخفى ضحكة خبيثة من اضطرابها؟ هل أخفى غضبه؟ هل ترى قولها أذى مشاعره؟ تساءلت ماريان. أنشأ يفك الآلة من على الحامل، فيما فتحت باب الشقة وراحت تطوي أدراج السلم إلى الخارج. أحقاً

Bitterness-S

فعل بها ما فعل من شناعة مؤمناً أن ذلك من ضرب الحب؟ ألهذا الحد بلغ شر هذا العالم، حتى لم يعد ممكناً التمييز بين الحب وأحط أشكال العنف وأشدها إيذاء؟ في الخارج كانت أنفاسها تتصاعد كهيئة ضباب زاهية والثلج لم يزل يتساقط كمثل التكرار الحثيث لأخطائنا الصغيرة.

Bitterness-5

بعد مضي ثلاثة أشهر
(مارس 2014)

جلس كونيل في غرفة الانتظار يطالع الاستبيان الذي يتعين عليه ملؤه. كانت الغرفة تؤثثها كراسي زاهية ألوانها تحيط بطاولة قهوة تربض فوقها لعبة العداد للأطفال. كان ارتفاع الطاولة محدوداً جداً إنْ لم يستطع الانحناء إليها حتى يملأ الأوراق على سطحها، فما كان منه إلا أن رتبها اعتباطاً على حجره بدل ذلك، فثقب بقلمه الورقة لدى السؤال الأول. رفع رأسه ونظر إلى موظفة الاستقبال التي أعطته الاستبيان، لكنها لم تبادله نظراته، فأرجع عينيه إلى الاستبيان من جديد. كان السؤال الثاني معنوناً: «التشاؤم»، حيث ينبغي له أن يحيط أحد الأرقام التي بجانب الجمل الآتية:

0 أنا لست مثبط العزيمة إزاء مستقبلي
1 أنا أحس أنني مثبط العزيمة إزاء مستقبلي أكثر من ذي قبل
2 أنا لا أتوقع أن أنجح في حياتي
3 أنا أحس أن مستقبلي بلا أمل ولن يزداد إلا سوءاً

بدا له أن أياً من الجمل الآنفة الذكر قد تكون صحيحة إلى حد

Bitterness-s

معقول، ولربما كانت أكثر من واحدة منها صحيحة في الآن نفسه. وضع القلم بين أسنانه يتفرس الجملة الرابعة التي، لسببٍ ما، رُقِّمت بالرقم «3»، وإذا هو يقرأ الجملة وخزه شعور داخل الأنسجة الرخوة لأنفه، كما لو أن الجملة تنادي عليه. إن معناها ينطبق عليه، فهو يرى أن مستقبله بلا أمل ولن يزداد إلا سوءاً. وكلما قلب الجملة في خلده أحس بصداها يرن ملء مسمعيه. والواقع أن لا حاجة له للتفكير فيها لأنه يحس بها، بحيث بدا أن بنيتها قد صدرت من داخله. مرر لسانه على حنكه، محاولاً جعل وجهه يستقر على عبوس حيادي ينم عن التركيز. وخشية أن يوجس الذعر في نفس موظفة الاستقبال، أحاط بالجملة ذات الرقم 2.

كان نيال مَن أخبره عن مكتب الخدمة هذا. قال له حرفياً: إنه يقدم خدمات مجانية، فلِمَ لا تذهب؟ إن نيال شخص عملي، ويعبر عن التعاطف بشكل عملي. كانت قد قلت لقاءاته بكونيل مؤخراً إذ إن الأخير رحل للعيش في السكن الذي تؤمنه المنحة الجامعية، فقلت لقاءاته بالجميع. لقد قضى الليلة الماضية ساعةً كاملةً مستلقياً على أرضية غرفته إذ لم يجد أن يكمل رحلته من المرحاض الملحق بالغرفة إلى سريره، فاستلقى هناك بين مرحاض الغرفة إلى دُبُره والسرير إلى قُبُله. كلتا الوجهتين كانتا تحت مرمى النظر لكن أين السبيل إلى وصال إحداهما، فلم يمكنه صبيب القوة لديه لا من العودة إلى الوراء ولا من المضي إلى الأمام؛ إلى أن استرخى بدنه دون حراك على السجاد. ها أنا ذا مستلقٍ على الأرض، فكر كونيل، فهل ترى الحياة هنا أسوأ مما هي عليه فوق السرير، أو مما هي عليه فوق رقعة أخرى من الأرض؟ كلا، إن الحياة هي نفسها لا يتغير حالها. إن الحياة هي ما يأتي به الإنسان في ذهنه. لتجدني

Bitterness-s

ربما مستلقٍ على الأرض هنا أمتص غبار السجاد الدنيء إلى رئتي، ويدي اليمنى تتخدر رويداً رويداً تحت ثقلي بدني، لأن الأمر سيان مثل أية تجربة أخرى ممكنة.

0 أنا أحس بالشيء ذاته تجاه نفسي كما كنت دائماً

1 لقد فقدت الثقة في نفسي

2 لقد خاب عشمي في نفسي

3 أنا لا أحب نفسي

تطلع إلى المرأة التي تجلس وراء الحاجز الزجاجي فلاحظ للمرة الأولى منذ دخوله أنهم قد وضعوا بين المرأة والحاضرين في غرفة الانتظار حاجزاً زجاجياً. فهل تراهم يرون أن الأشخاص مثل كونيل يمثلون خطراً على المرأة القابعة وراء الزجاج؟ هل يعتقدون أن الطلاب الذين يأتون إلى هنا ويملؤون الاستبيان في صبر، والذين يكررون أسماءهم المرة تلو الأخرى على أسماع المرأة حتى ترقن حروفها في حاسوبها، هل يتخيلون أنهم قد يرغبون في إلحاق الأذى بالسيدة خلف المكتب؟ هل يتخيلون أن كونيل، فقط لأنه يستلقي أحياناً على الأرض لساعات، قد يذهب يوماً ويشتري رشاشاً نصف آلي عبر الإنترنت ويرتكب مذبحة في مركز تسوق؟ والحال أن فكرة كهذه كانت أبعد شيء إلى ذهنه، فهو يشعر بالذنب إذا تلعثم في كلمة على الهاتف، ولكنه رغم ذلك، يستطيع تبين المنطق: إن الأشخاص ذوي الأمراض العقلية هم أناس موبوؤون على نحوٍ ما، وهم يشكلون خطراً محتملاً. فإذا لم يهاجموا المرأة خلف المكتب بسبب دوافع عنيفة خارج السيطرة، فقد ينفثون جراثيم من نوع ما باتجاهها،

Bitterness-s

تجعلها تخوض في كل العلاقات غير الناجحة التي مرت بها في ماضيها. أحاط بالجملة ذات الرقم 3 ومضى.

0 ليست لديّ أية أفكار انتحارية

1 لديّ أفكار انتحارية، لكنني ما كنت لأنفذها

2 أريد أن أنتحر

3 سأنتحر إن تسنت لي الفرصة

عاد ليطالع المرأة من جديد. لم يرغب أن يعترف لها، وهو الغريب عنها، بأنه يرغب في إنهاء حياته. خامره الليلة الماضية إحساس بالركون تماماً في موضعه إلى أن يلقى حتفه من الجفاف، مهما تطلب ذلك من وقت. لربما أيام، ولكنها ستكون أياماً مريحة لن يضطر فيها إلى فعل أي شيء أو التركيز على أي شيء. من سيعثر على جثته؟ لم يكترث لهذا. وهكذا تنتهي الفانتازيا التي طهرتها أسابيع من التكرار في لحظة الموت: الجفن الهادئ والصامت الذي يغمض عن كل شيء إلى الأبد. أحاط بالجملة ذات الرقم 1.

وبعدما فرغ من باقي الأسئلة التي تمحورت كلها حول أمور شخصية، وقد كان السؤال الأخير حول حياته الجنسية، طوى الصفحات ثم أرجعها إلى موظفة الاستقبال. إنه لا يعلم ما الذي يتوقعه وهو يسلم أوراقاً تحوي معلومات شديدة الحساسية عنه إلى شخص غريب. ابتلع ريقه فأحس بضيق آلمه في حلقه. تناولت المرأة الورقة من يده، كما لو أنه يسلم ورقة فرض جامعي متأخراً، ونفحته ابتسامة لطيفة وبشوشة قائلة: شكراً لك، يمكنك الانتظار الآن حتى تنادي المستشارة باسمك. وقف هناك فحسب، وهي

تحمل بين يديها المعلومات الأكثر خصوصية التي شاركها مع أحدهم يوماً. ولما رأى لامبالاتها، خامرته رغبة في أن يطلب منها رد الأوراق، كما لو أنه أساء فهم طبيعة التبادل وربما عليه إعادة ملء المعلومات. لكنه قال: حسناً. وعاد إلى مجلسه.

ساد الهدوء المكان لوهلة، ما كسره إلا صوت معدته تصدر أنين الجوع لأنه لم يكن قد تناول فطوره بعد. في الآونة الأخيرة بدأ يحس بالتعب الشديد الذي منعه من إعداد الطعام لنفسه في المساء، فألفى نفسه يقيد اسمه على قائمة المستفدين من وجبة العشاء في موقع المنحة، ثم يتناول العشاء جماعة في قاعة الطعام. وقبل الوجبة، يتلو الجميع صلاة الطعام باللغة اللاتينية، ثم يؤتى إليهم بالطعام الذي يقدمه طلبة آخرون يرتدون الزي الأسود حتى يجري التمييز بينهم وبين الطلبة الذين يُقدَّم إليهم الطعام. كان الطعام نفسه يُقدَّم كلّ يوم: شربة البرتقال المالحة باعتبارها طبق الافتتاح ولفة خبز ومربع زبدة ملفوف في ورق القصدير. ثم قطعة لحم بالمرق وتمرر بعدها أطباق فضية تحوي البطاطس. تليها الحلوى، ما يشبه كعكة سكر رطبة أو سلطة الفواكه التي تتألف عادة من العنب. كل هذه الأشياء تُقدَّم بسرعة وتُرفَع بسرعة، بينما اصطفت على الجدار صور لرجال من عصور مختلفة توشحهم رموز ملكية فاخرة. كان يتناول طعامه وحيداً، يسمع محادثات الجالسين من حوله دون أن يستطيع مشاركتهم، وكان يخامره إحساس عميق، وراسخ، بأنه منسلخ عن جسمه. وبعد الوجبة يتلون صلاة أخرى ويصاحب ذلك ضوضاء تحدثها أصوات الكراسي تسحب من الطاولات. وعند الساعة السابعة يندس في أتون الظلام الذي يخيم على الساحة الأمامية ثم تُشعل الأنوار.

Bitterness-S

خرجت الآن سيدة متوسطة العمر في سترة صوفية رمادية طويلة إلى غرفة الانتظار ونادت: كونيل؟ حاول أن يرسم ابتسامة على وجهه، ولما لم يجد، فرك فكه بيده بدل ذلك وأومأ برأسه. قالت السيدة: اسمي إيفون، هل لك أن ترافقني؟ اعتدل واقفاً من على الأريكة وتبعها إلى مكتب صغير. أوصدت الباب وراءها فلمح في أحد جوانب المكتب طاولة قبع عليها حاسوب مايكروسوفت عتيق يصدر طنيناً مسموعاً، بينما استقرت على الجانب الآخر أرائك متقابلة في لون النعناع. والآن يا كونيل، بوسعك الجلوس حيثما شئت، قالت السيدة. فاتخذ مجلسه على الأريكة المقابلة للنافذة التي رأى من خلالها الجهة الخلفية من مبنى خراساني وأنبوب تصريف قد وجد الصدأ سبيلاً لذراته. جلست قبالته وتناولت نظارة قد علقت على سلسلة تطوق عنقها، فثبتتها على أرنبة أنفها وطفقت تحدق في حافظة الورق خاصتها.

- طيب، دعنا نتحدث عن شعورك، بماذا تشعر؟

- نعم، لا أشعر أنني في أحسن حال.

- يؤسفني سماع ذلك. ومتى بدأ يراودك هذا الشعور؟

- أوه، منذ شهرين تقريباً؛ يناير على ما أفترض.

أزالت غطاء قلمها ودوّنت شيئاً وهي تقول: يناير، طيب! وهل حصل أمر ما عندئذ أم أنه هذا الشعور جاء من العدم؟

بعد حلول السنة الجديدة بأيام، توصل كونيل برسالة من ريتشل موران عند الساعة الثانية صباحاً عندما كان عائداً وهيلين من سهرة بالخارج. فتح هاتفه وطفق يقرأ الرسالة؛ رسالة أُرسلت إلى مجموعة شلة المدرسة تسأل إن كان أحدهم قد رأى روب هيغارتي. قالت إن أحداً لم يره لساعات. سألته هيلين عن فحوى الرسالة فأجاب لسبب

Bitterness-S

ما: أوه لا شيء، مجرد رسائل تهاني السنة الجديدة. وفي الصباح الموالي، انتُشلت جثة روب من نهر كوريب.

بلغه لاحقاً من بعض الأصدقاء أن روب كان يوغل في الشرب في الأسابيع السابقة وكان يبدو في حال سيئة. لم يعلم كونيل أي شيء من ذلك، فلم يزر مدينته كثيراً خلال الدورة الماضية، ولم يلتقِ بالناس كثيراً. تفقد حساب الفيسبوك خاصته فوجد أن آخر رسالة وصلته من روب كانت في أوائل سنة 2012: صورة يظهر فيها كونيل واضعاً ذراعه حول خصر تيريزا صديقة ماريان، وقد كتب روب: هل تعاشرها؟؟ رائع يا صاح. ها ها ها. لم يرد كونيل على الرسالة قط. لم ير روب خلال عيد الميلاد، حتى إنه لم يتذكر إن كان قد قابله الصيف الماضي أم لا. ولما حاول استحضار صورة روب في ذهنه، وجد أنه لم يقدر على ذلك بحيث تأتي صورته في البداية كاملة ومألوفة، لكنه ما إن يحاول أن يدقق فيها حتى تطفو ملامحه فوق بعضها بشكل ضبابي وتغدو مشوشة.

وفيما تلى من أيام، امتلأت جدران زملائه أيام المدرسة على الفيسبوك بمنشورات توعية حول الانتحار. ومنذئذ، أخذت حالة كونيل النفسية تتدهور أسبوعاً تلو الآخر، وقد أضحى القلق النفسي لديه، الذي كان في السابق حالة مزمنة وذات تأثير ضعيف تعمل كدافع كابح متعدد الأغراض، أضحى أكثر شدة. بدأ يشعر بوخز في يديه كلما قام بتفاعلات بسيطة كمثل طلب القهوة أو الإجابة على سؤال في قاعة الدرس. وقد عانى من نوبات هلع فظيعة في مناسبة أو مناسبتين: فرط التهوية، وآلام الصدر، ووخز يسري عبر كل جسده. شعور بالانسلاخ عن حواسه، وعجز عن التفكير السديد وعن تفسير ما يراه وما يسمعه. لقد بدأ يشعر بالأشياء مختلفة،

Bitterness-S

وبطيئة، وزائفة، وغير حقيقية. ولما حدث ذلك لأول مرة، ظن أنه قد فقد صوابه، وأن الإطار الإدراكي الذي يستشعر مكونات هذا العالم من خلاله قد تفتت إلى الأبد، وأن كل شيء سيصبح مجرد أصوات وألوان غير متمايزة، من الآن فصاعداً. وما هي إلا دقائق حتى انقشع هذا كله ولبث هو مستلقياً فوق مرتبته يتصبب عرقاً.

وها هو الآن ينظر إلى وجه إيفون، الشخص الذي عينته إدارة الكلية للإنصات إلى مشاكله لقاء راتب شهري.

- لقد مات أحد أصدقائي منتحراً في يناير، إنه زميل من أيام الثانوية، أجابها كونيل.

- أوه هذا فظيع، يؤسفني سماع ذلك حقاً يا كونيل.

- لم نبقَ على اتصال بعد المدرسة كثيراً، فقد ظل هو في غالواي بينما جئت أنا إلى هنا. أظنني أشعر بالذنب لأنني لم أتواصل معه أكثر.

- إني أتفهم ذلك، لكن مهما بلغ حزنك عما حل بصديقك، فإن لا ذنب لك فيما حدث له؛ أنت لست مسؤولاً عن القرارات التي اتخذها.

- حتى إنني لم أرد على آخر رسالة بعثها إلي.

- أعلم أن هذا مؤلم، مؤلم جداً. أنت تشعر أنك فوّتَّ فرصة لمساعدة شخص كان يعاني.

أومأ كونيل بصمت ثم فرك عينيه.

- عندما يقدم أحدهم على الانتحار، فمن البديهي أن تفكر فيما كان بإمكانك فعله لمساعدته. أنا متأكدة من أن كل الأشخاص الذين كانوا في حياة صديقك يسألون أنفسهم السؤال ذاته الآن.

- لكن الآخرين على الأقل حاولوا المساعدة.

Bitterness-s

حملت الجملة الأخيرة نبرة عدوانية أكثر مما توقع كونيل. وتفاجأ أن إيفون، وبدل أن تجيب مباشرة، اكتفت بالنظر إليه من وراء عدسات نظراتها بعينين ضيقتين وهي تومئ، ثم رفعت حزمة من الأوراق من على المكتب وأمسكتها بشكل مستقيم ومهني.

- على كل حال، لقد اطلعت على المقياس الذي ملأته. وأجدني مضطرة لأصدقك القول يا كونيل، فما أراه هنا مثير للقلق.

- حسناً. أهو حقاً كذلك؟

خلطت الأوراق فاستطاع رؤية الثقب الذي تركه قلمه على الصفحة الأولى.

- إن هذا ما نسميه مقياس بيك للاكتئاب[1]، وأنا متأكدة أنك فهمت طريقة عمله؛ نقوم بتخصيص علامات من صفر إلى ثلاثة عن كل موضوع. الآن، شخص مثلي قد يحرز في اختبار كهذا علامة تتراوح بين، قل، صفر وخمسة، وشخص يمر بمرحلة اكتئاب متوسطة فيتوقع أن يحرز علامة تصل إلى خمسة عشر أو ستة عشر.

- طيب. حسناً.

- وما أراه هنا أمامي هو علامة ثلاثة وأربعون.

- نعم. حسناً.

- هذا يضعنا في منطقة الاكتئاب الشديد. هل تعتقد أن هذا يتوافق مع تجربتك؟

فرك مقلتيه قبل أن يرد بهدوء: أجل.

---

(1) Beck Depression Inventory: ينسب للطبيب النفسي الأمريكي آرون بيك Aaron Beck وهو مقياس يُعتمَد لحساب حدة وشدة الاكتئاب ونوعيته - المترجم.

- أرى أنك غارق في الشعور السلبي تجاه نفسك، تراودك أفكار انتحارية وما شابه. إذاً فهي أمور يجب أن نأخذها على محمل الجد.

- نعم.

لحظتها بدأت تتحدث بشأن خيارات العلاج. قالت إنها ستوصيه بمراجعة طبيب في الكلية ليتحدث إليه بشأن خيارات الأدوية. أنت تدرك أنني لست في موقع يسمح لي بتقديم الوصفات الطبية، قالت، فأجابها بإيماءة ثم أردف: نعم أعلم ذلك. ثم لبث يفرك عينيه حيث كان يشعر بالحكة. قدمت له كوب ماء لكنه رفضه. هوت عليه بوابل من الأسئلة عن عائلته وأمه ومحل عيشها وما إذا كان لديه أخوة وأخوات.

- هل لديك حبيبة أو حبيب في حياتك هذه الأيام؟

- كلا، لا أحد من هذا النوع.

رافقته هيلين إلى كاريكلي لحضور مراسيم الدفن. في صباح الجنازة، ارتديا ملابسهما سوياً في غرفته وسط أجواء يخيم عليها سكون ما كسره إلا طنين مجفف الشعر الذي شغلته لورين ووجد سبيله إلى مسامعهما. كان كونيل يرتدي البدلة الرسمية الوحيدة التي يملكها، والتي كان قد ابتاعها من أجل حضور مناولة[1] أحد أقربائه عندما كان في عمر السادسة عشر. كانت السترة ضيقة على كتفيه وقد أحس بذلك عندما رفع ذراعيه. ولقد ضاره الشعور بأنه يبدو في

---

(1) المناولة: طقس كاثوليكي يتمّ بموجبه منح الأطفال سر التناول في سن محدد وهو بعد بلوغ الطفل سن الثامنة - المترجم.

Bitterness-S

مظهر سيئ. جلست هيلين إلى المرآة تتجمل بينما اعتدل واقفاً وراءها يعدل ربطة العنق، فمدت يدها لتلامس وجهه. تبدو وسيماً، قالت هيلين، لكنه لم يرد عليها، ذلك لسبب ما في نفسه جعله يغضب، كما لو أن قولها كان أكثر الكلام تبلداً وسوقية قد تتلفظ به في تلك الظروف. فسحبت يدها واتجهت لتنتعل حذاءها.

توقفوا في ردهة الكنيسة يكلمون أحد الحضور من معارف لورين. كان شعر كونيل مبللاً من المطر، ظل يمسده دون أن ينظر إلى هيلين ولا يكلم أحداً. عبر أبواب الكنيسة المفتوحة، لمح ماريان. كان يعلم أنها ستأتي من السويد لحضور الجنازة. بدت له من المدخل نحيلة وشاحبة، ترتدي معطفاً أسود وتحمل مظلة مبللة. لم يكن قد رآها منذ لقائهما في إيطاليا. تلبسته فكرة أنها تبدو واهنة. وضعت مظلتها في السلة داخل الباب.

- ماريان!

قالها بصوتٍ عالٍ دون التفكير في الأمر، فنظرت في اتجاه النداء ورأته. بدا وجهها كزهرة بيضاء صغيرة. طوقت رقبته بذراعيها وضمّها هو بقوة. اشتم رائحة بيتها على ملابسها. آخر مرة رآها فيها، كانت الأمور عادية؛ كان روب لا يزال حياً، وكان لا يزال بوسع كونيل مراسلته أو مهاتفته، كان ذلك ممكناً عندها، ممكناً جداً. لمست ماريان مؤخرة رأسه تحت الأنظار التي شخصت تتفرس المشهد. وما إن أدركا أنه لا ينبغي لهما الاستمرار حتى خليا سبيل بعضهما. ربتت هيلين على ذراعه بسرعة. كان الناس يذرعون الردهة جيئة وذهاباً، والمعاطف والمظلات تقطر بقايا المطر على البلاط في سكون.

- يجدر بنا الذهاب وتقديم التعازي الآن، قالت لورين.

Bitterness-S

اصطفوا في طابور مع الآخرين من أجل مصافحة عائلة المرحوم. كانت آيلين والدة روب تذرف الدموع وتنتحب، فسمع الجميع نحيبها يملأ أرجاء الكنيسة. ولما بلغوا منتصف الطابور، طفقت ساقا كونيل ترتعشان، فتمنى لو كانت لورين برفقته بدل هيلين، بحيث شعر أنه على شفى حالة سقم. عندما بلغ دوره، مد يده لفال، والد روب، الذي أمسك بها وقال: كونيل، إنك شاب طيب. لقد بلغني حسن مصنعك هناك في الجامعة. كانت يد كونيل تعتصر بللاً وهو يرد في صوت رقيق: يؤسفني ما حدث، فيما لم يزل فال يمسك يده محدقاً في عينيه. غلام طيب، شكراً لحضورك. ثم انتهى الأمر وذهب كونيل يتخذ مجلسه في أول مقعد خشبي وجده، مرتعش البدن. جلست هيلين بجانبه، خجلانة، تشد طرف تنورتها. جاءت لورين ومدت له منديلاً من حقيبتها، فمسح جبينه وشفته العليا. شدت لورين كتفيه وقالت: أنت على ما يرام الآن، لقد قمت بواجبك، فقط استرخ الآن. فأشاحت هيلين، عندئذ، بوجهها كما لو أنها تمور خجلاً.

وبعد القداس، انتقلوا إلى المدفن لتشييع الجثمان وموراته الثرى. فلما فرغوا عادوا إلى الحانة لتناول الشطائر واحتساء الشاي في الصالة. خلف المنضدة، انتصبت ساقية كانت في الدفعة التي جاءت بعد دفعة كونيل في المدرسة، مرتدية قميصاً أبيض وصدرية، تقدم الجعة. سكب كونيل كوب شاي لهيلين ثم واحداً لنفسه. وقفا إلى الجدار القريب من صواني الشاي يحتسون في صمت. قعقع كوب كونيل فوق الصحن قبل أن يأتي إيريك، الذي كان يرتدي ربطة عنق زرقاء لامعة، ويقف معهما مبادراً:

- كيف حالك؟ لقد مر زمن طويل منذ التقينا آخر مرة.

Bitterness-s

- أعلم ذلك. لقد مرّت مدة طويلة فعلاً.
سأله إيريك مشيراً إلى هيلين: من تكون؟
- إنها هيلين. هيلين، هذا إيريك.

مد إيريك يده التي صافحتها هيلين، فبدا التوتر على وجهها من الجهد الذي بذلته في موازنة الفنجان فوق الصحن بتؤدة وأدب.
- خليلته، أليس كذلك؟

حملقت في كونيل ثم أومأت وردت: بلى.
أرخى يدها متبسماً واستطرد: وأنت من دبلن.
ابتسمت في توتر وأجابت: هذا صحيح.
- لا شك أنك من سرق منا هذا الغلام فلم يعد يزور المدينة قط.
- إنه ليس خطؤها، بل خطئي أنا، علق كونيل.
- إني أمزح، استدرك إيريك.

راحوا يحدقون في أرجاء المكان بصمت لثوانٍ معدودة فابتلعت هيلين ريقها وقالت برقة: تؤسفني خسارتك لصديقك يا إيريك.
فاستدار الأخير وأجاب بإيماءة مؤدبة ثم أعاد عينيه حيث كانتا.
نعم، من الصعب تصديق ذلك، قال وهو يملأ فنجان شاي من الإبريق الذي كان خلفهم، ثم أضاف معلقاً: من الجيد أن ماريان قد حضرت، لقد اعتقدتُ أنها كانت في السويد أو بلد آخر.
- لقد كانت هناك بالفعل، لكنها عادت من أجل الجنازة، قال كونيل.
- لقد هزل جسمها، أليس كذلك؟

أخذ إيريك رشفة كبيرة من الشاي ثم تمطق بشفتيه. وغير بعيد،

Bitterness-S

انسلت ماريان من إحدى المحادثات وعلمت طريقها إلى حيث صينية الشاي.

- ها هي ذي. أحسنت الصنع بعودتك من السويد كي تحضري الجنازة يا ماريان، قال إيريك.

نفحته كلمة شكر وانشغلت تملأ فنجان شاي قائلة إنها سعيدة برؤيته.

- هل التقيت بهيلين؟ سأل إيريك.

ركنت ماريان الفنجان فوق الصحن قائلة: بالطبع، إننا زميلتين في الكلية.

- آمل أن تكون الأجواء ودية؛ أعني لا منافسة هناك.

- لا تكن شقياً يا إيريك، مزحت ماريان.

راح كونيل يراقبها وهي تسكب الشاي ويتعقب طريقة ابتسامها وكيف قالت «لا تكن شقياً»، ففتنته عفويتها وسهولة تنقلها بين العوالم. وهي لم تكن هكذا في أيام المدرسة، بل على النقيض من ذلك تماما. في ذلك الوقت كان كونيل هو من يعرف كيف يتصرف بينما كانت ماريان بارعة في إغضاب الجميع.

بكى كونيل بعد الجنازة إلّا أن بكاءه لم يُرِحه. ذات يوم عندما كانوا في الصف الخامس، أحرز كونيل هدفاً لفريق المدرسة فهرع إليه روب ليعانقه. كان يهتف باسمه وأخذ يقبّل رأسه على نحو هيستيري. كانت النتيجة تَعادُل الفريقين بهدف مقابل هدف ولا يزال من وقت المباراة عشرين دقيقة. لكن هذا كان عالمهم آنذاك، كانت أحاسيسهم مكبوحة بعناية في حياتهم اليومية، مكبوتة في مساحات ضيقة الحيز ولا تزيد إلا ضيقاً، لدرجة أن أصبح لأحداث بسيطة أن تأخذ أهمية

Bitterness-s

جنونية ورهيبة. فقد كان مباحاً لهم أن يلمسوا بعضهم البعض وأن يبكوا خلال مباريات كرة القدم. لا يزال كونيل يتذكر قبضة ذراعيه القويتين، ويتذكر تلك الليلة في حفل الدبس عندما عرض لهم روب صور ليزا عارية. لقد كان أكثر ما يهمُّ روب هو القبول من لدن الآخرين؛ أن يستحسنه الآخرون، وأن يكون له منزلة بينهم. لقد كان مستعداً لخيانة ثقة ولطف أي كان في سبيل وصال القبول الاجتماعي. وكونيل نفسه لم يستطع أن يلومه على ذلك، إذ لم يكن مختلفاً عنه، أو ربما كان أسوأ منه. فقد أراد فقط أن يكون شخصاً عادياً وأن يخفي الجوانب التي وجدها مدعاة للخجل والحيرة في شخصه. وماريان هي من علمته إمكانية فعل أشياء أخرى. فغدت الحياة مختلفة بعدها. ولربما لم يفهم قط إلى أي مدى كانت مختلفة.

وفي ليلة يوم الجنازة، استلقى وهيلين على السرير في غرفته يلتحفان الظلام، فسألته لماذا لم يقدمها لأي من أصدقائه. كانت تهمس كي لا توقظ لورين.

- لقد قدمتك لإيريك، أليس كذلك؟

- لم تقدمني، بل أجبت على سؤاله فقط. صدقاً لقد بدوت وكأنك لا تريدني أن ألتقيه.

أغمض كونيل عينيه وأجاب: لقد كنا في جنازة. لقد مات أحدهم للتو، ولا أحسب أن هذه مناسبة جيدة للقاء الناس.

- طيب، إذا كنت لا ترغب في مجيئي فما كان عليك دعوتي.

تنفس ببطء مستطرداً: طيب، أنا آسف لأني دعوتك إذاً.

اعتدلت جالسة على السرير بجانبه. ما الذي يعنيه هذا؟ أنت آسف لأنني كنت هناك؟

Bitterness-S

- أقصد أنني آسف إن كنت قد أعطيتك انطباعاً مغلوطاً عما سيكون عليه الحال هنا.

- أنت لم ترغب في وجودي هناك إطلاقاً، أليس كذلك؟

- أنا نفسي لم أرغب في أن أكون هناك بكل صدق. يؤسفني أنك لم تستمتعي بالأمر، لكن ما حضرناه كان جنازة، لا أفهم ما الذي كنت تتوقعينه.

تنفست من أنفها في تذمر فسمعها.

- لكنك لم تكن تتجاهل ماريان.

- لم أكن أتجاهل أحداً.

- لكنك بدوت سعيداً فرحاً لدى رؤيتها، لا يمكنك إنكار ذلك.

- بحق الجحيم يا هيلين، قال بهدوء.

- ماذا؟

- لا أفهم كيف يجد كل نقاش بيننا سبيله إلى هذا الموضوع. لم تكد تمضي أيام على انتحار صديقنا وأنت تسألينني عن ماريان، هل أنت جادة؟ ولنقل أنني فعلاً كنت سعيداً برؤيتها، فهل يجعل مني هذا وحشاً؟

هسهست هيلين بصوت خفيض: تعاطفتُ مع ما حدث لصديقك أيما تعاطف وأنت تعلم ذلك. ولكن كيف تتوقع مني أن أتصرف؟ أتظاهر أنني لم ألاحظ أنك كنت تحملق في فتاة أخرى في حضرتي؟

- لم أكن أحملق فيها.

- بل كنت تفعل؛ ونحن في الكنيسة.

- حسناً، لم يكن ذلك على نية مني. صدقيني، لم يكن في الكنيسة مناخ ملائم للإثارة. حسناً؟ يمكنك الوثوق بي في هذا.

Bitterness-s

ـ لماذا تتصرف بغرابة في حضرتها؟

تكشرت سحنته وهو لا يزال مستلقياً على السرير مغمض العينين ووجهه قِبل السقف، ثم أجاب: إن سلوكاتي في وجودها هي سلوكاتي العادية. فلربما أنا شخص غريب الأطوار.

سكتت هيلين ثم ما لبثت أن استلقت على السرير إلى جانبه. وما هي إلا أسبوعان حتى قضي أمرهما وانفصلا. في تلك المرحلة كان كونيل مرهقاً بائساً وعاجزاً حتى عن استحضار الأجوبة. لقد مر بشر التجارب كمثل نوبات البكاء ونوبات الذعر، لكن كل هذا بدا وكأنه ينزل عليه من الخارج، لا ينبعث من داخله، إذ لم يكن يشعر بأي شيء في داخله. كان مثل شيء أُخرِج بسرعة كبيرة من المجمد وذاب من الخارج بينما لا يزال اللب متجمداً وصلباً. بطريقة ما، كان يعبّر عن مشاعره أكثر من أي وقت مضى ويشعر في الآن ذاته بنضوب المشاعر بداخله، بغيابها تماماً.

أومأت إيفون ببطء وهي تحرك فمها في لفتة تعاطف. أتحس أن لديك أصدقاء هنا في دبلن؟ شخص تشعر بأنك مقرب منه بما فيه الكفاية لتصف له حالتك؟

- ربما صديقي نيال. إنه من أخبرني بشأن هذا كله.

- تقصد خدمة الاستشارة النفسية بالكلية؟

- أجل.

- طيب. هذا جيد. يبدو أنه يعتني بك. نيال، حسناً. وهو موجود هنا في الكلية كذلك.

سعل كي يتخلص من الإحساس بالجفاف في حلقه ثم أردف:

Bitterness-S

لدي صديقة أخرى مقربة جداً، لكنها في السويد هذا العام، في برنامج تبادل.

- صديقة من الكلية؟

- في الواقع لقد كنا زملين في المدرسة وهي التحقت بكلية الثالوث أيضاً. اسمها ماريان وهي تعرف صديقنا المتوفى. لكنها غير موجودة هذا العام كما أسلفت.

شاهدها تدون الاسم في مفكرتها. هو الآن يتحدث إلى ماريان كل ليلة تقريباً على برنامج سكايب؛ أحياناً بعد العشاء وأحياناً بعد ذلك عندما تعود متأخرة من سهرة ما. لم يتطرقا قط إلى ما حدث بينهما في إيطاليا، وقد كان ممتناً أنها لم تذكر الموضوع أبداً. عادة ما تكون جودة الفيديو عالية، لكنها غالباً ما تفشل في مطابقة الصوت مع الصورة، ما يخلق لديه إحساساً بأن ماريان مجرد صورة متحركة، أو شيء معد للمشاهدة. ومنذ غادرت، أصبح اسمها موضوع غيبة تلفه ألسن الجميع في الكلية، ولا يعلم كونيل إن كانت على بينة مما يقوله أناس من حزب جيمي. ومع أنه ليس صديقاً مقرباً منهم فقد بلغه ما يقال؛ إذ قابل شخصاً ثملاً في إحدى الحفلات وأخبره أن لها ميولاً شاذة وأن صوراً لها قد جرى تداولها على الإنترنت. لم يكن كونيل يعلم إن كان أمر الصور هذا صحيحاً أم لا، فقلب صفحات الشبكة باحثاً عن اسمها لكنه لم يجد شيئاً.

- هل هي شخص يمكنك وصف شعورك له؟

- نعم، لقد شكلت سنداً كبيراً لي في هذا الباب. إنها... أوه... إنه لمن الصعب وصفها إن لم تكوني تعرفينها. إنها حقاً متقدة الذكاء، أذكى مني بكثير، لكننا نرى العالم من الزاوية نفسها،

ولقد عشنا حياتينا كلهما في المكان نفسه، فالبعد عنها يبدو غريباً شيئاً ما.

- يبدو هذا صعباً حقاً.

- كل ما في الأمر أنني أجد صعوبة في الانسجام مع الناس. وأنا أعاني من ذلك.

- أتعتقد أن هذه مشكلة جديدة في حياتك أم تراها مألوفة لديك؟

- أفترض أنها مألوفة. في أيام المدرسة، كنتُ أشعر أحياناً أنني أعيش في عزلة، بيد أن الناس كانوا يحبونني. أما هنا، فأشعر أن الناس لا يستلطفونني.

توقف عن الكلام لحظة، وقد بدا أن إيفون أدركت مغزى هذا التوقف فلم تقاطعه.

- مثل صديقي روب هذا الذي توفي. لن أقول إننا كنا مقربين جداً لكننا كنا صديقين.

- بالطبع.

- لم يكن لدينا الكثير من القواسم المشتركة فيما يتعلق بالاهتمامات أو ما شابه، كما أننا ما كنا لنتفق على نفس الرؤى السياسية، إلّا أن أموراً كهذه لم تكن ذات أهمية تذكر في المدرسة. لقد كنا في نفس الشلة، وبالتالي كنا صديقين، هذا كل ما في الأمر.

- أفهم ذلك.

- كما أنه كان يفعل أموراً لم أكن أستحبها كثيراً، فكانت سلوكاته مع الفتيات دنيئة أحياناً. تعلمين، لقد كنا في الثامنة عشر من عمرنا وكنا نتصرف جميعاً كالحمقى، عدا أنني كنت أجد هذه الأمور منفرة.

Bitterness-5

عض كونيل ظفر إبهامه ثم ترك يده تهوي على حجره.

- لقد اعتقدت أنني بمجيئي إلى هنا سأجد ضالتي. كنت أظن أنني سأجد أناساً يشاطرونني أفكاري. لكن الناس هنا أسوأ من الذين كنت معهم في الثانوية. فالناس هنا يتنافسون ويتباهون بكميات الأموال التي يكسبها آباؤهم. نعم كما أقول حرفياً، لقد عاينت هذا بأم عيني.

التقط أنفاسه وهو يشعر أنه تكلم لوقت طويل وبوتيرة سريعة جداً، لكنه لم يرغب في التوقف.

- أشعر أنني تركت كاريكلي بنية الحصول على حياة مختلفة، وها أنا ذا أكره حياتي هنا؛ والشر في هذا أنني لا أستطيع العودة إلى هناك مجدداً، فكل تلك الصداقات قد تلاشت. روب رحل، ولن أستطيع رؤيته ثانية؛ لا يمكنني استعادة تلك الحياة أبداً.

دفعت إيفون علبة المناديل الموجودة على الطاولة نحوه. طالع العلبة المزركشة بأوراق النخيل الخضراء ثم طالع إيفون. تحسس وجهه فأدرك لتوه أنه كان قد أخذ في البكاء، فالتقط منديلاً من العلبة وجفف دموعه بصمت.

- أنا آسف.

كانت إيفون لحظتها تبادله النظرات لكنه لم يعد يدري إن كانت قد أنصتت إليه أو فهمت أو حاولت فهم ما قال.

- كل ما نستطيع عمله هنا في خدمة الاستشارة هو محاولة العمل على شعورك، وأفكارك وسلوكك، أما ظروفك فلا نستطيع تغييرها، إلا أننا نستطيع تغيير رد فعلك تجاه هذه الظروف. أتفهم ما الذي أعنيه؟

- أجل.

Bitterness-s

عند هذه المرحلة من الحصة، بدأت إيفون تقدم له أوراقاً موضحة بأسهم عريضة تشير رؤوسها إلى مربعات تملؤها كتابات، فأخذها وادعى أنه سوف يملؤها فيما بعد. سلمته أيضاً بعض النسخ من أوراق توضّح طرق التعامل مع القلق، وقد ادعى أيضاً أنه سيقرؤها فيما بعد. ثم طبعت له مذكرة كي يعطيها للخدمات الصحية في الكلية لتخبرهم بحالة الاكتئاب لديه، وقال إنه سيعود لحضور حصة أخرى في غضون أسبوعين ثم غادر المكتب.

قبل أسابيع قليلة، كان كونيل قد حضر جلسة قراءة ألقاها أحد الكتاب في زيارته إلى الكلية. اتخذ مجلسه في آخر قاعة المحاضرة وحيداً، خجولاً لقلة عدد الحاضرين الذين جلسوا كلّهم في مجموعات. نظمت الجلسة في قاعة كبيرة بلا نوافذ في مبنى الفنون؛ قاعة مزودة بطاولات قابلة للطي ومتصلة بالمقاعد. وفي بداية الجلسة، أدلى أحد أساتذته بنبذة متملقة عن عمل الكاتب، ثم وقف الرجل، شاب في الثلاثين من عمره تقريباً، على المنبر وشكر إدارة الكلية على الدعوة. عندها أحس كونيل بالندم على قراره بالحضور، فالحدث بكل تفاصيله كان مملاً وصورياً ومستنزفاً للطاقة. لم يعلم لم جاء أصلاً. كان قد قرأ مجموعة الكاتب القصصية ووجد أنها غير متوازنة، لكنها حساسة في بعض الأمور ومتبصرة. أما الآن، فقد أُفسِد هذا الانطباع حتى، برؤية الكاتب في هذه البيئة، منسلخاً عن كل ما هو عفوي، يقرأ بصوتٍ عالٍ من كتاب قرأه الحضور جميعاً من قبل. لقد جعل ضعف ورتابة أدائه تلك الملاحظات المضمنة في الكتاب تبدو زائفة وتفصل الكاتب عن الناس الذين كتب عنهم، كما لو أنه راقبهم فقط من أجل استعمالهم مادة للمناقشة مع طلبة كلية الثالوث. لم يكن كونيل يعلم لماذا تُنظَّم النشاطات الأدبية؛ وما

Bitterness-S

الذي تسهم به، وما الذي تعنيه. كان يحضرها فقط الأشخاص الذين يريدون أن يكونوا من النوع الذي يحضر النشاطات الأدبية.

عندما فرغوا من الجلسة، انضموا إلى حفل نبيذ نُظِّم خارج القاعة. وفي طريقه للمغادرة، حوصر كونيل من قبل كوكبة من الطلبة يتحدثون بصوت عالٍ. ولما حاول أن يشق مسلكاً بينهم بادرته إحداهن: مرحباً كونيل. استدار فعلم من تكون؛ إنها سادي دارسي-أوشي. لقد كانت زميلته في قسم الإنجليزية وكان يعرف أنها منخرطة في النوادي الأدبية؛ لقد كانت الفتاة التي وصفته بـ«العبقري» خلال السنة الأولى.

- مرحباً، ردّ كونيل.

- هل استمتعت بجلسة القراءة؟

هز كتفيه قائلاً: لقد كانت جيدة. تلبسه إحساس بالتوتر فأراد المغادرة بيد أنها استرسلت في حديثها. فرك راحتَي كفّيه على قميصه.

- لم تأسرك؟

- لا أعلم. في الواقع لا أرى ما فائدة تنظيم مثل هذه الأمور.

- جلسات القراءة؟

- أجل، أعني لا أفهم الغاية من وراء ذلك.

فجأة، غير الجميع قبلة نظرهم فنظر كونيل حيث نظروا، وإذا بالكاتب يترك قاعة المحاضرة ويتجه نحوهم. مرحباً سادي، قال الكاتب. لم يخمن كونيل قط أن تكون له علاقة شخصية مع سادي، فشعر بالغباء لقوله ما قال. قالت سادي مداهنة الكاتب: لقد كان إلقاؤك بديعاً. أما كونيل المتعب والمنزعج، ففسح له مجالاً لينضم

إلى المجموعة ثم راح ينسل مبتعداً بيد أن سادي أقبضت على مرفقه معقبة: أخبرنا كونيل للتو أنه لا يرى جدوى من جلسات القراءة الأدبية. عندها نظر الكاتب باتجاهه في إبهام ثم علق: نعم، هذا ما أعتقده أنا أيضاً. إنها مملّة، أليس كذلك؟ لاحظ كونيل أن أسلوبه المتكلف في القراءة ينطبق على كلامه وحركاته أيضاً، فشعر بالذنب أنْ نسب نظرة أدبية سلبية لشخص لربما كان فقط أخرق.

- في الواقع، لقد استحسنا الجلسة، قالت سادي.

- ما اسمك بالكامل يا كونيل؟ سأل الكاتب.

- كونيل والدرون.

أومأ الكاتب برأسه وتناول كأساً من النبيذ الأحمر من على الطاولة وتركهم لحديثهم. ورغم أن فرصة المغادرة كانت قد توفّرت أخيراً، إلّا أن كونيل، ولسبب ما، فضل التباطؤ، بينما ارتشف الكاتب بعض النبيذ ونظر إليه من جديد.

- لقد أعجبني كتابك، قال كونيل.

- أشكرك، ألن تأتي معنا إلى حانة ستاغز هيد؟ أعتقد أن الجميع سيذهب إلى هناك.

لبثوا في ستاغز هيد إلى أن أغلق أبوابه؛ أمضوا الوقت يخوضون في حديث لطيف حول القراءات الأدبية، ومع أن كونيل لم يتكلم كثيراً، إلا أن الكاتب وقف في صفه وتبنى مواقفه، مما طيّب نفسه. وبعد ذلك، سأله الكاتب عن مسقط رأسه، فأجابه أنه ينحدر من مدينة صغيرة اسمها كاريكلي في مقاطعة سلايغو. فأومأ الكاتب قائلاً:

- أعرفها، نعم. كان فيها نادٍ للبولينغ، لكنه أغلق أبوابه منذ سنين على ما أعتقد.

Bitterness-S

رد كونيل بسرعة: أجل لقد حظيتُ بحفل عيد ميلاد في ذلك النادي عندما كنت صغيراً. لكنه أغلق أبوابه الآن بالتأكيد، كما أسلفت.

أخذ الكاتب رشفة من الجعة ثم سأله: وكيف وجدت كلية الثالوث؟ هل راقك المكان؟

حدق كونيل في سادي إلى الجهة المقابلة من الطاولة وأساورها تحدث صريراً من تلامسها على رسغها، ثم أردف:

- صدقاً، أجد صعوبة في التكيف مع المناخ هنا.

أومأ الكاتب من جديد مضيفاً: قد لا يكون هذا أمراً سيئاً، فلربما ألهمتك هذه التجربة بأول كتاباتك.

ضحك كونيل ونظر إلى حجره. يعلم أنها كانت مجرد مزحة، لكنه استحسن الفكرة؛ فكرة ألا تذهب معاناته سدى.

يعلم كونيل أن كثيراً من طلبة الأدب في الكلية يعتبرون الكتب وسيلة ليتظاهروا بالثقافة. وعندما ذكر أحدهم في ستاغز هيد أمر الاحتجاجات ضد سياسة التقشف التي تنهجها الدولة، رفعت سادي يدها معلقة: لا نقاشات سياسية من فضلكم! لم يكن تقييم كونيل الأولي للقراءة الأدبية خاطئاً. فقد كانت تلك الثقافة ضرباً من ضروب الممارسات الطبقية، تُبجَّل لقدرتها على أخذ المتعلمين من الناس في رحلات عاطفية زائفة، حتى يحسوا بالتفوّق على غير المتعلمين الذين يستحبون القراءة عن مغامراتهم العاطفية. وحتى لو كان الكاتب في شخصه شخصاً صالحاً، وكان كتابه مثيراً للاهتمام، فإن الكتب كلها في نهاية المطاف تُسوَّق بصفتها رموزاً على المنزلة الثقافية لحاملها، ويساهم كلّ الكُتّاب في ذلك التسويق إلى حدّ ما، فهكذا كانت تصنع الأموال. وإن الأدب، كما ظهر عليه في هكذا

Bitterness-s

جلسات قراءة عمومية، لا إمكانية له في أن يكون شكلاً من أشكال المقاومة لأي شيء يذكر. مع ذلك، عاد كونيل إلى البيت ليلتها وقرأ بعض الملاحظات على مفكرته التي كان قد دونها من أجل كتابة قصة جديدة، فشعر بالانشراح يدب في أوصاله، كمثل مشاهدة هدف رائع أو خشخشة حركة الضوء من بين أوراق الشجر، أو موسيقى صادحة من نافذة سيارة عابرة. فمهما كان، تمنحنا الحياة لحظات بهجة كهذه أحياناً.

Bitterness-5

بعد مضي أربعة أشهر
(يوليو 2014)

صوّبت عينين ضيقتين إلى شاشة التلفاز حتى أضحت الأخيرة مجرد مستطيل أخضر تفيض الإضاءة على جوانبه. هل أنت نعسانة؟ سألها. كلا، ردت بعد وهلة. فأومأ برأسه الذي لم يشحه عن مباراة كرة القدم. أخذ رشفة كوكا كولا فأحدثت قطع الثلج قعقعة في قعر الكأس. أحست بثقل أطرافها وهي تستلقي على المرتبة بغرفة كونيل في فوكسفيلد، يتابعان مباراة بين منتخب هولندا ومنتخب كوستاريكا في إطار التصفيات النصف نهائية لكأس العالم. لم تتغير غرفته عما كانت عليه أيام الثانوية، اللهم من أحد أطراف صورة للاعب الإنجليزي ستيفن جيرارد التي كانت قد انفصلت عن الجدار وثنيت إلى الداخل. عدا هذا، كان كل شيء على حاله: المصباح، والستائر الخضر، وحتى أكياس الوسائد المزركشة على نحو مخطط.

- يمكنني إيصالكِ إلى البيت في الفترة بين الشوطين.

صمتت لثوانٍ ثم أغمضت عينيها وفتحتهما ثانية، جيداً، حتى تتمكن من رؤية اللاعبين وهم يجرون في الملعب.

- هل يزعجك وجودي؟

- قطعاً. تبدين نعسانة فحسب.

Bitterness-s

- هل لي ببعض مما تشرب؟

ناولها الكوب فاعتدلت جالسة لتشرب ما في جوفه، في شعور طفولي. كان فمها جافاً، وانسكب المشروب على لسانها بارداً وبلا نكهة. أخذت رشفتين كبيرتين وأعادت إليه الكوب وهي تمسح شفتيها بظهر كفها، فأخذه دون أن تغادر عيناه التلفاز.

- تبدين عطشى. يوجد المزيد منها بالثلاجة في الأسفل إن أردت.

هزّت رأسها ممانعة ثم عادت للاستلقاء واضعة يديها تحت رقبتها، ثم سألت:

- أين اختفيت الليلة الماضية؟

- أوه، لا أعلم. لقد قضيتُ بعض الوقت في المكان المخصص للتدخين.

- هل قبَّلتَ تلك الفتاة؟

- كلا.

أغمضت ماريان عينيها وأخذت تروِّح على وجهها بيدها. أشعر بالحر الشديد، ألا ترى أن الجو حار هنا؟

- يمكنك فتح النافذة إن شئت.

حاولت أن تتلوى حتى تصل إلى النافذة دون أن تضطر للجلوس، ثم توقفت في منتصف الطريق لترى إن كان سيتدخل ويحول محلها في هذه المهمة. إنه يعمل في مكتبة الكلية هذا الصيف، لكنه يأتي إلى كاريكلي في كل عطلة آخر أسبوع منذ أن عادت ماريان إليها، فتجدهما يتسكعان على متن سيارته، ويذهبان إلى ستراندهيل أو إلى شلال غلينكار. اعتاد كونيل مؤخراً على قضم أظافره كثيراً وقد ازداد صمته أيضاً. قالت له الشهر الماضي إنه ليس

Bitterness-s

مضطراً لمقابلتها إن لم يكن يرغب في ذلك، فرد بصوت لا نبرة فيه: إن هذا حقاً الأمر الوحيد الذي أتطلع إلى فعله. اعتدلت في جلستها وفتحت النافذة بنفسها. كان ضوء النهار في الخارج قد بدأ بالأفول لكن الجو منعش وهادئ.

- ذكرني باسمها.

- نيام كينان.

- إنها معجبة بك.

- لا أعتقد أننا نتشارك الاهتمامات نفسها. كان إيريك يبحث عنك ليلة البارحة، هل رأيته؟

جلست ماريان القرفصاء على السرير مواجهة كونيل الذي كان مستنداً بظهره على اللوح الأمامي للسرير وكوب الكوكا كولا على صدره.

- نعم لقد رأيته. لقد كان ذلك غريباً.

- لماذا؟ ما الذي حدث؟

- لقد كان ثملاً. لا أعلم، لسبب ما أراد أن يعتذر عما بدر منه في أيام الثانوية.

- حقاً؟ هذا غريب.

عاد ليسلط أنظاره على شاشة التلفاز فاغتنمت الفرصة لدراسة سحنته بتمعّن. لعله لاحظ أنها تفعل ذلك لكنه، ومن باب الأدب، فضل ألا يقول شيئاً. كان المصباح بجانب السرير يسلط نوراً خفيفاً على ملامحه: عظمتا الوجنتين الرفيعتان، وحاجب عابس جرّاء التركيز، ولمعان عرق خفيف على شفته العلوية. لطالما كان إمعان النظر في تقاسيم وجه كونيل مصدراً لبعض البهجة بالنسبة لها؛ بهجة تتسلل إليها مشاعر أخرى حسب طبيعة الحديث والمزاج. كان مظهره

كمثل مقطوعة موسيقية مفضلة لديها، مقطوعة ترن بألحان مختلفة كلما سمعتها.

- تحدث عن روب. كان يقول إن روب أراد الاعتذار. ولم أعرف إن كان روب قد قال له ذلك حقاً، أم تراه كان يمارس نوعاً من الإسقاط النفسي.

- صدقاً، أعتقد أنه كان يرغب في الاعتذار.

- أوه، أكره هذه الفكرة. أكره فكرة أن يكون روب قد قرر في قرارة نفسه الاعتذار مني، فأنا لا أكنّ له أي ضغينة. فلم يكن الأمر في ذلك السوء، لقد كنا أطفالاً حينها.

- بل كان الأمر سيئاً يا ماريان؛ كان يتنمر عليك.

لم تقل شيئاً. هو محق في كلامه؛ لقد كانوا يتنمّرون عليها، ووصفها إيريك مرة بـ«ذات الصدر المسطح» أمام الجميع، وضحك روب ثم سارع ليهمس بشيء في أذن إيريك؛ لربما تزكية لكلامه، أو مسبة أخرى منعته بذاءتها من لفظها بصوتٍ عالٍ. وخلال الجنازة في شهر يناير، تحدث الجميع عن روب على أنه شخص عظيم، إنسان مفعم بالحياة، وابن بار، وهلم جراً. لكنه كان أيضاً شخصاً يفتقد للثقة بالنفس، مهووس بالشهرة والشعبية، فجعل منه يأسه إنساناً متعسّفاً. ولم تكن المرة الأولى التي رأت فيها ماريان أن التعسّف لا يؤذي الضحية فقط، بل حتى الجاني، لا بل بشكل أعمق وبصورة دائمة. فضحية التنمر لا تتعلم شيئاً عميقاً عن نفسها، ولكن من يقوم بالتنمر عليها يتعلم شيئاً لا يمكنه نسيانه.

وفي الأيام التي تلت الجنازة، كانت ماريان تفني الأماسي تقلب صفحة روب على الفيسبوك، حيث كان العديد من رفاق المدرسة قد كتبوا تعليقات على جداره يعبرون فيها عن اشتياقهم له.

تساءلت ماريان: ما الذي يفعله هؤلاء بكتابتهم على صفحة شخصٍ متوفى؟ ما الذي تعنيه هذه الرسائل وهذه الدعايات الناعية؟ وما هي الطريقة المناسبة للتعامل معها على الصفحة: أن نسجل «الإعجاب» من باب الدعم المعنوي مثلاً؟ أن نتجاهلها بحثاً عن أشياء أفضل؟ لكن حينها كل شيء أغضبها. وهي تفكر في الأمر الآن، لم تستطع فهم ما الذي أزعجها في ذلك، فالناس لم يخطئوا، كل ما فعلوه هو نعي شاب من معارفهم. بالتأكيد، لم يكن لكتابة أشياء على صفحته على الفيسبوك أي معنى، لكن لم يكن لأي شيء آخر أي معنى. وإذا كانت سلوكات الناس في الفجائع تبدو عديمة الجدوى، فهذا لأن الحياة الإنسانية عديمة الجدوى، وهذه هي الحقيقة التي تتضح أثناء الفجائع. تمنت لو أنها قد سامحت روب قيد حياته حتى ولو لم يكن ذلك ليعني له شيئاً يذكر. كانت ذكراه في ذهنها مرتبطة بصور له مخفي الوجه، مستديراً إلى الجهة الأخرى خلف باب خزانته، أو خلف زجاج نافذة سيارته الموصد.

من كنتَ؟ سؤال تطرحه في خلدها الآن وقد رحل من يمكنه الإجابة عليه.

- هل قبلتِ اعتذاره؟

هزت رأسها في إيجاب مضيفة: هذا مؤكد، فأنا لا أحمل الضغينة في صدري.

- هذا من حسن حظي.

جاء صوت صافرة الحكم معلناً نهاية الشوط الأول على وقع التعادل دون أهداف، فاستدار اللاعبون حذري الرأس وشقوا طريقهم ببطء خارج الملعب. مسحت أنفها بأصابعها وهي تشاهد كونيل يعتدل في جلسته ويضع الكأس على المنضدة بجانب السرير،

فحسبت أنه سيقترح عليها إيصالها إلى منزلها لكنه قال: هل ترغبين في بعض المثلجات؟ فردت بالإيجاب. سأعود في غضون لحظات، قال ثم خرج تاركاً باب الغرفة مفتوحاً.

تعيش ماريان الآن في منزل أسرتها لأول مرة منذ المدرسة الثانوية. كان شقيقها ووالدتهما منشغلين بعملهما طوال النهار، فلم يكن لها ما تفعله غير الجلوس في الحديقة تشاهد الحشرات تتخبط في التراب. وإذا دلفت إلى الداخل تجدها تعد القهوة، وتكنس البلاط، وتمسح الأسطح المتسخة، فلم يعد البيت نظيفاً كالعادة لأن لورين كانت قد حصلت على وظيفة بدوام كامل في فندق المدينة ولم يجر تعويضها. ومن دون لورين، لم يكن البيت مكاناً جيداً للعيش. كانت ماريان تسافر إلى دبلن لقضاء النهار هناك أحياناً، فتتجول برفقة جوانا في معرض هيو لين بذراعين عاريتين وتشربان من قنينات الماء، فتنضم إليهما إيفلين خليلة جوانا عندما لا تكون ملتزمة بالدراسة أو بالعمل، ولا تدخر جهداً في معاملة ماريان بلطف وإظهار اهتمامها بمعرفة أشياء عن حياتها. وماريان سعيدة من أجلهما لدرجة أنها ترى نفسها محظوظة لمجرد رؤيتهما معاً، ولمجرد سماعها جوانا تقول عبر الهاتف بمرح: طيب، أحبكِ، أراك لاحقاً. فهذا يفتح لماريان نافذة على السعادة الحقيقية، رغم أنها لا تستطيع فتح هذه النافذة في حياتها أو تسلقها.

شاركن الأسبوع الماضي في مظاهرة ضد الحرب في قطاع غزة بصحبة كونيل ونيال. ولقد حشدت المظاهرة آلافاً من المشاركين يحملون اللافتات ومكبرات الصوت. وأرادت ماريان بمشاركتها أن يكون لحياتها معنى، وأرادت أن تساهم في وقف العنف الذي

Bitterness-s

يمارسه الأقوياء على الضعفاء، فهي ما زالت تتذكر كيف كانت قبل سنين خلت عندما كانت تشعر أنها مفعمة ذكاءً وفتوةً وقوة، لدرجة أنها تستطيع بلوغ هذا المرام، أما الآن فهي تدري جيداً أن لا قوة لديها وأنها ستعيش وتموت في عالم يتوقد بالعنف الذي يمارَس على الأبرياء، وأن كلما استطاعت إليه هو مساعدة عدد قليل من الناس، وقد كان من الصعب عليها التصالح مع فكرة أن من شأنها مساعدة القليل من الناس فقط. كانت الاحتجاجات صاخبة وبطيئة، إذ كان الكثيرون يقرعون الطبول وينشدون كلمات في انسجام، والأنظمة الصوتية تقرع تارة وتسكت تارة. عبرت الحشود المحتجة جسر أوكونيل ونهر ليفي يتدفق تحت أقدامهم في جو حار، فأصيبت كتفا ماريان العاريتان بسفعة شمس.

وفي مساء ذلك اليوم، أقلها كونيل في سيارته إلى منزلها في كاريكلي، رغم أنها اقترحت أن تستقل القطار. وفي طريقهما إلى البيت، كان كلاهما متعباً. وعندما مرا بمحاذاة مدينة لونغفورد، كانت أغنية لفرقة وايت لايز الأمريكية تصدح من المذياع؛ أغنية كانت ذات شعبية خلال أيام الثانوية، ودون لمس قرص التحكم في الصوت أو رفع صوته حتى يغلب على صوت المذياع قال كونيل: تعلمين، أنا أحبك. قال هذا ولم يضف كلمة أخرى فردت عليه بأنها تحبه أيضاً فأومأ ثم تابعا طريقهما وكأن شيئاً لم يحدث، وبطريقة ما، لم يحدث شيء بالفعل.

يعمل شقيقها لدى المجلس المحلي الآن، ولا يحضر المنزل إلا في الأماسي، وما إن يصل حتى تجده يطوف البيت باحثاً عنها. وكانت تتبين وصوله وهي في غرفتها فقط من طرق حذائه الذي لا يخلعه داخل البيت. وإذا لم يجدها في غرفة الجلوس أو في المطبخ

Bitterness-s

يقصد غرفتها ويطرق الباب. أريد الحديث إليك فقط، لماذا تتصرفين وكأنك خائفة مني؟ هل يمكننا التحدث لبعض الوقت؟ وعندئذ تضطر لفتح الباب ويريد هو النبش في جدال الليلة الماضية، فتقول إنها مرهقة وإنها ترغب في الخلود إلى النوم، ولكنه لا يتركها وشأنها فيلح على أن تعتذر إليه بخصوص ذلك الجدال، فتعتذر إليه، فيقول: أنت تعتقدين أنني شخص فظيع، فتتساءل في خلدها إن كان هذا صحيحاً. ويضيف: إنني حثيث على معاملتك أحسن المعاملة، ولكنك دائماً ما تحمليني الذنب. كانت تدري أن هذا ليس صحيحاً وأنه ربما يعتقد أنه صحيح. إن هكذا مشاهد تتكرر في حياتها هنا طوال الوقت، في خضم أيام طوال تبلى في مسح الأسطح المتسخة وفي عصر قطعة الإسفنج في حوض المطبخ.

عاد كونيل إلى الغرفة وألقى إليها ببوظة إسكيمو ملفوفة في كيس بلاستيك لامع، فتلقفتها ورفعتها إلى خدها، حيث تشع البرودة منها إلى جلدها بلطف، بينما استند هو إلى لوح السرير الأمامي وطفق يفتح كيس بوظته.

- هل تقابل بيغي في دبلن أو أي أحد من الشلة؟

سكت وهلة بينما شخشخت أصابعه الكيس ثم أجاب: لا، كنت أعتقد أنك قطعت وصالهم، أليس كذلك؟

- أنا فقط أسأل إن كنت تسمع أخبارهم.

- كلا، وما كان لدي ما أقوله لهم لو أني قابلتهم.

فتحت الكيس وانتشلت البوظة منه؛ بوظة البرتقال بقشدة الفانيلا، وتفككت على لسانها رقائق صغيرة من الثلج عديم النكهة وهي تسمع كونيل يردف:

Bitterness-s

- لقد بلغني أن جيمي لم يكن سعيداً.
- أجزم أنه قال كلاماً بذيئاً عني.
- أجل. لم أكلمه شخصياً بالطبع، ولكنني كوّنت انطباعاً بأنه كان يتحدث عنك بسوء، نعم.

قطبت ماريان حاجبيها وكأن ما سمعته كان مسلياً. في البداية، عندما نمت إليها الإشاعات التي كانت تحوم حولها، لم تجدها مضحكة أبداً. كانت تسأل جوانا عنها مراراً وتكراراً: من الذي كان يتحدث عنها؟ وما الذي كان يُقال؟ فتجيبها وتقول لها إن ذلك لا يهم وإن الجميع سينتقلون إلى موضوع آخر في غضون أسابيع قليلة على كل حال، فالناس يتصرفون بصبيانية عندما يتعلق الأمر بالمواقف الجنسية. فلربما تركيزهم على حياتك الجنسية سلوك أكثر شذوذاً من أي شيء قد تكونين فعلته. وذهبت ماريان إلى لوكاس فجعلته يحذف كل صورها والتي لم يكن قد نشر أياً منها على الإنترنت على كل حال. ثم ما لبثت أن طوقها الخزي كما يطوق الكفن جسد الميت، فصعبت معه الرؤية بوضوح، وكتم الثوب أنفاسها ووخز جلدها. لقد أحست كما لو أن حياتها قد انتهت. لكن كم لبثت على هذا الشعور؟ أسبوعان، أو ربما أكثر؟ ثم انقشع كل ذلك وأسدل الستار عن فصل من شبابها؛ فصل تمكنت من النجاة منه، انتهى ومضى.

- لم تخبرني بأي من هذا من قبل.
- في الواقع، لقد بلغني أن جيمي كان غاضباً بسبب انفصالك عنه وقد راح يرميك ببذيء الكلام. لكن تعلمين... هذا لا يعتبر نميمة أو ما شابه، هذا فقط الطريقة التي يتصرف بها الفتية، ولا أعرف أحداً اكترث للموضوع.

Bitterness-s

- أظن أن الغاية من وراء هذا هو ضرب سمعتي.

- وكيف يعقل أن سمعة جيمي لم تتضرر إذاً؟ فهو من كان يسيء معاملتك.

تطلعت إلى كونيل الذي كان قد أتى على البوظة خاصته وأخذ يقلب عود الخشب الناشف بين أنامله، وكانت بوظتها على وشك الانتهاء، إلا من قطعة صغيرة فضلت منها على شكل مصباح أملس يلمع من ضوء الأباجورة.

- إن الأمر مختلف بالنسبة للرجال.

- أجل لقد بدأت أفهم ذلك.

لعقت ماريان العود الخشبي حتى غدا نظيفاً ثم تفحصته لبرهة. سكت كونيل لبضع ثوانٍ قبل أن يقول مجازفاً: من الجيد أن إيريك قد اعتذر إليك.

- أعلم هذا. في الواقع، أرى أن زملاء الثانوية يعاملونني بلطف منذ عودتي، رغم أنني لا أبذل أي جهد للقائهم.

- ربما يتعين عليك ذلك.

- لماذا؟ أتعتقد أنني أتصرف بجحود؟

- كلا. أقصد أنه لا شك أنك تشعرين بالوحدة.

سكتت قليلاً والعود في يدها بين السبابة والوسطى.

- إني معتادة على الوحدة، لقد عشت منعزلة طوال حياتي.

هز كونيل رأسه عابساً وقال: نعم، أعلم ما الذي تقصدينه.

- هل شعرتَ بالوحدة وأنت مع هيلين؟

- لا أعلم. أحياناً. لم أكن أشعر أنني على طبيعتي تماماً عندما كنتُ معها.

استلقت على ظهرها وتوسدت المخدة ومدت قدميها العاريتين

على اللحاف وراحت تتأمل في المصباح؛ المصباح ذو اللون الأخضر الكاكي نفسه الذي يقبع في تلك الزاوية منذ سنين.

- كونيل، أتذكر عندما كنا نرقص ليلة البارحة؟

- أجل.

لوهلة قصيرة، أرادت فقط أن تتمدد هناك وتطيل الصمت المحتدم وتحدق في المصباح مستمتعة بنعمة وجودها معه في هذه الغرفة من جديد، وبجعله يتحدث إليها، لكن الزمن يمضي.

- ماذا بشأن ذلك؟

- هل فعلتُ ما أزعجك؟

- كلا. ما الذي تقصدينه بقولك؟

- في الحقيقة، عندما خرجتَ وتركتني هناك، وجدت الموقف غريباً، وخلت أنك ذهبت في أثر تلك المدعوة نيام، ولهذا السبب سألتك عنها. لا أدري.

- لم أخرج قبل أن أعرض عليك أن تأتي معي إلى منطقة التدخين لكنك رفضت.

أسندت رأسها على مرفقها وتطلعت إليه، فإذا به متورد الآن وقد احمرت أذناه.

- لم تعرض علي بل قلت إنك ذاهب إلى منطقة التدخين ثم غادرت.

- بل عرضتُ عليكِ المجيء معي لكنك أومأت بالرفض.

- ربما لم أسمعكَ جيداً.

- لا بد أنك لم تسمعي جيداً، فأنا أذكر جيداً أني قلت لكِ ذلك، لكن صوت الموسيقى كان عالياً في الحقيقة.

Bitterness-s

ساد السكون بينهما من جديد، واستلقت ماريان على ظهرها تتفرج على المصدر الضوئي مجدداً وتشعر بوجهها متوهجاً.

- لقد اعتقدتُ أنكَ منزعج مني.

- حسناً، أنا آسف، لم أكن كذلك.

وبعد وهلة، استطرد كونيل قائلاً: أظن أن صداقتنا كانت لتكون أكثر يسراً على نحوٍ ما لو أن... بعض الأمور كانت مختلفة.

رفعت يدها إلى جبينها. سكت هو فسألت:

- وما هي هذه الأمور؟

- لا أدري.

كان بإمكانها سماع أنفاسه وقد شعرت أنها حاصرته في هذا النقاش، ولم تكن تريد أن تضغط أكثر من ذلك.

- تدرين؛ أنا لن أكذب عليك. لا شك أنني أشعر بنوع من الانجذاب تجاهك. أنا لا أحاول خلق الأعذار لنفسي؛ كل ما في الأمر أنني أشعر أن الأمور كانت لتكون أقل التباساً لو لم يكن هذا العنصر الآخر في علاقتنا.

حركت يدها إلى أضلاعها وتحسست حجابها الحاجز الذي كان ينتفخ ببطء.

- ترى أن حياتنا كانت لتكون أفضل لو أننا لم نرتبط؟

- لا أدري. بالنسبة لي، يصعب علي تخيل حياتي على هذا النحو. أعني أنني لا أعلم أين كنت لأذهب في المرحلة الجامعية أو أين كنت لأكون الآن.

لاذت بالصمت وتركت الفكرة تسبح في فلك ذهنها وهي تمسد براحة كفها على بطنها.

Bitterness-s

- تتخذ قرارات اعتماداً على حبك لأحدهم وإذا بحياتك برمتها في مسار مختلف، هذا طريف. أعتقد أننا في المرحلة العمرية الغريبة التي يمكن فيها للحياة بأسرها أن تتغير بسبب قرارات صغيرة. ولكنكِ شكلت تأثيراً إيجابياً جداً في حياتي في المجمل، فأجدني شخصاً أفضل الآن، وأنا أشكرك على ذلك.

ماريان راقدة تتنفس ببطء، عيناها تحرقانها لكنها تتورع عن لمسهما.

- هل كنتَ تشعر بالوحدة عندما تواعدنا في العام الأول من الجامعة؟

- كلا، وأنت؟

- ولا أنا. كنتُ منزعجة أحياناً لكنني لم أشعر بالوحدة قط، فأنا لا أشعر بالوحدة وأنا بصحبتك.

- نعم. والحق يقال، لقد كانت تلك مرحلة رائعة من حياتي، ولا أعتقد أنني حظيت بالسعادة من قبل ذلك.

كبست بيدها على بطنها، ضاغطة على أنفاسها خارج بدنها ثم استنشقت الهواء من جديد:

- راودتني رغبة جامحة في أن تقبلني ليلة البارحة.

- أوه!

ملأت رئتيها هواء وأفرغتهما ببطء.

- وأنا أردت ذلك أيضاً. أظن أننا أسأنا فهم أحدنا الآخر.

- طب. لا مشكلة.

ابتلع ريقه قائلاً:

- لا أعلم ما الأصلح لنا. لا شك أن سماعك تقولين مثل هذه الأشياء أمر لطيف، لكن بالمقابل لم تنته الأمور على ما يرام بيننا في

Bitterness-5

الماضي البتة. تدرين، أنت أعز أصدقائي، وما كنت لأرغب في خسارة هذا لأي سبب من الأسباب.

- بالتأكد؛ أفهم قصدك.

ابتلت عيناها فاضطرت لفركهما حتى توقف سيل الدموع من الانهمار.

- هل يمكنني أن أفكّر في الأمر؟ سألها.

- بالتأكيد.

لا أريدك أن تعتقدي أنني لا أقدّر لكِ ذلك.

هزت رأسها وهي تمسح أنفها بأصابعها، ثم فكرت لو أمكنها أن تنقلب قبالة النافذة حتى لا يستطيع النظر إليها.

- إنك لم تبخلي علي بالدعم، سواء فيما يتعلق بالاكتئاب الذي مررت به أو أي شيء آخر. لا أريد أن أتوقف عند هذا كثيراً، لكنك ساعدتني كثيراً بحق.

- أنتَ لا تدين لي بأي شيء يا كونيل.

- أعلم ذلك. ليس هذا ما قصدته.

اعتدلت جالسة، تتدلى قدماها على حافة السرير متأرجحتين، وقد وضعت وجهها بين راحتي يديها.

- أشعر بالقلق يتملكني الآن، أرجو ألا تعتقدي أنني أصدك.

- لا شيء يدعو للقلق، كل شيء على ما يرام. ربما علي المضي إلى البيت الآن، إن لم يكن لديك مانع.

- حسناً. سآخذك إلى هناك.

- لا داعي لتفويت الشوط الثاني من المباراة. لا عليك، سوف أتمشى.

طفقت تنتعل حذاءها.

Bitterness-S

- في الواقع لقد نسيتُ أن هناك مباراة أصلاً.

لكنه لم ينهض ليبحث عن مفاتيحه. وقفت ومسحت تنورتها بينما لبث هو ينظر إليها بسحنة تعلوها تعابير الاهتمام وشيء من التوتر.

- طيب. إلى اللقاء.

قالت ذلك مودعة فالتقط يدها، فسلّمته إياها دون تفكير، فأخذ يمسد مفاصل أصابعها بإبهامه لثوانٍ قبل أن يرفع يدها إلى شفتيه ويقبلها. أحست بقواها تخر من جبروته عليها وجموح رغبتها العميقة والمتقدة في إرضائه. هذا لطيف، قالت ماريان، فهز رأسه. شعرت بألم طفيف في جسمها؛ في عظم حوضها، في ظهرها.

- أنا فقط متوتر. أشعر أنه من الواضح أنني لا أريدك أن تغادري.

قالت بصوت خفيض: ليس واضحاً لي ما تريده.

انتصب واقفاً أمامها. فتسمرت ساكنة مثل حيوان مروض لا تتحرك، بينما أعصابها تلتهب التهاباً، وقد أرادت أن تئنَّ بصوتٍ عالٍ. وضع يده على خصرها وتركته يقبّل فمها المفتوح. تلبستها نشوة متوقدة حد الإغماء.

- كم أرغب في هذا!

- رائع أن أسمعك تقولين ذلك. سأطفئ التلفاز الآن إذا كنت لا تمانعين.

عادت إلى السرير بينما أطفأ التلفاز وعاد إلى الجلوس بجانبها واستغرقا في تبادل القبل. لقد كان للمساته وقع المخدر عليها فغمرتها بلاهة لذيذة الطعم.

Bitterness-S

- همم! لقد اشتقت إليكِ.
- الأمر مختلف عما هو عليه مع الآخرين.
- في الحقيقة أنا أحبكِ أكثر من الآخرين بكثير.
قبّلها مجدداً فأحسّت بيده فوق جسدها. إنها ليست سوى فجوة من شأنه بلوغها، ليست سوى خواء من شأنه ملؤه. راحت تخلع ثيابها في حركات آلية عمياء وهي تسمعه يفك حزام سرواله. لم يكن جسدها لحظتها سوى شيء قابل للتملك، ورغم أن هذا الملك كان قد سُلِّم لبعض الملاك وأسيء استعماله على نحو ما، فلطالما كان هو مالكه الحقيقي وهي تشعر أنها تعيده إليه الآن.
مسد شعرها وشعرت بأنامله تُمرَّر على رقبتها.
- يمكنكَ فعل بي ما تشاء، قالت له.
- هذا جميل.
أردفت بصوت أجش: هل تحب سماعي أقول ذلك؟
- نعم، كثيراً.
- هلا تقول لى أننى ملكك؟
- ماذا تقصدين؟
أطبقت بالصمت وأخذت تتنفس في اللحاف وتشعر بأنفاسها على وجهها. تسمر كونيل في حركته منتظراً رداً منها.
- هل يمكنكَ ضربي؟
طلبت منه ذلك فلم تسمع منه شيئاً، ولا حتى نفساً.
- كلا. لا أظن أنني قد أرغب في ذلك. آسف.
لم تقل شيئاً.
- هل هذا جيد؟

Bitterness-5

لم تتفوّه بكلمة.

- هل تريدين أن نتوقف؟

أومأت برأسها، وإذا بثقله ينزاح عنها فتشعر بنفسها جوفاء ومرتعشة فجأة. جلس مبتعداً عنها وسحب اللحاف إليه بينما لبثت ساكنة لا تتحرك، غير قادرة على التفكير في حركة مقبولة.

- هل أنتِ بخير؟ آسف لأنني لم أستطع فعل ذلك، فقط خلت أن ذلك سيكون شاذاً. أقصد، ليس شاذاً، ولكن... لا أعرف. لا أظن أن هذه فكرة جيدة.

شعرت بألم في صدرها من استلقائها هكذا على السرير، وبوخز في وجهها.

- هل تظن أنني شاذة؟

- أنا لم أقل ذلك. ما قصدته أنني لا أريد أن تحدث أشياء شاذة بيننا.

أحست بحر شديد، حر كريه يسري في كل جسمها وفي عينيها. اعتدلت جالسة قبالة النافذة وأزاحت الشعر الذي غطى وجهها.

- أظن أنني سأذهب إلى البيت الآن، إن لم يكن لديك مانع.

- طيب، إن كانت تلك رغبتك.

ارتدت ملابسها فقال إنه سيأخذها بالسيارة إلى البيت على الأقل، لكنها قالت إنها تريد أن تتمشى؛ فبديا وكأنهما في منافسة ساخرة على من سيلبس ثيابه أسرع من الآخر. ولأنها حظيت بانطلاقة مبكرة فقد انتهت قبله وهرعت تطوي أدراج السلم، وكان لا يزال في الممر الفوقي عندما لفظها باب المنزل وأوصدته خلفها. وفي الشارع، شعرت وكأنها طفل مشاكس يوصد الباب عليه بينما

Bitterness-s

هرع هو إلى الردهة. خطر لها شيء لكنها لا تعلم ما هو. ذكرها ما حدث بما كانت تشعر به في السويد؛ نوع من الخواء، كما لو أن لا حياة بداخلها. هي تكره الشخص الذي أصبحت عليه، ولا تشعر أن لديها القوة لتغير أي شيء في نفسها. إنها شخص حتى كونيل يجده مقرفاً، وقد تجاوزت ما يمكنه تحمله منها. عندما كانا في المدرسة، كان كلاهما على الوضع نفسه، كلاهما مشوش الخاطر ويعاني بطريقة أو بأخرى. ومنذ ذلك الحين، باتت مقتنعة أنهما لو رجعا سوياً لذلك الوضع فلن يجدا تغييراً يذكر. لكنها تعلم الآن أن في السنوات التي خلت، تأقلم كونيل مع العالم من حوله رويداً رويداً، وقد كانت عملية منتظمة ومؤلمة أحياناً، بينما كانت هي تأفل وتنحدر أبعد فأبعد عن الحكمة فغدت على انحطاط لا يصدق، فلم يعد هناك قاسم يجمعهما.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما دخلت إلى منزلها. لم تجد سيارة والدتها في الممر، وفي الداخل كانت الردهة هادئة وتبدو خاوية. خلعت نعليها ووضعتهما على الرف وعلقت حقيبتها على مشكاة المعاطف، ثم مررت بأصابعها على شعرها تمشطه.

ظهر آلان في طرف الردهة آتياً من المطبخ حاملاً قنينة جعة في يده:

- أين كنت بحق الجحيم؟

- في منزل كونيل.

تقدم قبالة السلم والقنينة تتأرجح إلى جانبه.

- لا يجدر بك الذهاب إلى هناك.

هزت كتفيها وهي تعلم أن مواجهة جديدة آتية لا محالة، ولا

سبيل لتفاديها. لقد كانت تقترب نحوها من كل اتجاه، ولا حيلة بيدها تسلكها ولا إيماءة تراوغه بها فتساعدها على الهرب.

- كنت أظن أنكَ تحبه. كنتَ تفعل عندما كنا في المدرسة.

- كيف كنتُ لأعرف أنه معتوه؟ إنه مريض ويتناول الأدوية، هل تعلمين ذلك؟

- إنه على خير ما يرام الآن، على ما أعتقد.

- فلم عساه يصاحب شخصاً مثلك إذاً؟

- أفترض أن عليك أن تسأله هو.

حاولت التقدم باتجاه السلم لكن آلان وضع يده على الدرابزين.

- لا أريد أن يروج القول بين الناس بأن ذلك الخسيس يعاشر أختي.

- هل يمكنني صعود السلم الآن، من فضلك؟

أحكم قبضته على زجاجة الجعة جيداً قائلاً: لا أريدك أن تقتربي منه ثانية، أنا أحذرك، الناس في المدينة يتحدثون عنكما.

- لا أستطيع تخيل كيف كانت حياتي لتكون لو أنني اكترثت لما يقوله الناس عني.

وقبل أن تدرك ما الذي يجري، رفع آلان الزجاجة وقذف بها عليها فتحطمت وراءها على البلاط. ونظراً لأحد مستويات المنطق، فهي تعرف أنه لا بد أنه لم يكن ينوي إصابتها، فلم تفصلهما سوى بضعة أقدام إلّا أنه أخطأها تماماً. جرت في اتجاهه وتجاوزته إلى السلم، فاستدار وتبعها لكنها نجحت في الإفلات منه والوصول إلى غرفتها، ثم جثمت بجسمها على الباب بقوة قبل أن يصل إليها.

Bitterness-s

حاول أن يدير مقبض الباب فبذلت جهداً لمنعه من ذلك، فركل الباب من الخارج بينما كان جسدها يهتز من تدفق الأدرنالين.

- أيتها اللعينة. افتحي الباب، أنا لم أفعل شيئاً!

صرخت وجبينها لصق سطح الباب الخشبي: أرجوك اتركني وشأني. اذهب إلى سريرك، حسناً؟ سوف أنظف المكان ولن أخبر دينيس بأي شيء.

- افتحي الباب.

جثمت ماريان بكل ثقلها على الباب وأمسكت بالمقبض بكل قوتها، وعيناها مغمضتان. إنها تعلم أن حياتها تسير على نحوٍ غير عادي منذ كانت طفلة. ولكن الآن الكثير من الأمور كان قد غطاها الزمن كما تغطي أوراق الخريف أرضاً ثم ما تلبث تتحلل وتختلط بترابها؛ فكان كل ما يحدث لها مغطى تحت ثرى جسدها. حاولت أن تكون شخصاً صالحاً، لكنها تعلم في قرارة نفسها أنها شخص سيئ، فاسد وخطاء، كما أن كل ما تبذله من جهد لتكون صالحة، وتتبنى الرؤى الصالحة، وتقول كلاماً صالحاً، ما هو إلا قناع تواري به ما بداخلها، تواري به ذلك الجزء السيّئ من نفسها.

وفجأة، شعرت بالمقبض يفلت من تحت يدها وقبل أن تتمكن من التراجع بعيداً عن الباب، انفتح الأخير بقوة ليصطدم بوجهها وإذا بصوت طقطقة ينتهي إلى مسمعها، ثم يداهمها إحساس غريب في ذهنها. تراجعت إلى الخلف بينما يدلف آلان إلى الغرفة. كانت تشعر بطنين من حولها، لكن الصوت لم يكن من المدركات بالحواس الفيزيائية، وإنما شيء كمثل احتكاك خيالي بين صفيحتين معدنيتين في ركن ما من جمجمتها. كان أنفها ينزف لكنها أدركت أن آلان داخل الغرفة. رفعت يدها إلى وجهها فإذا بأنفها ينزف كسيل

عارم. ولما أبعدت يدها رأت أصابعها ملطخة بالدماء، دماء دافئة. كان آلان يقول كلاماً. لا شك أن الدم يخرج من وجهها. تسبح ببصرها بشكل قطري ويرتفع صوت الطنين.

- هل ستلومينني على هذا الآن؟ قال لها.

أعادت يدها إلى أنفها وإذا بالدم يسيل من وجهها بسرعة عجزت معها على حقنه بأصابعها. انهمر الدم حول فمها وأسفل ذقنها وهي تحس بسيله، وتراه يهبط قطرات فيلوّن خيوط السجاد الأزرق على الأرض.

Bitterness-5

بعد خمس دقائق
(يوليو 2014)

في المطبخ، أخذ كونيل زجاجة جعة من الثلاجة وجلس إلى الطاولة يفتحها. دقيقة بعد ذلك، انفتح الباب الأمامي وسمع صرير مفاتيح لورين فحياها بصوتٍ عالٍ كفاية حتى تسمعه، ثم دلفت إلى المطبخ وأوصدت الباب من خلفها. تقدمت بخطوات تحدث صوتاً لزقاً على مشمع الأرض مثل صوت مط الشفاه المبللة. لاحظ فراشة كبيرة قابعة على المصباح الذي يتدلى من فوقه، رابضة لا تتحرك.
وضعت لورين يدها على رأسه بحنان وسألت:

- هل عادت ماريان إلى بيتها؟

- أجل.

- ما نتيجة المباراة؟

- لا أعرف. ربما انتهوا إلى ضربات الجزاء.

جرت لورين كرسياً وجلست بجانبه ثم أخذت تفك الدبابيس من شعرها وتضعها على الطاولة. أخذ رشفة من الجعة وتركها تفتر في فمه قبل أن يبتلعها. أما الفراشة، ففردت جناحيها في الهواء. كانت الستارة التي تعلو حوض المطبخ مرفوعة فأمكنه رؤية ظل الأشجار الأسود الخافت يحجب عنان السماء في الخارج.

- وأنا قضيت وقتاً ممتعاً، شكراً لسؤالك.
- آسف.
- أراك حزيناً، هل حدث شيء؟

هز رأسه. عندما قابل إيفون الأسبوع الماضي، أخبرته بأنه «يحرز تقدماً». يلجأ خبراء الصحة النفسية دائماً إلى استعمال مفردات محفزة؛ كلمات نقية كما الثوب الأبيض، خالية من أية إيحاءات، ومن أية جوانب جنسية. سألته عن الشعور بـ«الانتماء» لديه. لقد اعتدتُ منك القول إنك معلق بين مكانين؛ فلا أنت في وطنك في مدينتك ولا أنت تجد ضالتك هنا، فهل ما زال يراودك هذا الشعور؟ اكتفى بهز كتفيه. كانت الأدوية تفعل مفعولها الكيميائي داخل دماغه الآن على كل حال، بغض النظر عما يفعله أو ما يقوله. كان يستيقظ كل صباح ويستحم، ثم يقصد مقر عمله في المكتبة، ولا تخطر له خواطر بالقفز من فوق جسر. يتناول أدويته والحياة تستمر.

كانت الدبابيس مرتبة فوق الطاولة ولورين تحرر شعرها بأصابعها.

- هل علمتَ أن إيزا غليسون حبلى؟ سألته.
- نعم، لقد بلغني ذلك.
- صديقتك القديمة.

أخذ قنينة الجعة وحملها في يده. لقد كانت إيزا أول خليلة ارتبط بها، أول فتاة حملت لقب خليلته السابقة. وفي الأيام التي تلت انفصالهما، كانت تتصل به ليلاً على هاتف المنزل فترد عليها لورين. كان يبلغه صوت لورين وهو في غرفته وتحت لحافه، تقول لها: أنا آسفة يا عزيزتي، إنه لا يستطيع أن يتحدث إليك الآن، ربما

يمكنك أن تكلميه في المدرسة. كانت إيزا هذه تضع تقويم الأسنان آنذاك، وربما لم تعد تضعها الآن. إيزا. لطالما أحس بالخجل بصحبتها، فقد كانت تقوم بأمور غبية لإثارة غيرته، ولكنها كانت تتظاهر بالبراءة، كما لو أنه لم يكن ما تفعله واضحاً لكليهما. ربما حسبت أنه لن يفهم حيثيات تصرفاتها أو ربما هي لم تكن تعرف أنها تتصرف على ذلك النحو. ولقد كان يكره ذلك، فوجدْتَه ينسل من علاقتهما رويداً رويداً حتى انتهى به الأمر إلى بعث رسالة نصية يقول فيها إنه لم يعد يرغب في الاستمرار في علاقتهما. كانت قد خلت أعوام منذ رآها آخر مرة.

- لا أفهم إصرارها على الاحتفاظ بالطفل، قال كونيل. أتعتقدين أنها من المعارضين للإجهاض؟

- أوه، أهذا هو السبب الوحيد الذي تنجب من أجله النساءُ الأطفالَ؟ بسبب رؤى سياسية رجعية؟

- حسبما سمعت، فهي انفصلت عن والد الطفل، ولا أظن أن لديها وظيفة حتى.

- لم تكن لدي وظيفة عندما ولدتكَ.

حدق في الخط المعقد باللونين الأبيض والأحمر الذي يظهر على زجاجة الجعة، بحيث كانت أطراف الحرف B مثنية إلى الخلف ثم إلى الداخل من جديد.

- وهل تراكِ نادمة الآن؟ أعرف أنك ستحاولين مراعاة مشاعري، لكن، صدقاً، هل تعتقدين أنك كنت لتحظين بحياة أفضل لو لم يكن لديك ولد؟

استدارت لورين تحدق فيه مقطبة السحنة قائلة:

- رباه! لماذا تقول لي ذلك؟ هل ماريان حبلى؟

- ماذا؟ لا!

ضحكت وكبست على جؤجؤها قائلة: هذا جيد. باسم المسيح.

- أعني أنني لا أعتقد ذلك، أضاف كونيل. ولن يكون للأمر علاقة بي لو أنها حبلى.

سكتت أمه ويدها لم تبرح صدرها ثم استطردت بنبرة دبلوماسية: حسناً، إن هذا ليس من شأني.

- ما الذي تقصدينه؟ هل تعتقدين أني أكذب؟ لم يحدث شيء بيننا، صدقيني.

سكتت لورين لثوانٍ. تجرع كونيل بعض الجعة ووضع القنية على الطاولة. إنه لمن المغيظ أن يجد والدته مؤمنة بأنه وماريان تربطهما علاقة، في حين أن أبعد المراحل حميمية التي وصلا إليها منذ سنوات كانت عشية اليوم، وقد انتهى به المطاف يبكي وحيداً في غرفته.

- إذاً فأنت تقطع المسافات عند نهاية كل أسبوع فقط لتزور والدتك الحبيبة، أليس كذلك؟

هز كتفيه قائلاً: إن كنت غير راغبة في زياراتي لك، فلك ذلك.

- أوه، بحقك!

نهضت لتملأ الغلاية بينما لبث يراقبها ساكناً وهي تضع كيس الشاي في فنجانها المفضل، ثم فرك عينيه من جديد. لقد أحس أنه أفسد حياة كل من أحبه، ولو هامشياً.

Bitterness-S

في أبريل، كان قد بعث بإحدى القصص التي كتبها إلى سادي دارسي-أوشي، القصة الوحيدة المنجزة بالكامل. ردت عليه سادي بعد ساعة برسالة إلكترونية تقول:

كونيل، إنها مدهشة! هيا دعنا ننشرها، رجاءً! مودتي.

وما إن قرأ كلماتها حتى شعر بنبضه يهز جسمه هزاً، عالياً وقوياً كمحرك آلة ما. استلقى على ظهره وطفق يتفرس السقف الأبيض من فوقه. كانت سادي رئيسة تحرير مجلة الكلية الأدبية. أخيراً، اهتدى إلى ما يقوله فاعتدل جالساً وكتب:

يسعدني حقاً أنها أعجبتك، بيد أنني لا أجدها جيدة كفاية لتنشر في المجلة، لكن شكراً لك على كل حال.

فردت من فورها:

رجاءً؟؟؟ مودتي.

كان جسد كونيل بأسره يهتز كحزام ناقل، فلم يسبق لإنسي أن قرأ كلمة من كتاباته من ذي قبل. فقد دخل الآن تجربة جديدة وجامحة. طاف في غرفته يدلك رقبته لبعض الوقت ثم كتب إليها:

طيب، يمكنك نشر القصة تحت اسم مستعار. لكن سيكون عليك أن تعديني بألا تخبري أحداً عن مؤلِّف القصة الحقيقي، ولو حتى باقي المحررين في المجلة. اتفقنا؟

Bitterness-s

ردت عليه سادي:

هههه يا له من غموض، لقد أحببت ذلك! شكراً لك عزيزي! أعدك أن أحفظ سرك حفظاً. مودتي.

نُشِرت قصته، غير محرَّرة، في عدد مايو من مجلة الكلية. وجد إحدى النسخ في الآرتس بلوك في الصباح الذي نشرت فيه، وراح يقلب الصفحات باحثاً عن قصته حتى وجدها تحت اسم «كونور ماكريدي» فخطر له أنه لا يبدو اسماً حقيقياً حتى. كان الطلبة من حوله يتوجّهون إلى محاضراتهم حاملين كؤوس القهوة ومنهمكين في الكلام. في الصفحة الأولى من النص صادف كونيل خطأين فطوى المجلة لثوانٍ ثم أخذ نفساً عميقاً، فيما تابع الطلبة وأعضاء الكلية من حوله الحج إلى مقاصدهم غافلين عن مصابه. عاد إلى فتح المجلة واستأنف القراءة وها هو خطأ آخر. عندها ود لو يزحف تحت نبتة ويدفن نفسه في التراب. قضي الأمر، انتهت محنة النشر. وبما أن لا أحد كان يعلم أنه هو من كتب القصة فلم يكن بوسعه التماس رأي أحدهم ولم يسمع قط من الناس ما إذا كانت قصة جيدة أم سيئة. وبمرور الزمن، بدأ يعتقد أن سادي نشرتها فقط لأنها كانت في حاجة لإكمال نصاب المجلة وإصدارها في الموعد المحدد. وفي المجمل، فقد تسببت له هذه التجربة في الحزن أكثر من السعادة، ومع ذلك فقد احتفظ بنسختين، واحدة في دبلن والأخرى تحت مرتبته في المنزل.

- لماذا عادت ماريان إلى بيتها باكراً؟

Bitterness-s

- لا أدري.
- ألهذا تعكر مزاجك؟
- ما الذي ترمين إليه؟ أنني متلهف بشأنها؟ أهذا ما تريدين قوله؟

فردت لورين يديها كأنما تقول له إنها لا تدري، ثم جلست تنتظر غليان الماء. إنه يشعر بالحرج الآن، ما جعله غاضباً. فمهما كانت طبيعة العلاقة التي تجمعه بماريان، لم يأتِ منها شيء جيد قط، وكل ما تسببت به تلك العلاقة هو الاضطراب والبؤس للجميع. هو لا يستطيع مساعدة ماريان مهما فعل، فثم شيء مخيف بشأنها، فراغ كبير في وجودها، كمثل من ينتظر مصعداً فإذ وصل وفتحت أبوابه لا يجد بداخله غير الخواء المظلم الرهيب الذي لا رجاء منه. كانت تفتقر لإحدى الغرائز الأساسية، الدفاع عن الذات أو الحفاظ على الذات التي تجعل الإنسان قابلاً للفهم. أنت تتكئ متوقعاً المقاومة، ولكن يسقط كل شيء أمامك. ورغم ذلك، كان مستعداً أن يموت من أجلها في أية لحظة، وهو الشيء الوحيد الذي يعرفه عن نفسه ويجعله يحس بأنه إنسان ذو قيمة.

لقد كان ما حدث بينهما الليلة أمراً محتوماً، ولقد كان يعلم كيف يمكنه تبليغه لإيفون أو لنيال أو حتى لأي إنسان يحاوره في خياله: إن ماريان فتاة مازوشية وكونيل بكل بساطة أرق من أن يضرب فتاة. على كل حال فهذا هو السياق الحرفي للحادث، فقد طلبت منه أن يضربها فلما أبى، نفرت منه. وعلى الرغم من أنه سرد الوقائع بدقة، فلماذا يرى في ذلك طريقة مخزية في سرد ما حصل؟ ما هو العنصر الناقص؟ ما هو الجزء المقصى من القصة والذي يشرح سبب تضايق كلٍّ منهما؟

Bitterness-s

إن للأمر علاقة بماضيهما وهو يعلم ذلك. لقد كان على بينة منذ أيام الثانوية أنه يتمتع بسلطة عليها، فكل شيء فيها كان دليلاً على هذه السلطة؛ كيفية تفاعلها مع نظراته ولمسات يده، وتغير ألوان وجهها كلما كانت بصحبته، ثم تلبث ساكنة كأنها تنتظر منه أن ينطق أمراً. لقد كان طغياناً لم يتكبد فيه أدنى مجهود، طغياناً على شخص يراه الآخرون حصناً منيعاً. لم يستطع أبداً تقبّل فكرة أن يتنازل عن سلطته هذه عليها. إنه أمر أشبه بامتلاك مفتاح عقار شاغر تُرِك له ليتصرف فيه مستقبلاً. والواقع أنه نمّى تلك السلطة، وهو يعلم ذلك.

وما الذي بقي لهما إذاً؟ يبدو أنه لم يعد هنالك حل وسط، فقد لبثا وقتاً طويلاً على هذا الحال. فهل قضي الأمر إذاً، وباتا الآن لا يعنيان لبعضهما شيئاً؟ وماذا سيعني هذا؛ ألا يشكل شيئاً في حياتها؟ يمكن له أن يتجنب لقاءها، ولكن في اللحظة التي سيراها مجدداً، حتى لو تبادلا النظرات فقط خارج قاعة محاضرات، فإن هذه النظرات لا يمكن ألّا تحمل شيئاً في طياتها. وهو لم يرغب قط أن تكون الأمور على هذا الحال. لقد ألفى نفسه يتمنى الموت بصدق، لكنه لم يتمن البتة أن تنساه ماريان، فالجزء الوحيد من نفسه الذي أراد أن يحميه، هو الجزء الذي يعيش بداخلها.

غلى الماء. دفعت لورين صف دبابيس الشعر من على الطاولة إلى راحة كفها وقبضت عليها ثم دستها في جيبها، ثم قامت وملأت الكوب وأضافت إليه الحليب وأرجعت القنينة إلى الثلاجة وهو يشاهدها.

- حسنا، لقد حان وقت النوم، قالت له.

- طيب، تصبحين على خير.

سمعها تلمس مقبض الباب من خلفه لكنها لم تفتحه، فاستدار إليها وها هي ذي واقفة تنظر إليه، فقالت:

- بالمناسبة، أنا لست نادمة، فالاحتفاظ بطفلي كان أعظم قرار اتخذته في حياتي، وأنا أحبك أكثر من أي شيء في هذه الدنيا، ولكم أنا فخورة بكونك ولدي. أريدك أن تعرف هذا.

عاد لينظر إليها ثم ابتلع ريقه بسرعة قائلاً:

- وأنا أحبكِ كذلك.

- طابت ليلتك إذاً.

أغلقت الباب من خلفها ثم مضت وهو ينصت لوقع خطواتها على أدراج السلم، أما هو فلبث بضع دقائق على حاله ثم نهض وأفرغ في الحوض ما بقي من جعة في قعر القنينة وألقى بها في حاوية إعادة التدوير بهدوء.

بدأ هاتفه يرن. كان مثبتاً على وضع الاهتزاز فراح يتقافز على سطح الطاولة فهب إليه قبل أن يسقط على الأرض، وإذا بالمتصل ماريان. تسمر لحظة يحدق في الشاشة قبل أن ينتهي به الأمر بالإجابة:

- مرحباً.

سمعها تتنفس بصعوبة على الطرف الآخر من الخط، فسألها ما إذا كانت على ما يرام.

- أنا حقاً آسفة بشأن هذا، أشعر أنني حمقاء.

بدا له صوتها مشوشاً كأنها أصيبت بنزلة برد أو أن شيئاً ما عالق في فمها، فابتلع ريقه وتوجه إلى نافذة المطبخ.

- بشأن ما حدث عشية اليوم؟ الحق أنني كنت أفكر بالأمر أيضاً.

Bitterness-S

- كلا، ليس هذا. إنه حقاً أمر أخرق. كل ما في الأمر أنني سقطت وأصبت بجرح طفيف. آسفة لإزعاجك بشأن هذا، إنه حقاً أمر بسيط، أنا فقط لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل.

وضع يده على الحوض قائلاً:

- أين أنت؟

- أنا في البيت. إنه ليس بجرح خطير لكنه يؤلم. في الحقيقة، لا أدري لماذا اتصلت بك، أنا آسفة.

- هل يمكنني أن آتي إليك؟

سكتت قليلاً ثم ردت بصوت مكتوم: نعم، من فضلك.

- أنا في طريقي إليك، سأركب السيارة الآن، حسناً؟

ثبت الهاتف بين أذنه وكتفه وهو يخرج حذاءه من تحت الطاولة وينتعله.

- هذا حقاً لطف منك.

- أراك في غضون دقائق، أنا خارج الآن، حسناً؟ سأراك بعد قليل.

في الخارج، ركب سيارته وشغل المحرك فنمى إليه صوت المذياع فأخرسه بلطمة من يده. تنفسه مضطرب، فما هي إلا كأس جعة واحدة حتى تجده يغادر حالته الطبيعية، فيصبح غير متيقظ كفاية أو متيقظ أكثر من اللازم؛ متوتر الحال. كان الصمت ثقيلاً في السيارة لكنه لم يستحمل فكرة تشغيل المذياع. وكان يشعر بيديه متعرقتين وهو يقبض على المقود. استدار إلى حيث شارع ماريان فلمح النور يخرج من نافذة غرفتها. أوقف المحرك وركن السيارة في الممر الفارغ ثم ترجل وأغلق الباب بقوة فارتد صدى صوته من على واجهة المنزل المحصاة.

Bitterness-S

قرع الجرس فانفتح الباب من فوره تقريباً. كانت ماريان تقف هناك تمسك الباب بيدها اليمنى وتغطي وجهها بيدها اليسرى، ممسكة قطعة قماش مكومة. كانت عيناها منتفختين كأنها باكية. لاحظ كونيل أن قميصها وتنورتها وجزءاً من معصمها الأيسر كانت ملطخة بالدم، فشعر بأبعاد العالم المرئي ترتج من حوله، كما لو أن أحداً أمسك بالأرض وأخذ يهزها بقوة.

- ماذا حدث؟

سمع كونيل وقع أقدام على السلم من خلفها ثم لمح شقيقها يصل أسفل السلم، وكأنه يرى المشهد بواسطة تلسكوب فلكي.

- من أين أتت هذه الدماء؟ سألها كونيل.

- أظن أن أنفي قد كسر.

جاء صوت آلان من خلفها مستفسراً: من هناك؟ من بالباب؟

- هل يستلزم الأمر الذهاب إلى المستشفى؟

هزت رأسها وأردفت أن الأمر لا يستدعي عناية مستعجلة فقد بحثت عن الأمر على الإنترنت. ستذهب إلى طبيب في الغد إن استمر الألم. أومأ كونيل واستطرد سائلاً:

- هل هو من فعل بك هذا؟

هزت رأسها في إيجاب فيما بدا الخوف ظاهراً في عينيها.

- اصعدي إلى السيارة.

نظرت إليه دون أن تحرك يديها بينما لم يزل وجهها مغطى بالقماشة. هز المفاتيح في يده قائلا:

- هيا!

أزالت يدها عن الباب وبسطت راحة كفها، فوضع المفاتيح فيها ومشت خارجة وهي لا تزال تحدق فيه.

Bitterness-s

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟ صرخ آلان.

وقف كونيل أمام الباب، وقد تسرب ضباب ملوّن عبر ممر السيارات بينما هو يراقب ماريان تأوي إلى السيارة.

- ما الذي يجري هنا؟ سأل آلان.

وما إن دخلت السيارة بأمان حتى أغلق كونيل الباب الأمامي كي يستفرد بآلان في الداخل.

-ما الذي تفعله؟ سأل آلان.

غاشي الأبصار، لم يستطع كونيل تبين إن كان آلان غاضباً أم خائفاً.

- يجب أن أتحدث إليك، ردّ كونيل.

كان بصره يطفو بشدة فأدرك أن عليه أن يظل ممسكاً بالباب حتى يستوي في وقفته.

- أنا لم أفعل شيئاً.

مضى إليه كونيل إلى أن استند آلان بظهره على الدربزين، فبدا أصغر حجماً وفزعاً.

نادى والدته وأدار عنقه حتى أضناه لكن لم يجد مَن يسعفه. كان وجه كونيل يتصبب عرقاً وبدا له وجه آلان فقط في صورة من النقاط الملونة.

- إذا لمستَ ماريان ثانية، فسأقتلك. هل فهمت؟ هذا كل شيء. تجرأ وتكلم إليها بسوء ثانية وعندها سآتي هنا بنفسي وأقتلك. هذا ما لدي.

ورغم أنه لم يكن يرى ويسمع جيداً، فقد بدا لكونيل أن آلان قد أخذ في البكاء الآن.

Bitterness-S

- هل فهمتني؟ قل نعم أو لا.

- نعم.

استدار كونيل، خرج من الباب الأمامي ثم أغلقه من خلفه.

في السيارة، تنتظره ماريان في صمت، ممسكة وجهها بيد وواضعة الأخرى على حجرها. جلس كونيل في مقعد القيادة ومسح فمه بكمه. إنهما محشوران معاً في صمت السيارة المطبق. نظر إليها، إذ بها منحنية إلى الأمام قليلاً كأنها تتألم.

- آسفة أني أزعجتك، آسفة حقاً؛ لم أكن أعرف ماذا أفعل.

- لا تعتذري على شيء. من الجيد أنك اتصلت بي، أتفهمين؟ انظري إلي، لن يؤذيك أحد بعد اليوم.

تطلعت إليه من وراء القماشة البيضاء وسرعان ما شعر من اتساع عينيها بسلطته عليها من جديد.

- كل شيء سيكون على ما يرام، صدقيني. أنا أحبك ولن أسمح بأن يصيبك مكروه بعد الآن.

التقطت نظراته لثانية أو اثنتين ثم أغمضت عينيها، جالسة في مقعد المرافق ساندة رأسها، بينما لم تزل يدها تمسك بالقماشة التي تغطي وجهها. وقد بدا له ذلك سلوكاً يدل على تعب شديد، أو على ارتياح.

- شكراً لك، قالت

أدار محرك السيارة وقاد خارج ممر السيارات، فرسي بصره واستقرت الأشياء أمام عينيه من جديد واسترجع أنفاسه، بينما تلوح الأشجار في السماء بأوراق فضية، في صمت جليل.

Bitterness-S

بعد مضي سبعة أشهر
(فبراير 2015)

في المطبخ، تسكب ماريان الماء المغلي في آلة تحضير القهوة. تبدو السماء صوفية ومنخفضة خارج النافذة. وبينما أخذ الماء المغلي يغازل حبات القهوة حتى تحرر نكهاتها الزكية، أسندت جبينها على زجاج النافذة حيث تكثف زفيرها رويداً رويداً واستحال ضباباً حاجباً اختفت من ورائه الكلية، وبدت الأشجار ناعمة واتخذت المكتبة القديمة مظهر غيمة كثيفة. كان الطلبة يعبرون الساحة الأمامية في معاطفهم الشتوية، عاقدين أذرعهم يتوارون دفعات ثم لا يفتأون يتبخرون في الأفق. لم تعد ماريان لا محط إعجاب ولا احتقار؛ نسي الناس أمرها. إنها شخص عادي، تمشي ولا ينظر إليها أحد. تسبح في مسبح الكلية، وتأكل في قاعة الطعام بشعر مبلل، وتتمشى حول ملعب الكريكت ليلاً. لقد بدت لها مدينة دبلن ساحرة خلال الشتاء: الأحجار الرمادية يدكن لونها فتغدو سوداء، قطرات المطر تخضب العشب وتهمس لقراميد السقف الزلقة، المعاطف تتلألأ تحت أضواء الشارع التي تنير ألواناً كقعر البحر، وقطرات المطر الفضية تتوهج في أضواء المرور كأنها قطع نقدية.

Bitterness-S

مسحت ماريان زجاج النافذة بكمها ثم تناولت كأساً من إحدى الخزائن. كان دوام عملها اليوم من الساعة العاشرة إلى الثانية، تعقبه ندوة حول فرنسا الحديثة. لا تخرج مهامها في عملها عن الرد على رسائل إلكترونية تخبر فيها الناس أن رئيسها غير متاح للاجتماع. ولم تكن تعرف بوضوح ما الذي يفعله، فهو دائماً غير متاح للقاء أي من الناس الذين يريدون لقاءه، فاستنتجت أنه إما مشغولٌ جداً وإما خامل بشكل دائم. وإذا حضر المكتب تجده يولع سيجارة بطريقة استفزازية وكأنه يمتحنها، ولكن ما طبيعة هذا الامتحان؟ تجلس إلى مكتبها وتتصرف بتلقائية بينما يمارس هو هوايته في الحديث عن مدى ذكائه. لقد كان يصيبها الملل من الاستماع إليه، إلّا أنه لم يكن أمراً مجهداً. وعند نهاية الأسبوع يسلمها ظرفاً بداخله أوراق نقدية. ولما سمعت جوانا بذلك صُدمت وقالت: ماذا؟ يدفع لك راتبك نقداً؟ هل تراه تاجر مخدرات أو ما شابه؟ فردت ماريان بأنه يعمل مطوراً عقارياً أو شيئاً من هذا القبيل، فقالت جوانا: أوه، ويلاه، هذا أسوأ بكثير.

أوقفت آلة القهوة وملأت كأسين، وضعت في إحداهما ربع ملعقة سكر ودفقة حليب، بينما لم تضف للأخرى لا الحليب ولا السكر. وضعت الكأسين على الصينية كما العادة وسارت في الردهة حتى بلغت الباب وطرقته بإحدى زوايا الصينية، فلم تسمع رداً. ثبتت الصينية على خصرها بيدها اليسرى وفتحت الباب باليمنى. كانت الغرفة تفوح منها رائحة كثيفة، كرائحة العرق أو النبيذ الفاسد، والستائر الصفراء التي تعلو النافذة لم تزل منسدلة. نظفت جزءاً من طاولة المكتب لتضع الصينية ثم جلست على الكرسي ذي العجلات تحتسي قهوتها التي بدا طعمها حامضاً قليلاً كمثل الهواء من حولها.

لقد كان هذا الوقت من النهار ممتعاً بالنسبة لها، قبل بداية العمل. عندما أنهت قهوتها، مدت يدها ورفعت إحدى زوايا الستار بأصابعها ليغمر النورُ الأبيض المكتبَ.

- أنا مستيقظ، قال كونيل من السرير.

- كيف تشعر؟

- أنا على أحسن حال.

أحضرت له كوب القهوة السوداء الخالية من السكر فاستدار وأخذ ينظر إليها بعينين صغيرتين شبه مغمضتين، ثم جلست على المرتبة.

- آسف بشأن ما حدث ليلة البارحة.

- أتعلم، سادي متيمة بك.

- تعتقدين ذلك حقاً؟

وضع الوسادة على اللوح الأمامي للسرير وتناول الكوب من يدها. أخذ رشفة كبيرة من القهوة ونظر إليها من جديد وعيناه لا تزالان شبه مغمضتين.

- ليست من النوع الذي يعجبني.

- أنا لا أعرف ذوقك أحياناً.

هز رأسه وشرب رشفة أخرى من القهوة، ثم أردف:

- بل تعرفينه. كل ما في الأمر أنك تحبين تخيّل الناس على أنهم غامضون، بينما أنا لست غامضاً إطلاقاً.

راحت تقلب ذلك في ذهنها بينما هو يفرغ كوب القهوة.

- أعتقد أن كل واحد منا لغزٌ بطريقة ما. أقصد أنه لا يمكنك أن تعرف شخصاً تمام المعرفة.

- هل تعتقدين ذلك حقاً؟

Bitterness-s

- هذا ما يقوله الناس.

- وما الذي لا أعرفه أنا عنك؟

ابتسمت ماريان وتثاءبت ثم هزّت يديها في لامبالاة.

- إن الناس أكثر مقروئية في عيون بعضهم مما يعتقدون، أضاف كونيل.

- هل يمكنني أن أدخل لأستحم قبلك أم تريد ذلك أنت؟

- لا، اذهبي أنتِ أولاً. هل يمكنني أن أستعمل حاسوبك لتفقد بعض الرسائل الإلكترونية؟

- نعم، خذه.

كان الضوء في الحمام أزرق خافتاً. فتحت باب الدش وأدارت المقبض، وانتظرت أن يدفأ الماء. في غضون ذلك، نظفت أسنانها بسرعة، وبصقت الرغوة البيضاء في البالوعة بدقة، ثم فكت شعرها من الربطة أسفل رقبتها، ثم خلعت منامتها وعلقتها خلف الباب.

في نوفمبر، عندما استقال رئيس تحرير مجلة الكلية الأدبية الجديد، عرض كونيل أن يأخذ زمام المهمة مؤقتاً إلى حين توفر شخص آخر. وبعد انقضاء شهور، لم يتقدم أحد فقي كونيل يتولى مهام تحرير المجلة بنفسه. ليلة البارحة، خلال الاحتفال بإصدار العدد الجديد من المجلة، أحضرت سادي دارسي-أوشي وعاءً من مشروب «البنش» الزهري بالفودكا تطفو بداخله بعض قطع الفواكه. كانت سادي تحب حضور مثل هذه المناسبات لتشد ذراع كونيل وتحظى بأحاديث منفردة معه بخصوص «مساره المهني». وفي الليلة الماضية، كان قد شرب الكثير من البنش حتى إنه هوى على الأرض

Bitterness-S

عندما حاول النهوض من مقعده. شعرت ماريان أن سادي تستحق اللوم على ذلك، لكن في الحقيقة كان الذنب ذنب كونيل. وعندما أعادته إلى المنزل وإلى السرير لاحقاً، طلب منها كوب ماء دلقه على نفسه قبل أن يفقد وعيه.

في الصيف الماضي، قرأت لأول مرة إحدى قصصه، فأعطاها ذلك إحساساً فريداً عنه وهي تجلس ماسكةً أوراقاً مطبوعة مطوية من أعلى الزاوية اليسرى، لأنه لم يكن لديه مشبك ورق. من جهة، أحست أنها صارت أكثر قرباً منه وهي تقرأ القصة كما لو أنها تعاين أكثر أفكاره خصوصية، لكنها شعرت بالمقابل أنه ابتعد عنها مركزاً على مهمة معقدة خاصة به، مهمة لن تكون أبداً جزءاً منها. بطبيعة الحال، حتى سادي لن تكون جزءاً منها، ولكنها على الأقل كاتبة، تحيا في عوالم خفية من وحي خيالها. أما ماريان فكانت تحيا حياة ملموسة في عالم حقيقي آهل بأناس حقيقيين. فكّرت في كونيل يقول: إن الناس أكثر مقروئية في عيون بعضهم مما يعتقدون. ومع ذلك، فقد كان يمتلك شيئاً تفتقر إليه هي: حياة باطنية لا تشمل الشخص الآخر.

كانت تتساءل إن كان يحبها حقاً فتجده يقول لها في السرير بمحبة: ستفعلين كما أقول لك بالضبط، أليس كذلك؟ كان يعلم كيف يعطيها ما تريده، وكيف يجعلها مكشوفة وضعيفة ومسلوبة القوة، وأحياناً باكية. لقد فهم أن الإيذاء الجسدي ليس عنصراً ضرورياً: كان يستطيع جعلها تخضع له عن طيب خاطر ودون أن يلجأ إلى العنف. كل هذا بدا أنه يحدث في أعمق مستوى من شخصيتها. ولكن ماذا عنه هو؟ في أي مستوى كان يحدث ذلك عنده؟ هل كان بالنسبة له مجرد لعبة أو خدمة يقدمها لها؟ هل كان يشعر بالأمور بنفس الطريقة

Bitterness-s

التي تشعر بها هي؟ في أنشطتهما اليومية العادية، كان يظهر لها الصبر ويراعي أحاسيسها، فكان يعتني بها إذا مرضت، ويراجع مسودات فروضها الجامعية، ويجلس للاستماع إليها وهي تناقش أفكارها فتعارض نفسها بصوتٍ عالٍ وتغير آراءها. ولكن هل كان يحبها فعلاً؟ كانت تجد نفسها أحياناً ترغب في سؤاله: هل ستشتاق إلي إن هجرتك؟ كانت قد سألته هذا السؤال مرة من قبل عندما ذهبا إلى مبنى الشبح، عندما كانا صغاراً. عندها كان جوابه نعم، ولكن حينئذ كانَتْ هي كل ما في حياته، كانت الشيء الوحيد الذي امتلكه لنفسه. أما الآن فلم يعد الأمر كذلك، ولن يكون أبداً.

لدى بداية شهر ديسمبر، بدأ أصدقاؤهما يسألون عن برنامج عيد الميلاد. لم تكن ماريان قد زارت أسرتها منذ الصيف، ولم تحاول والدتها الاتصال بها قط، فيما أرسل إليها آلان برسائل نصية يقول فيها أشياء مثل: لن تكلمك ماما أبداً فهي تقول إنك عار علينا. لم ترد عليه ماريان. كانت تتمرن في خاطرها على الشكل الذي قد تتخذه المحادثة في حال اتصلت بها والدتها يوماً، والاتهامات التي ستوجه إليها والحقائق التي ستصر عليها، بيد أن ذلك لم يحدث البتة. جاء موعد عيد ميلادها وراح دون أن تصلها كلمة واحدة من أسرتها. ثم جاء شهر ديسمبر وقررت البقاء في الجامعة خلال عطلة الميلاد والعمل على ورقة بحثية كانت تحضرها حول موضوع المؤسسات السجنية الأيرلندية عقب الاستقلال. أراد منها كونيل أن تأتي معه إلى كاريكلي. لورين ستسعد كثيراً، سأتصل بها، والأفضل أن تكلميها بشأن ذلك. وفي الأخير، اتصلت بها لورين شخصياً ودعتها لقضاء عيد الميلاد معهم في البيت، فقبلت ماريان دعوتها، واثقة أن لورين تعلم الصواب، وتعلم ما هو مقبول.

وفي طريقهما من دبلن إلى كاريكلي، تكلما بلا توقف وتمازحا وأصدرا أصواتاً غريبة ليضحك أحدهما الآخر. وهي تتذكر تلك الرحلة الآن، تساءلت إن كانا متوترين حينها. وعندما بلغا فوكسفيلد، كان الظلام قد بسط رداءه وتوهجت النوافذ بالأضواء الملونة. حمل كونيل أغراضهما من صندوق السيارة، وفي غرفة الجلوس، قعدت ماريان إلى المدفئة بينما انهمكت لورين في تحضير الشاي. وفي موضع بين التلفاز والأريكة تألقت شجرة عيد الميلاد تومض بأضوائها بلا توقف. أتى كونيل حاملاً فنجان الشاي ووضعه على ذراع الأريكة، وقبل أن يجلس، مد يده وعدل أحد خيوط الزينة اللامعة على الشجرة. كان وجه ماريان ويداها محمرين من دفئ النار. عادت لورين وشرعت تكلم كونيل عن الأقارب الذين زاروهم والذين ينتظر أن يزوروهم غداً وهكذا. أما ماريان، فشعرت بارتياح أنْ أرادت أن تغمض عينيها وتغط في سبات.

كان منزلهم في فوكسفيلد يعج بالناس خلال فترة عيد الميلاد، ففي الليل، كان الناس يأتون ويغدون ملوّحين بعلب البسكويت أو بقنينات الويسكي، والأطفال يركضون ويصرخون بكلام غير مفهوم. كان أحدهم قد أحضر جهاز بلاي ستيشن ذات ليلة فسهر كونيل حتى الثانية صباحاً يلعب لعبة فيفا مع أحد أقربائه الذي يصغره سناً والشاشة تسلط عليهما نورها الأخضر، فبدا وجه كونيل صارماً كأنه في سياق مقدس. ظلت لورين وماريان في المطبخ معظم الوقت في تنظفان الكؤوس المستعملة في الحوض وتفتحان علب الشوكولاتة وتملآن الغلاية دون توقف. وبينما هما كذلك فإذا بصوت يهتف من الغرفة: كونيل لديه خليلة؟ فأجابه صوت آخر: نعم، إنها في المطبخ. تبادلت لورين وماريان النظرات وهما تسمعان وقع أقدام ثم

ظهر عند الباب مراهق يلبس قميص نادي مانشستر يونايتد. ولدى رؤيته ماريان التي كانت واقفة عند حوض المطبخ، احمر خجلاً وطفق يحدق في قدميه. مرحباً، قالت ماريان، فهز رأسه دون أن ينظر إليها ثم انسحب بتثاقل وولى الأدبار إلى غرفة الجلوس. أما لورين فألفت ذلك موقفاً طريفاً.

وفي اليوم الأخير من السنة، التقوا بوالدة ماريان في مركز التسوق. كانت ترتدي بدلة داكنة اللون فوق بلوزة حريرية صفراء. فلطالما كان مظهرها «متناسقاً». حيّتها لورين بأدب فتجاهلتهما ومضت في سبيلها. لم يكن أحد يدري ما كانت تعتبرها شكواها. وفي السيارة استدارت لورين من مقعد الراكب الأمامي إلى ماريان لتشد على يدها بينما حرك كونيل السيارة. ماذا يقول الناس عنها في المدينة؟ سألت ماريان.

- من، والدتك؟

- أقصد، كيف ينظر إليها الناس؟

ردت لورين بلطف وبسحنة طبعها التعاطف: أفترض أنها تعتبر غريبة الطباع.

كانت تلك أول مرة تسمع فيها ماريان قولاً كهذا أو حتى تفكر فيه. أما كونيل، فقد ظل بمنأى عن هذا الحديث. وفي الليل قال، إنه يريد الذهاب إلى حانة كيليهر للاحتفال بليلة رأس السنة. قال إن كل زملاء المدرسة سيكونون هناك، فاقترحت ماريان أن تظل في البيت لكنه قال بعد برهة بدا فيها أنه يفكر في الأمر: لا، يجب أن تخرجي معي. أسندت بوجهها على السرير بينما غير هو قميصه وقالت: حاشا الله أن أعصي لك أمراً، فنظر إلى انعكاس صورتها في المرآة وقال: نعم، بالضبط.

كانت حانة كيليهر مكتظة ورطبة من شدة الحرارة. وكان كونيل على حق فقد حضر كل زملاء المدرسة فكان عليهما التلويح بالتحية للجميع من بعيد. رأتها كارين عند البار واحتوت ماريان بين ذراعيها فشمّت الأخيرة عطرها الخفيف والجذاب. كم أنا سعيدة برؤيتك، قالت ماريان، فدعتها كارين قائلة: تعالي شاركينا الرقص. حمل كونيل شرابيهما أسفل السلم إلى حلبة الرقص حيث كانت ريتشل تقف مع إيريك وليزا وجاك، وكيارا هيفرمان التي كانت من الدفعة التي بعدهم، ولسبب ما، استقبلها إيريك بانحناءة ساخرة؛ ربما لأنه كان ثملاً. حال الصخب الذي ملأ المكان دون الخوض في حديث حقيقي. أمسك كونيل شراب ماريان بينما خلعت معطفها ووضعته تحت الطاولة. لم يكونوا يرقصون بمعنى الكلمة، بل كانوا فقط واقفين يصيحون في آذان بعضهم البعض. وبين الفينة والأخرى، كانت كارين تلكم الهواء بيدها في حركة لطيفة. انضم إليهم أناس آخرون من بينهم أشخاص لم يسبق لماريان رؤيتهم قط، وتعانق الجميع وصاحوا بكلمات.

عند منتصف الليل، حين هتف الجميع سنة سعيد، ، أخذ كونيل ماريان بين ذراعيه وقبّلها، فأحست، مثل ضغط فيزيائي على لحمها، بأن الآخرين كانوا ينظرون إليها. ربما لم يصدق الناس علاقتهما حتى تلك اللحظة، أو أنه الافتتان المرضي تجاه أمر كان في الماضي مشيناً قد ظل ملتصقاً به. أو ربما أخذهم الفضول وهم يشهدون ذلك الانسجام بين شخصين اتضح أنهما لم يستطيعا ترك أحدهما الآخر على مدى السنين. وكان على ماريان أن تعترف أنها لو كانت مكانهم لراحت تحدق هي أيضاً. وعندما خليا سبيل بعضهما، نظر كونيل في عينيها وقال: أنا أحبك. فابتسمت واحمر وجهها خجلاً. لقد كانت

تحت سلطته وقد اختار أن يفديها، ففداها. لم يكن معهوداً منه التصرف على هذا النحو أمام الناس، فلا بد أنه فعل ذلك عمداً، ليرضيها. ووجدت في الخضوع للسلطة الكاملة لشخص آخر شعوراً غريباً واعتيادياً في الآن نفسه. فكرت ماريان أنه لا يمكن لأي منا أن يكون مستقلاً كلياً عن باقي الناس، فلماذا لا نتوقف عن المحاولة إذًا ونسير في الاتجاه المعاكس، فنعتمد على الآخرين ونسمح لهم بالاعتماد علينا، لِمَ لا. هي تعرف الآن أنه يحبها، ولم تعد تتساءل عن ذلك البتة.

تخرج الآن من الحمام وتلف المنشفة الزرقاء حولها. كانت المرآة قد حُجبت بفعل بخار الماء. فتحت الباب فنظر إليها كونيل من سريره ملقياً التحية. أحست بالهواء الساكن في الغرفة بارداً على جسدها. كان كونيل يقتعد السرير واضعاً حاسوبها على حجره. اتجهت إلى خزانة ملابسها وأخذت ملابس داخلية نظيفة ولبستها بينما هو يتأملها. علقت المنشفة على باب الدولاب وأدخلت ذراعيها في كمّي قميصها:

- هل هناك خطب ما؟

- لقد وصلني بريد إلكتروني.

- فعلاً؟ وممن؟

راح يحملق في شاشة الحاسوب أخرس الفم، بعينين محمرتين بالنعاس. زرت أزرار قميصها وهو لم يزل جالساً واللحاف يغطي ركبتيه، وضوء الشاشة يتوهج في وجهه.

- كونيل، ممن؟

Bitterness-s

- إنه من جامعة في نيويورك، يبدو أنهم يعرضون علي الالتحاق بماجستير الفنون الجميلة في قسم الكتابة الإبداعية.

تسمرت في مكانها بشعر لا يزال مبللاً ينقع ببطء عبر ثوب بلوزتها.

- لم تخبرني أنك تقدمت بطلب لذلك.

اكتفى بالتحديق فيها.

- أقصد، مبارك لك. لم يفاجئني أنهم قبلوا ترشحك، ما فاجأني هو أنك لم تذكر لي الأمر.

أومأ بسحنة غير معبّرة وعاد ليسلط نظره على شاشة الحاسوب.

- لا أعلم. ربما كان يجدر بي إخبارك، لكن للأمانة حسبت أنه مرام بعيد المنال.

- طيب، لكن هذا ليس سبباً صريحاً لألا تخبرني.

- لا يهم. حتى إنني لا أفكر في الذهاب. أنا لا أعلم لماذا ترشحت أصلاً.

تناولت ماريان المنشفة من على باب الدولاب وأخذت تمسد أطراف شعرها ثم اقتعدت كرسي المكتب مستطردة:

- وهل كانت سادي على علم بترشحك؟

- ماذا؟ ولماذا تسألينني هذا؟

- هل كانت تعلم بالأمر؟

- للأمانة نعم، لكنني لا أرى أهمية في ذلك.

- ولماذا أخبرتها هي ولم تخبرني أنا؟

تنهد وفرك عينيه بأنامله ثم هز رأسه.

- لا أعلم. ربما لأنها من دفعني إلى الترشح. لقد رأيت أن الفكرة غبية بصراحة لهذا لم أخبرك.

Bitterness-s

- هل تراك متيماً بها؟

راح كونيل يحدق بها دون أن يقطع الاتصال بين أعينهما لعدة ثوانٍ. لم يكن من السهل تبين تعابير وجهه. وفي الأخير أشاحت ماريان بنظرها لتعيد ترتيب المنشفة.

- هل تمزحين؟

- لم لا تجيب عن السؤال؟

- إنك تخلطين الكثير من الأمور يا ماريان، فأنا لا أحب سادي حتى من باب الصداقة، مفهوم؟! صدقاً أنا أعتبرها شخصاً مزعجاً. لا أعلم كم مرة علي قول هذا لك. أنا آسف لأنني لم أخبرك بمسألة الترشح هذه، ولكن كيف جعلك ذلك تستنتجين أنني مغرم بفتاة أخرى؟

استمرت ماريان في تمسيد أطراف شعرها بالمنشفة مضيفة:

- لا أعلم. أحياناً أشعر أنك ترغب في مصاحبة أناس يفهمونك.

- نعم. وهؤلاء الناس هم أنت. ولو أنني عملت قائمة لأولئك الأشخاص الذين لا يفهمونني، فستكون سادي على قمة تلك القائمة.

لاذت ماريان بالصمت من جديد وأغلق هو الحاسوب مردفاً:

- آسف أنني لم أخبرك، حسناً؟ أحياناً أخجل من إخبارك بأمور كهذه، لأن ذلك يبدو غبياً. في الواقع أنا أحترم رأيك كثيراً، ولا أريدك أن تعتبريني... لا أدري، موهوماً.

ضغطت بالمنشفة على شعرها فتحسست من خلالها نسيج خصلاته المحببة والخشنة.

Bitterness-S

- يجب أن تذهب. أقصد إلى نيويورك. يجب أن تقبل العرض، يجب أن تذهب.

أطبق بالصمت بينما نظرت هي إلى الجدار الأصفر من خلفه الذي بدا كشريحة زبدة.

- لا.

- أنا متأكدة أنك ستتمكن من الحصول على التمويل اللازم.

- لماذا تقولين هذا؟ كنت أظن أنكِ تريدين أن نبقى هنا العام المقبل.

- أستطيع أن أبقى أنا، وتذهب أنت. إنها سنة واحدة فقط، أظن أنك يجب أن تفعلها.

أطلق صوتاً غريباً، مرتبكاً، صوت شبيه بالضحك. ثم فرك عنقه بينما وضعت المنشفة أرضاً وأخذت تفك عقد شعرها بتأنٍّ.

- هذا سخيف. أنا لن أذهب إلى نيويورك من دونك، حتى إنني ما كنت لأكون هنا لو لم يكن ذلك من أجلك.

هذا صحيح، فكرت ماريان، كان سيكون في مكان آخر، يعيش حياة مختلفة. كان سيكون مختلفاً حتى مع النساء، وتطلعاته بشأن الحب كانت ستكون مختلفة. وماريان نفسها كانت ستكون شخصاً مختلفاً تماماً. هل كانت ستكون سعيدة؟ وأي نوع من السعادة قد تكون؟ لقد أفنيا كل هذه الأعوام وكأنهما نبتتان تتشاركان التربة نفسها وتترعرعان جنباً إلى جنب، وتلتويان لإفساح المجال إحداهما للأخرى، وتتخذان وضعيات بهلوانية أحياناً. لكنها في الأخير، فقد فعلت شيئاً من أجله، ومكنته من حياة جديدة، ويمكنها دائماً أن تشعر بالرضا حيال ذلك.

- سوف أشتاق إليكِ كثيراً. صدقاً سأموت لوعة.

Bitterness-S

- في البداية فقط، لكن الأمور ستتحسن فيما بعد.
ساد الصمت بينهما ولبثت ماريان تحرك المشط بشكل منهجي عبر خصلات شعرها فتتحسس العقد ثم تفكها بصبر وتأنٍّ، فلم يعد لنفاد الصبر معنى بعد الآن.
- تعلمين أنني أحبك، وأنني لن أبادل شخصاً آخر الشعور نفسه أبداً.
أومأت برأسها. نعم. إنه يقول الحقيقة.
- للأمانة لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل. قولي إنك ترغبين في بقائي، وسوف أبقى.
أغمضت عينيها وفكرت أنه قد لا يعود مجدداً، أو قد يعود. إن ما يملكانه الآن لن يُعوَّض أبداً. لكن بالنسبة إليها، ألم الوحدة لا يقارن بالألم الذي كانت تشعر به من قبل، ألم أن تكون غير جديرة بالحب. لقد وهبها صلاحَ الحال مثل هدية، وأصبح جزءاً منها. والآن انفتحت حياته على كل الاتجاهات دفعة واحدة. لقد غيَّر كلٌّ منهما الكثير في الآخر، غيَّره للأفضل. حقاً، إن الناس يستطيعون أن يغيّروا بعضهم بعضاً، قالت ماريان في خاطرها.
- يجب أن تذهب، سوف أظل دائماً في انتظارك. أنت تعلم ذلك.

الشكر

أود، بادئاً ذي بدء، أن أشكر جون باتريك ماكهيو الذي رافق هذه الرواية دهراً قبل أن أفرغ من كتابتها، كما أن نقاشاته وتوجيهاته ساهمت بشكل محوري في تنميتها. أود أن أشكر توماس موريس لملاحظاته الرصينة والمفصّلة بشأن مخطوط الرواية. وأوجه شكري كذلك لدافيد هارتري وتيم ماكغبهان لقراءتهما المسودة الأولى من الفصول الافتتاحية وعرض نصائحهما الحكيمة، ولا أنسى أيضاً كين أرمسترونغ وإيارلا مونجي وجميع أعضاء مجموعة كُتّاب كاستلبار لدعمهم مشروع هذا العمل. وأتقدم بالشكر والامتنان لترايسي بوهان لعدم ادخارها جهداً في عمل كل شيء إلا من المشاركة فعلياً في خط سطور هذه الرواية، ولميتزي أنجل التي جعلت هذا العمل يخرج في حلة أبهر وجعلت مني كاتبة أمهر. كل شكري وامتناني لعائلة جون ولعائلتي، وأخص بالذكر والداي، وكيت أوليفر وأوفي كومي لصداقتهما الرائعة. وأوجه امتناني لجون لكل ما فعله من أجلي.

Bitterness-s

سالي روني

أناس عاديون

«رواية مذهلة عن قدرة العلاقات على تغييرنا» ـ مجلة بيبول

❖ ❖ ❖

«لا أدري ما خطبي. لا أعلم لماذا لا أستطيع أن أكون مثل الناس العاديين».

هكذا تنظر ماريان إلى نفسها وإلى عجزها عن الشعور بالانتماء في هذا العالم.

في هذه الرواية الرائعة، تأخذنا سالي روني في رحلة حميمية، وتكشف لنا خفايا الأُسَر وتعقيدات العلاقات الإنسانية، وترفع القناع عن العنف المنزلي والتنمر، وتفضح الطبقية الاجتماعية والمظاهر المزيّفة، وتذكّرنا بأهمية الحب. ذلك أن رواية أناس عاديون تتناول قدرة العلاقات على شفاء النفس، وكذلك حقيقة «أنه لا يمكن لأحد أن يكون مستقلاً كلياً عن باقي الناس» وأنه يوجد حتماً شخصٌ في هذا العالم لديه القدرة على جعلنا نشعر أننا أناس عاديون وأننا جديرون بالحب.

أما ماريان، «فقد وهبها كونيل صلاحَ الحال مثل هدية، وأصبح ذلك جزءاً منها. لقد غيّر كلٌّ منهما الكثير في الآخر، غيّره للأفضل. حقاً، إن الناس يستطيعون أن يغيّروا بعضهم بعضاً، قالت في خاطرها».

تعالوا ندخل عالم ماريان وكونيل الخاص ونكتشف سبب الاستحسان الواسع الذي لقيته هذه الرواية الجميلة، حتى إنّ مجلة إنترتينمنت ويكلي وصفتها «بإحدى أفضل عشر روايات هذا العقد»، وسمّتها صحيفة الغارديان بـ«الظاهرة الأدبية لهذا العقد» وصنّفتها في المرتبة الخامسة والعشرين من بين أفضل مئة كتاب للقرن الحادي والعشرين.

ISBN 978-9920-657-42-6

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com

Bitterness-s